دار الثقافة
اليزابيث أ. كلارك
الآباء والمرأة
سلسلة رسائل
آباء
الكنيسة

رسالــة آبــاء الكنيســة

الآباء والمرأة

بقلـم
إليزابيث أ. كلارك

ترجمــة
إدوارد وديع عبد المسيح

مراجعة
القمص إشعياء ميخائيل

طبعة أولى

الاباء والمرأة

صدر عن دار الثقافة - ص.ب ١٢٩٨ - القاهرة

١٠/ ٧٥٥ ط١/٢-٢/ ٩٨

رقم الإيداع بدار الكتاب: ٧٦٨٩ / ٩٨

ISBN 977 - 213 - 436 - 5

جمع وطبع بمطبعة سيوبرس

مقدمة الدار

رسائل آباء الكنيسة كان لها دور فعال في صياغة الفكر اللاهوتي للكنيسة عبر عدة قرون، بل أننا نستطيع أن نقول إن آباء الكنيسة بما قدموه من اجتهادات فكرية، وتراث كنسي لازال يسهم إسهاماً كبيراً في صياغة الفكر اللاهوتي المعاصر، ومع أن منطقتنا العربية شهدت عطاءً وفيراً لنخبة كبيرة من آباء الكنيسة إلا أن عدداً كبيراً من هذه الأعمال لازال حبيس لغات قديمة لا نتحدثها اليوم، مما يجعل هذا الكنز مخفى عن ملايين من القراء، لهذا رأت دار الثقافة حتمية تقديم هذه الأعمال الرائعة المتعددة لآباء الكنيسة.

إن هذه الرسائل التي تقدمها دار الثقافة إلى القارئ العربي هي سلسلة رسائل آباء الكنيسة وهي صدرت من دار النشر (The Liturgical Press) باللغة الإنجليزية. ولقد قررنا ترجمة هذه الأعمال كما هي في اللغة الإنجليزية دون إضافة أو حذف أو تعديل في المعنى. فلقد اتبعنا الدقة المتناهية في عرض هذه الدراسات كما قدمها الناشر، ولهذا ربما تأتي أجزاء في هذه الدراسات مناسبة لواقعنا اليوم، وقد تأتي أجزاء أخرى قد تكون غير مرتبطة بالمتغيرات الكثيرة التي مرت بها البشرية في المراحل الأخيرة من تطورها، ومع هذا يسعد الدار أن تقدم هذا التراث كما هو، سواء كنا نوافق معه أو نختلف على بعض قضاياه، فالتراث تراث، وما قاله الآباء يجب أن تتم دراسته في ضوء القرينة السياسية والثقافية والاجتماعية لعصرهم.

إن دار الثقافة تفخر بتقديمها سلسلة رسائل آباء الكنيسة متمنين أن تكون سبب تقدير وإلهام للكنيسة في مصر والعالم العربي

دار الثقافة

المحتويات

قائمة بالاختصارات ... ٩

مقدمة الناشر ... ١١

الإهداء ... ١٣

مقدمة الكتاب ... ١٥

الفصل الأول: الفردوس المفقود ... ٢٥

– الخليقة والسقوط والزواج ... ٢٥

– أوغسطينوس: فائدة الزواج ... ٢٥

– أوغسطينوس: التعليق المبسط على سفر التكوين ... ٢٦

– أمبروز: الفردوس ... ٢٦

– يوحنا فم الذهب: بحث رقم ٤ عن سفر التكوين ... ٣٠

– يوحنا فم الذهب:بحث رقم ٢ عن سفر التكوين ... ٣١

– يوحنا فم الذهب: نوعية النساء اللاتى يجب اتخاذهن زوجات ... ٣٢

– ايريناوس: ضد الهرطقات ... ٣٣

– ترتليانوس: ملابس النساء ... ٣٤

– أوغسطينوس: التعليق المبسط على سفر التكوين ... ٣٤

– يوحنا فم الذهب: العظة رقم ٢٦ عن الرسالة الأولى لأهل كورنثوس ... ٣٦

– يوحنا فم الذهب: بحث رقم ٤ عن سفر التكوين ... ٣٦

– أوغسطينوس: مدينة الله ... ٣٨

– إكليمنضس الإسكندرى: نثريات ... ٤٠

– أوغسطينوس: الزواج والشهوة الجنسية ... ٤٧

- أوغسطينوس: فائدة الزواج ٥١
- أوغسطينوس: العظة على الجبل ٥٤
- أوغسطينوس: رسالة إلى أم مسيحية ٥٥
- ترتليانوس: مناشدة لزوجته ٥٨
- يوحنا فم الذهب: : عظة رقم ١٢ على الرسالة الأولى لأهل كورنثوس ٥٩
- يوحنا فم الذهب: : عظة رقم ٥ على الرسالة الأولى لأهل تسالونيكى ٦١
- يوحنا فم الذهب: عظة رقم ١٩ على الرسالة الأولى لأهل كورنثوس ٦٢

الفصل الثانى: النساء وتعرضهن للمخاطر- أعمال الرسل الأبوكريفى والاستشهاد ٦٥
- أعمال بولس وثكلا Thecla ٦٦
- أعمال يوحنا ٧٣
- استشهاد بريتوا وفيليستاس ٧٩
- أمبروز: العذارى ٨٥
- برودنتيوس: تيجان الاستشهاد ٨٧

الفصل الثالث: استرداد الفردوس: البتولية نظرياً وعملياً ٩٥
- ميثوديوس: الوليمة ٩٥
- غريغوريوس من نياسا: البتولية ٩٧
- جيروم: ضد جوفنيان Joviniac ١٠٣
- جيروم: الرسالة رقم ٢٢ ..... ١٠٧
- بالاديوس:تارخ لوسياك Lausiac ١٠٨
- جيروم: الرسالة رقم ١٠٨ ..... ١١٠
- أوغسطينوس: الرسالة رقم ٢١١ ..... ١١٢

- قيصريوس من آرلز: قواعد للعذارى القديسات ١١٤
- يوحنا فم الذهبي: عن ضرورة حفظ البتولية ١١٧
- ترتليانوس: حضٌّ على العفة ١١٩
- ترتليانوس: الزواج بامرأة واحدة ١٢٢
- يوحنا فم الذهب: عدم الزواج مرّة أخرى ١٢٣

الفصل الرابع: النساء فى دائرة أوسع ١٢٧
- يوحنا فم الذهب: العظة رقم ٩ على الرسالة الأولى إلى تيموثاوس ١٢٧
- يوحنا فم الذهب: تحية بريسكلا وأكيلا ١٢٨
- يوحنا فم الذهب:العظة رقم ٧ عن متّى ١٢٩
- هيبوليتس: تفنيد كل الهرطقات ١٣٠
- جيروم: الرسالة رقم ١٣٣ .... ١٣١
- جيروم: الرسالة رقم ١٢٧ .... ١٣٢
- جيروم: الرسالة رقم ١٠٨ .... ١٣٢
- بالاديوس: تاريخ لوسياك ١٣٣
- فالتونيا بيتيتيا بروبا، مختارات من أشعار فرجيل ١٣٤
- جيروم: الرسالة رقم ١٢٨ .... ١٣٧
- جيروم: الرسالة رقم ١٠٧ .... ١٣٨
- ترتليانوس: المعمودية ١٤١
- يوحنا فم الذهب: عن الكهنوت ١٤١
- يوحنا فم الذهب: القديستان برنيكي وبروسدوس ١٤٢
- قوانين نيقية وخلقيدونية ١٤٣
- جيروم: الرسالة رقم ٧٧ .... ١٤٧

- سقراط سكولاستيكوس: تاريخ الكنيسة ١٤٩
- ايجيريا : رحلة ايجيريا egeria ١٥٣

الفصل الخامس: النساء كنماذج وكمعلمات ١٦٥
- جيروم: الرسالة رقم ١٢٧ ١٦٥
- جيروم: الرسالة رقم ١٠٨ ١٦٩
- بالاديوس: تاريخ لوسياك ١٧٢
- بولينوس النولاوى: الرسالة رقم ٢٩ ١٧٤
- جيروم: الرسالة رقم ٤٥ ١٧٧
- بالاديوس: التاريخ اللوزياكى ١٨٠
- حياة أوليمبياس ١٨٠
- جيروم: الرسالة رقم ١٣٠ ١٨٦
- غريغوريوس النيصى: حياة القديسة ماكرينا Macrina ١٨٩
- يوحنا فم الذهب: الكهنوت ١٩٥
- أوغسطينوس: الاعترافات ١٩٦
- اقتراحات لمزيد من القراءات ٢٠٥

قائمة بالاختصارات

CCL: Corpus Christianorum, Series Latina.	الموسوعة المسيحية النسخة اللاتينية.
CSEL: Corpus Scriptorum Ecclestiasticorum Latinorum	الموسوعة الكتابية الكنسية اللاتينية.
GCS: Die Griechischen Christlichen Schriftsteller deresten drei Jahrbunhderet.	دراسات لاتينية آبائية.
PG: Patrologia Graeca.	الآباء اليونانيون.
PL: Patrologia Latina.	الآباء اللاتين.
SC: Sources Chretiennes.	المصادر المسيحية.

مقدمة الناشر

إن رسالة آباء الكنيسة هى سلسلة مصاحبة لرسالة العهد القديم ورسالة العهد الجديد، فقد كان التفكير فيها والتخطيط لها على أساس الاعتقاد بأن الكتاب المقدّس والتقليد كانا يعملان جنباً إلى جنب فى تكوين فكر وحياة وعبادة الكنيسة الأولى.

ومثل هذه السلسلة أعتقد أنها سوف تكون أنسب وسيلة فعالة لكشف ما كان يعتبر بحق كتاباً مغلقاً أمام قراء العصر الحديث، وأنها سوف تسهم فى تحفيز الاهتمام بالدراسات الخاصة بآباء الكنيسة الأولى، جنباً إلى جنب مع النهضة الحديثة لإحياء الدراسات الكتابية.

وكلمة (آباء) تعنى خصيصاً الكُتّاب المسيحيين الذين يتميزون باستقامة العقيدة، وقداسة الحياة، وإجماع قادة الكنيسة والأصالة (القِدم) وكلمة (القِدم) يفهم منها عموماً أنها تشمل الكتّاب حتى عصر غريغوريوس الكبير (٦٠٤م) أو أيزيدور Isidore من سيفيل (٦٣٦م) فى الغرب ويوحنا الدمشقى (٧٤٩م) فى الشرق. وفى هذه السلسلة اتبعنا قدراً كبيراً من المرونة مع ذلك، حيث إنها قد تضمنت اقتباسات من كُتّاب لا يشتهرون باستقامة الرأى لإيضاح تطور الرسالة فيما يختص بشئون العقيدة، وبالمثل سنجد أمثلة للتوضيح من كُتّاب فيما بعد منتصف القرن الثامن للدلالة على تواصل التقليد فى أمور اللاهوت المتعلقة بممارسة الطقوس والفرائض المقدسة.

وقد بُذلت محاولة جادة لاختيار من يقومون بالإسهام فى هذه السلسلة ليس على أساس الانضباط والصرامة فى التمسك بالعقيدة أو الطائفة، بل كان الاهتمام منصباً على التوفيق بين علماء يستطيعون معالجة موضوع الآباء فى لغاتهم الأصلية وبين الموضوعات التى أظهروا فيها اهتماماً خاصاً ونبوغاً واضحاً. والتوجيه الوحيد الذى قُدم للمساهمين المختارين لهذا العمل هو السماح للآباء بالتحدث عن أنفسهم وأنهم يجب أن يتحدثوا بلغة إنجليزية عصرية يمكن قراءتها والوثوق فيها والاعتماد عليها.

والمجلدات التى كُتبت فى موضوعات مستقلة أُعتبرت أنسب من المجلدات التى كُتبت عن آباء معينين على أمل أن كل موضوع يمكن أن يضيف شيئاً جديداً هاماً للبناء المتكامل

للكنيسة الأولى الواحدة المقدسة الجامعة الرسولية. ، ولكل كتاب مقدمة تحدد إطاراً للتطور التاريخى واللاهوتى للموضوع لربطه بالمضمون الأساسى الذى يهتم فى المقام الأول باستشهادات وفيرة من الآباء بترجمة انجليزية عصرية وبأقل قدر من التعليقات عليها، ويُضاف لذلك قوائم قصيرة بقراءات إضافية مقترحة، ولكن الهوامش التى تميل للدراسة المتعمقة لم نلجأ إليها على الأساس الواقعى بأن مثل هذه الدراسات المختصرة لها مجالات أخرى، وهى لا تهم سوى فئة قليلة من القُراء المتزمتين الذين يحتاجون لسلسلة متخصصة.

وفى افتتاحية كتابه « ضد الهرطقات» يحذر (ايريناوس) من (ليون) قُراءه بالقول «لا توقعوا منى أى استعراض خطابى أو بلاغى لم أتعلمه، ولا أى امتياز فى التأليف لم يسبق أن مارسته ولا أى جمال أو جاذبية فى الأسلوب لا أدعى أنى أقدر عليه»، وبالمثل يوجد الكثيرون من الآباء اليونان واللاتين المتواضعين غير المدّعين، ولكن لسوء الحظ فقد اعتبرهم العالم كذلك لفرط تواضعهم، ولكنهم فى الحقيقة كانوا على قدر كبير من التعليم وهم نتاج أفضل المدارس البلاغية فى عصرهم فى الامبراطورية الرومانية، وما اضطروا لقوله كان درساً فى التهذيب الأدبى والثقافى بالإضافة للتنوير الروحى.

يقول القديس (أوغسطينوس Augustine) فى كتابه «مدينة الله» (٧و١٩) تعليقاً شيقاً عن الحاجة للغة مشتركة فى المجتمع العالمى الذى يتزايد أفراده بصورة رهيبة. إنه بدون هذه اللغة المشتركة يشعر الإنسان أنه فى تآلف مع كلبه أكثر من تآلفه مع شخص أجنبى بالنسبة للعلاقات الدولية، حتى فى الامبراطورية الرومانية التى كانت تفرض على الأمم التى تقهرها عبء القانون واللغة مع وفرة من المترجمين. ويبدو أنه فى عالم اليوم الذى يتميز بالحواجز اللغوية الدائمة، يثبت المشاركون فى هذه السلسلة أنهم مترجمون جاءوا فى وقتهم المناسب لترجمة الرسالة المسيحية الخالدة.

الإهـــداء

يتوجب عليَّ الشكر لعدة أشخاص، كانت اقتراحاتهم وانتقاداتهم معينة لي في الإعداد لهذا الكتاب: جريجوري الفتمان Gregory Elftmann ودينيس جروه Dennis Groh وتوماس هالتون Thomas Halton وسوزان هانا Susan Hanna وديان هاتش Diane Hatch واليزابيث ميريل Elizabeth Merill وأدموند كلارك Edmund Clark وقدمت لي ماري آن الاري Mary Ann Ellery مساعدة خاصة فيما يختص بفقرات ترتليان Tertullian وهؤلاء الزميلات والصديقات لسن مسئولات بالطبع عن أية عيوب باقية في الترجمات، وأود أيضاً أن أشكر هيئة مكتبة الدمبارتون أوكس Dumbarton Oaks ، وبخاصة السيدة ايرين فاسليف Irene Vaslef لمساعدتها، وحيث إن هذا العمل لهذا الكتاب قد ابتدأ أثناء توطيد العلاقة بيني وبين الهيئة القومية لتقديم المنح للعلوم الإنسانية، أقدم الشكر الجزيل للهيئة لكرمها. كما أشكر عميدة كلية ماري واشنطن ماري آن برنز Mary Ann T. Burns ومديرها لدراسات الخريجين دونالد إ جلوفرDonald E. Glover لتمويل خدمات السكرتارية التي قدمتها السيدة يوناكرست Una crist التي قامت بنسخ المخطوط-بكفائتها المعتادة وبشاشتها على الآلة الكاتبة. بقيت ملحوظة أخرى فيما يختص بمحتويات هذا الكتاب: فبما أن الحديث عن العذراء مريم مخصص له مجلد آخر في هذه السلسلة، فلا يتضمن الكتاب أية مادة متعلقة بها.

وأشكر مطبعة ادوين ميلن Edwin Mellen على السماح بالاقتباس من ترجماتي من «حياة اوليمبياس» Life Of Olympias وكتاب يوحنا فم الذهب John Chrysostom عن "ضرورة حفظ البتولية». والذي ظهر في جيروم ويوحنا فم الذهب والأصدقاء مقالات وترجمات (نيويورك ١٩٧٩)، ومطبعة الدارسين للسماح بالاقتباس من ترجمة كتابFaltonia Betitia Proba Cento فالتونيا بيتنيا بروباسنتر في(الغصن الذهبي) و(صليب شجرة البلوط): The Virgilian Cento Of Flatonia Betita Proba† بقلم ديانا هانشن وأنا (شيكو، كاليفورنيا ١٩٨١).

(اليزابيث كلارك)

جامعة ديوك

درهام- كارولينا الشمالية

أغسطس ١٩٨٢

المقدمـــة

إن أنسب تعبير نصف به موقف كنيسة الآباء تجاه النساء هو تضارب الأقوال، فالنساء هن خليقة الله وعطيته الصالحة للرجال، وهن أيضاً لعنة العالم، فهن ضعاف العقل والشخصية، ومع ذلك أظهرن شجاعة فائقة، وأخذن على عاتقهن القيام بأعمال فذّة فى رعاية الأشخاص وفى نشر الثقافة، ومع أنهن وُصفن بأنهن مختالات ماكرات وشهوانيات، إلا أنهن اقتدن الرجال للمسيح، وتخلين عن الاتصالات الجنسية، ولم يحركن ساكناً أمام تهديدات الجلادين، ولبسن المسوح والرماد.

وإذ نحيل قرار الآباء وفكرهم إلى متخصصين آخرين، فإن هذا الكتاب يوثق من وجهة نظر تاريخية الطرق التى بها كان الآباء يوجهون المديح أو التكريم، أو التقليل من الجنس النسائى.

ونجد هذا التناقض الثابت بدلائل قاطعة فى التجاء الآباء إلى الكتاب المقدس. فتفسيرهم لما ورد فى سفر التكوين (١-٣) على سبيل المثال، كان يدل على آرائهم بشأن خضوع النساء وتبعيتهم للرجال واستنادهم إلى تكوين ٢ عن خلق المرأة (التى تذكر أن حواء خُلقت ثانياً من أحد أضلاع آدم) أكثر من تكوين ١، والذى «ذُكر فيه أن الله خلق الإنسان ذكراً وأنثى فى نفس الوقت، على صورة الله وشبهه» (تكوين ١:٢٦). وبنفس الطريقة عندما كانت تحين الفرصة لشرح دور المرأة «كمعين» (تكوين٢:١٨) فإن الآباء كانوا يغفلون استخدام الكلمة (معين) فى الكتاب المقدس لوصف الله كالمعين المجيد لشعبه المختار، وإذ نعرف ضعف الآباء فى اللغة العبرية بالإضافة لميولهم الشخصية، فإنهم ركزوا على فكرة المعونة فى دور المرأة فى ولادة الأطفال، والدليل على ذلك أنهم اتفقوا أنه فى النواحى الأخرى من جوانب النشاط البشرى، فإن مساعدتها كانت بالتأكيد أقل من تلك التى يقدمها الذكور. وبالمثل فى العهد الجديد: فإن الآباء عادة كانوا يركزون على الآيات التى كانت تقدم الأساس المنطقى لتقييد حرية النساء وليس تحريرهن. وهكذا فقد اتخذوا ما قاله بولس فى أصحاح ١١ من الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس والتى يدعو فيها بولس الرجال أنهم «على صورة الله» ولكنه لا يستخدم نفس الشىء فى وصف النساء (على عكس ما جاء فى تكوين ١:٢٦)، اتخذوا من ذلك دليلاً على أن النساء ينقصهن بعض الصفات الجوهرية التى يشترك فيها الرجال مع الله. وحيث إن الآباء اعتقدوا أن بولس كتب ما جاء فى الرسالة الأولى إلى تيموثاوس، وهو رأى

يرفضه الآن معظم علماء الكتاب المقدس، فقد أيدوا الإقرار الرسولى على الآيات الرئيسية التى تذكر النساء بالصمت والخضوع للرجال (مثلاً ما جاء فى تيموثاوس الأولى ٢:١١)، وهكذا فالآباء يقتبسون من الكتاب المقدس بطريقة تؤيد وتبرر الاتجاهات التقليدية نحو النساء، وهى الاتجاهات المستمدة من مدح العهد القديم للنسوة العاملات بالمنزل، والتحذيرات ضد «النسوة المتسيبات»، حيث كانت القدوة قديماً فى العهد الوثنى هى المرأة المحتشمة العفيفة والأم المقيمة بالمنزل، والأوصاف الغير ملائمة للنساء فى بعض الأدب الكلاسيكى وبخاصة فى الهجاء. فأحد الأهداف الرئيسية لهذا الكتاب هو إلقاء الضوء على استخدام الآباء للكتاب المقدس فى مناقشاتهم عن النساء، ويمكن للقُراء أن يحكموا بأنفسهم على المدى الذى لعبته التفسيرات أحياناً لخدمة الافتراضات الشخصية والثقافية.

ومع أن كنيسة الآباء لم تقتبس أعداداً من العهد الجديد مثل ما جاء فى (غلاطية ٥:١) «فاثبتوا إذاً فى الحرية التى قد حررنا المسيح بها» فى تعليقاتهم على جنس النساء، إلا أن النساء المسيحيات من عصر آباء الكنيسة اللاتي تخلين عن أدوارهن التقليدية فى إنجاب الأطفال والخدمة المنزلية، قد افتتحن آفاقاً جديدة لأنفسهن، آفاقاً فى الدراسة والتأمل، والسَفَر إلى الأراضى المقدسة والمجهودات الخيرية. والتفكير فى نساء كهؤلاء جعل الآباء يتذكرون أقوالاً عن النسوة اللاتى يجب الثناء عليهن فى العهد الجديد. فالنساء سافرن وقدمن المعونة والمساعدة ليسوع وتلاميذه، والنساء وليس الرجال- كن عند صليب المسيح وكن الأوائل عند قبره. وبولس فى رسائله العديدة كان يحيى النساء العاملات معه. فالنساء اللاتى كرسن حياتهن بالتمام لمثل هذه الأنشطة الدينية تلقين أوسمة كثيرة من الآباء، تقف على طرفى نقيض مع الشجب واللوم الذى صبه كثير من الآباء على النساء عموماً. وكأن الطريق الرئيسى للحصول على حرية متزايدة للنساء المسيحيات فى عصر الآباء هو طريق التبتُل، فقد اعتقد معظم الآباء أن النساء اللاتى نبذن الحياة الجنسية قد ارتفعن فوق حالتهن الطبيعية المهينة إلى الدرجة التى أصبحن بموجبها « جنساً ثالثاً»، يختلف عن الإناث اللاتى ما زلن يرزحن تحت نير عبودية حواء فى آلام المخاض والخضوع للأزواج. والزواج بصفة خاصة وضع النساء فى دور أدنى من الرجال، كما أن الوظيفة الجنسية فى حد ذاتها جعلت النساء تابعات للرجال، ولذا يمكن أن يقال إنه من إحدى الوسائل الناجحة التى كان الآباء يتبعونها لإعطاء المزيد من الحرية للنساء تمجيدهم لحياة البتولية، فإذا اقتنعت الفتاة بالبتولية الدائمة كان ذلك هو الطريق

الأفضل، وإذا ترملت المرأة فعلى الأقل يمكن تشجيعها على عدم العودة لمشاكل الزواج بل لتفاهته.

ومرة أخرى، قرأ الآباء الكتاب المقدس لانتقاء المستند الشرعى لدفاعهم عن التبتل. ففى العهد القديم هناك الحقيقة القائلة: بأن آدم وحواء قد كُتب عنهما أنهما لم يباشرا الاتصال الجنسى سوى بعد طردهما من جنة عدن (تكوين ٤:١) قد اتخذها بعض الآباء دليلاً على أن الزواج والإنجاب أقل نفعاً من التبتل، هذا إذا كانا يحملان أى نفع على الإطلاق. وبالمثل فإن يسوع تفوّه بكلمات فيها مديح لأولئك الذن خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات (متى ١٢:١٩) وقوله إنه «فى القيامة لا يزوجون ولا يتزوجون» (مرقس ٢٥:١٢ ،متى٢٢: ٣٠، لوقا ٣٥:٢٠)، كل ذلك قد اعتبر تشجيعاً لحياة البتولية هنا على الأرض. بل أن الواقع يقول إن الآباء فى تأييدهم لحياة البتولية قد انغمسوا فى تفسيرات كتابية لا تمت فى قليل أو كثير للمعنى التاريخى للنص. ومثالاً لذلك: تفسير جيروم Gerom «عن المئة ضعف» فى مثل الزارع (مرقس٤:١-٩، متى ٩:١٣، لوقا ٨:٤-٨) بأنه يمثّل البتولية، بينما «الستين ضعفاً» تمثل الحياة كأرمل أو أرملة، وعن «الثلاثين ضعفاً» بأنها تمثل الزواج، هذا التفسير ليس له أساس فى رسالة يسوع عن مجىء الملكوت الغير متوقع وعن الثمر المتكاثر. وهكذا أيّد الآباء التبتل بالالتجاء لمثل هذه النصوص، بينما هناك نصوص أخرى تمتدح الزواج والاتصالات الجنسية والإنجاب، فكانوا يتجاهلونها أو يرفضونها باعتبارها غير ملائمة للمثل المسيحية العليا.

وبينما تعد هذه التفسيرات نوعاً من التسلية أكثر منها مادة تعليم لقُراء العصر الحديث، فالدرس المستفاد منه فيما يخص النساء فى غاية الأهمية: إذا كان دور النساء الوحيد هو شهوات الرجال، وإنجاب الأطفال، فالفكرة الرئيسية لرفع مقام النساء، وإضفاء الفردية على شخصياتهن، والإحساس بكيانهن يكون عن طريق نبذ وظيفتهن الجنسية، فكما أن تحذير الآباء من الزواج كان نابعاً أولاً وقبل كل شىء من غموض الفكرة لديهم عن الشر أو الخير الكامن فى الفعل الجنسى، فمشاعرهم المتضاربة بخصوص النساء كانت تدور حول المرأة كرمز للنشاط الجنسى، وشهوات الجسد واختفاء التعقل فى مواجهة الرغبة. ومع أن رجال العصر الحديث قد يوبخون الآباء على تقليلهم من مراكز النساء المتزوجات وإفراطهم فى مدح النساء العفيفات المتبتلات، إلا أن الحقيقة تتضح من وجهة النظر التاريخية أن التبتل كان عاملاً هاماً

فى تحسين أدوار النساء فى عصر الآباء. ومع ذلك فحتى بالنسبة للنساء المتبتلات فإن ترجمة هذا السمو اللفظى ليصبح سمواً واقعياً كان جزئياً فقط: فالمناصب الكهنوتية وممارسة الفرائض والتعليم، كان ما يزال قاصراً على الرجال فقط. هكذا كان الانحياز للتبتل قوياً فى عصر المسيحية الأول لدرجة أنه كان يمكن أن يصبح قاعدة عامة لكل المسيحيين، لو لم تظهر الغنوسية بكل شرورها. والغنوسية حركة اكتسحت دول البحر المتوسط فى القرنين الثانى والثالث للميلاد واعدة (الصفوة) بالخلاص من شرور الحياة الحاضرة. وازدهرت الطوائف الغنوسية العديدة، وعلى الرغم من تنوعها المحزن إلا أنها اشتركت جميعاً فى كراهية عامة للعالم المادى والخالق الذى صنعه. وفى مواجهة هذه الفكرة، نادت الكنيسة المستقيمة الرأى بصلاح العالم المخلوق، وقالت: إن الله نفسه فى سفر التكوين، الأصحاح الأول قال عن كل ما خلقه إنه «حسن»، وعلى الرغم من اختلاف البشر وتنوعهم إلا أن أجسادهم المادية جزء لا يتجزأ من هذه الخليقة الحسنة، وإذا كان الخالق قد أعطى البشر أعضاء جنسية، وأمر أول زوجين بأن «اثمروا واكثروا» (تكوين ١:٢٨)، فإن الاتصال الجنسى وإنجاب الأطفال، عندما يُنظر إليه من زاوية الخطة الإلهية المرسومة للمجتمع البشرى ومن زاوية الباعث الصحيح لا يمكن أن يكون شراً، وهكذا فإن هواجس الآباء بخصوص العلاقات الجنسية مردود عليها بأنها تناقض ادعاءهم النظرى بأن الله هو الذى أعطانا هذه الأجساد وأمرنا بالتكاثر: فهذا الادعاء كان حائلاً دون الدفاع عن تبتل جميع المسيحيين. وجاء القرن الرابع الميلادى بما فيه من ازدياد نشاط الحماس للتبتل، وظهور إمكانيات جديدة خارج دائرة الحياة المنزلية للنساء. فليس من قبيل الصدفة إذن أن أغلب الاقتباسات التى فى هذا الكتاب، ترجع إلى القرن الرابع وأوائل القرن الخامس أى فى الفترة التى كانت فيها النساء المسيحيات مثالاً يحتذى به فى حياة التقوى وكمعلمات للآخرين ضاربات المثل على حياة التكريس التى تحتذى بها الأجيال التالية من الإناث. وهناك أيضاً الحقيقة الواضحة أن عدداً كبيراً من النساء اللاتى امتدحهن الآباء قد أتين من أوساط ارستقراطية عريقة، قد نبذن الثروة والمركز الاجتماعى المحترم ليصبحن مسيحيات متبتلات، مما جعل تضحيتهن يُضرب بها المثل فى أعين الرجال الذين كتبوا عنهن لأنهن هجرن روابطهن العائلية الطبيعية، وأحياناً تركن أطفالهن للسير فى حياة البتولية مما اعتبره الآباء دليلاً واضحاً على قوة الإرادة التى أعطاها الله للإناث المجاهدات لاتّباع الرب.

ونحن إذ نرى الدروب الجديدة المتاحة للنساء المتبتلات، فمن المنطقى أن نلاحظ أن هذه

معترف بهن، ومع أن الآباء يجهدون أنفسهم فى أحاديث بليغة وكثيرة عن قلة فطنة النساء ومقدرتهن العلمية كأسباب وجيهة لهذا الاستبعاد، إلا أن شهادات عديدة تكشف أن بعض النساء المسيحيات الأوائل قد تفوقن على الرجال فىَ إلمامهن بالكتاب المقدس وبلغاته وبعلم اللاهوت كما يتضح فى الفصل الرابع من هذا الكتاب. فأقوال الآباء البليغة، تتناقض مع شهاداتهم أنفسهم عن براعة النساء الفائقة فى مجال الدراسات الكتابية.

وبغض النظر عن إمكانية وجود دوافع أخرى لحجب النساء عن تولى هذه المناصب، يمكننا أن نلاحظ جانباً تاريخياً: فمنذ القرن الثانى فصاعداً انشقت طوائف عديدة عن طريق المسيحية الرئيسى، وأعلنت الكنيسة مراراً وتكراراً بأنها هرطوقية ومنشقة على الكنيسة، ومع ذلك سمحت هذه الطوائف للنساء باعتلاء مراكز قيادية بما فيها ممارسة الطقوس الدينية. وهناك شيع غنوسية مختلفة ربما أعطت النساء دوراً للقيام بأداء فريضة العماد. وكانت النهضات الكاسحة التى جاءت بفضل إلهام الروح القدس عاملاً فى السماح للنساء بدور أكبر، لأنه يمكن القول بأن الله لم يفرق بين الجنسين فى توزيع المواهب الروحية، فمن المحتمل إذن أن الكنيسة الجامعة فى رد فعلها على مثل هذه الطوائف، والتى كانت تعد بحق خطراً حقيقياً يهدد استقامة الرأى فى المسيحية ويقضى على قوتها، قد رسمت حدوداً فاصلة فى تعيين أنواع المناصب الكنسية المعينة المسموح بها للنساء فى تلك الطوائف، وبين المناصب والأدوار المسموح بها للنساء فى الكنيسة الجامعة، وعندما يذكر الآباء الآيات الكتابية التى تذكر تلاميذ المسيح الاثنى عشر، كتبرير لجعل الكهنوت قاصراً على الرجال، نرى أنهم يلجأون لقواعد اليهودية الفلسطينية، كقاعدة لممارسات الكنائس المسيحية التى جاءت بعد ذلك فى العالم اليونانى الرومانى الأشمل. ويركز المؤرخ على أن اصطدام المسيحية الجامعة بالحركات الهرطوقية والانشقاقية دفع آباء الكنيسة لكى يحدوا من أنشطة النساء. أما التجاؤهم لعادات وتقاليد اليهودية، والعصر المسيحى اليهودى الأول فكان يتخذ منه مبرراً شرعياً لممارساتهم.

ومختارات هذا الكتاب موزعة على خمسة فصول. فى الفصل الأول نكتشف القواعد النظرية والمبررات الكتابية التى قدمها الآباء لمنح النساء مراكز تابعة للرجال باعتبارهن أقل قدراً من الرجال، ومع أن العقوبة التى وقعت على حواء بسبب دخول الخطية الأصلية بتحريض منها هى السبب الرئيسى المذكور لإخضاع النساء للرجال، إلا أن كثيراً من الآباء استندوا إلى

قصة تكوين ٢ عن الخليقة، والتى ذكر فيها أن الرجل خلق أولاً والمرأة خُلقت منه ولأجله كان يتضمن نظاماً إلهياً للخليقة تكون فيه النساء خاضعات للرجال منذ البداية. ومع حدوث السقوط ازداد هذا الخضوع، ومع ذلك فقد كان الآباء شغوفين للتأكيد على أن الخضوع كان حقاً لصالح المجتمع البشرى، وأدى إلى أن يكمل كل منهما الآخر، فالزواج كرمز لهذا الخضوع الأنثوى يتم التركيز عليه فى هذا الفصل الوارد تحت عنوان «الفردوس المفقود».

يبحث الفصل الثانى فى بعض الظواهر المصاحبة لنشاط النساء فيما بين القرنين الثانى والرابع، وشهدت هذه الفترة ظهور نوع جديد من الأدب المسيحى، هو أعمال الأبوكريفا Apoc-rypha Acts أعطى فيه للمرأة الأدوار البطولية. ومن المثير أن نعرف أن المسيحية المتمثلة فى معظم هذه الأعمال هى مسيحية ترفع راية البتولية فى المقام الأول: فمن الواضح أنه فى الدوائر التى أنتجت أعمال الأبوكريفا بدأ الربط بين شعارات البتولية، وبين أدوار أكبر للنساء، وهى ظاهرة انتشرت فى الواقع المعاش فى تلك الفترة وليس فى القصص الخيالية فقط، وبنوع خاص القرنين الرابع والخامس من ظهور المسيحية. وفى أعمال الأبوكريفا نجد النساء فى مرات كثيرة أكثر ورعاً وتقوى من أقربائهن من الرجال، ونراهن يقمن بوظائف كان يظن قبلاً أنها محجوزة للذكور فقط كالتعليم، وهن يقمن أيضاً بأعمال معجزية خارقة بدءاً من إسكات الوحوش فى حلبة المصارعة حتى إقامة الأموات، ويتم تصويرهن أيضاً بأنهن معرضات لكثير من المخاطر: فقرارهن باتخاذ طريق البتولية يوغر صدور أزواجهن أو من خطبهن، وأفراد عائلاتهن الذين يحاولون إثناءهن عن عزمهن بكل الوسائل الممكنة، ولو بإحالتهن للسلطات الدنيوية لإنزال العقوبة بهن.

ويبحث الفصل الثانى أيضاً فى نوع آخر من النساء« تعرّضن للخطر» منهن اللاتى قدّمن أنفسهن كشهيدات، وقد وافق آباء الكنيسة أنه فى حالة الاستشهاد لا فرق هناك بين ذكر وأنثى، ولقد أثبتت النساء أنهن قويات فى الإيمان ومقاومات لتهديدات اضطهاد من الرومان تماماً كالرجال. أتاح الاستشهاد الفرصة- إذا صحت التسمية- ليس للإعلاء من شأن الإناث فقط بل أنه أظهر موضوعاً بطولياً عن النساء ليتغنى به الكتّاب نثراً وشعراً كما يوضح ذلك الفصل الثانى. إن قصص النسوة الجريئات اللاتى احتفظن بكرامتهن واعترافهن بالإيمان أثناء إلقائهن للوحوش الكاسرة، وطعنهن على يد جلاديهن أتاح تقديم قصص زاخرة مفعمة بأمثلة البطولة والفداء.

ويقدم الفصل الثالث دور التبتل والعفة وخاصة منذ بداية القرن الرابع فصاعداً وكيف أنه فتح مجالات عديدة للإعلاء من شأن المرأة. كما يتناول التبرير النظرى للبتولية الذى ينطبق على كل من الرجال والنساء: فأقانيم الثالوث لا صلة لها بالزواج على الرغم من الأبوة والبنوّة الموجودة فى الثالوث. فيسوع الذى نؤمن أنه وُلد من عذراء تم تصويره فى الأناجيل بأنه لم يتزوج. فإذا ابتغى المسيحيون استعادة الحالة الأصلية التى خُلقوا عليها، وأرادوا أن يشاركوا حتى فى الطبيعة الإلهية، فالبتولية هى الطريق الذى يجب أن يختاروه لذلك الهدف، وكان ينظر للبتولية على أنها على قدم المساواة مع الاستشهاد الذى لم يعد بعد أوائل القرن الرابع وسيلة متاحة لإعلان التمسك الشديد بالمسيحية، وبالإضافة لذلك فالبتولية كان لها بريق خاص لدى النساء: فحيث إن الخضوع للرجل فى الزواج كان عقوبة بسبب الدور الذى قامت به المرأة فى الخطية الأصلية، فاختيار طريق التبتل والنسك كان يعنى تحطيم قيود هذا الخضوع. واستطاع الآباء زيادة على ذلك اجتذاب النساء لهذا الطريق على أسس واقعية: فالتحرر من الزواج كان يعنى التحرر من العديد من الواجبات والهموم المتعلقة بالأزواج والأطفال والحموات والخدم وكل ما يتعلق بشئون المنزل، وكل هذه العلاقات رأى فيها الآباء قيوداً تكبل حياة النساء.

فى هذا الصدد نشأت مشاكل عملية من حيث مكان إقامة النساء اللاتى يتنسكن، وكيفية معيشتهن. كانت مشاكل ضاغطة فى مجتمع ليس فيه للمرأة دور سوى أن تكون زوجةً أو أماً، والطريقة التى انتقلت بها طرق التبتل المصرية، وأسلوب حياة هذا التبتل إلى غرب أوربا وفلسطين وبيزنطة نجد تفصيلاً لها فى العديد من المصادر المتعلقة برهبنة الإناث فى الفصل الثالث، ودفاع الكنيسة عن حياة التبتل كان يتضمن نقداً لاذعاً للزواج الثانى، والمختارات المفصلة لهذا الموضوع مقدمة هنا أيضاً. وهكذا فإن الفصل الثالث، يشرح حديث الآباء الذى ينادى بأن النساء يمكن أن يحصلن عن طريق التبتل على المركز الذى فقدنه بالسقوط وتأسيس الزواج: فالفردوس يمكن أن يُسترد.

ويُوثق الفصل الرابع كلاً من القيود والفرص المتاحة للنساء إذ يتطلعن إلى ما وراء الحيز المنزلى المحدود إلى العالم الأوسع والأشمل.وكانت القيود تشمل استبعاد الإناث من مناصب الكهنة والمعلمين على أساس أن حواء قد أثبتت أنها معلمة سيئة لآدم، وحتى هذا المجال لم يكن يُسمح للمرأة أن تعلم أشخاصاً محدودى العدد ، وفى حالات استثنائية، كانت المرأة تمتدح

لتعليمها الجهرى بشرط تفنيدها للهرطقة، وباستثناء هذه الضوابط فإن نساء الطبقات العليا والذى نستمد منهن الدليل تتمتعن بتعليم كلاسيكى أدبى، وأضفن إليه دراسة الكتاب المقدس والقراءة اللاهوتية باليونانية واللاتينية والتدرب أيضاً على العبرية. وقد سمح للنساء بمزاولة بعض الأدوار الاكليريكية أو شبه الاكليريكية، فمنذ العصور الأولى كان للكنيسة نظام الأرامل اللاتى كن يقمن بالعديد من الأعمال الخيرية والدينية. وفى القرن الرابع نشأ نظام الشماسات اللائى كن يساعدن الأسقف فى المهام الطقسية والتعليمية الخاصة بالنساء.

كان يتم رسامة الشماسات فى الكنيسة الشرقية، إن لم يكن فى الغربية، وقد تجمعت هذه الأنظمة المتعددة للنساء بالتدريج تحت مسمى واحد وهو منصب الراهبة ، وكل ما يتعلق بهذه التطورات موجود فى الفصل الرابع. وأخيراً شهد القرن الرابع زيادة اهتمام المسيحيين بالذهاب للأماكن المقدسة . وكان النساء والرجال يتسابقون فى السفر إلى فلسطين ومصر وأماكن أخرى كما هو موصوف فى الفصل الرابع.

ويتكون الفصل الأخير من العديد من صور العلاقات التى تربط النساء بآباء الكنيسة كالصداقة والأمومة والأخوّة ،وتعتبر رسائل (جيروم Gerome) -هو أحد آباء أواخر القرن الرابع الذى كان يكتب باللاتينية- تعتبر مادة دسمة لتقديم صور موجزة للنساء المسيحيات الشهيدات فى محيط صديقاته ومعارفه. وكذلك نكتشف التأثير القوى الذى كان للأمهات والأخوات على التطور الدينى لأبنائهن وإخوتهن فى مختارات من أقوال أوغسطينوس ويوحنا فم الذهب وغريغوريوس النيصى Augustine, John Chryasostom, Gregory Of Nyssa.وما يشد انتباهنا بالمثل الطريقة التى خدمن بها المتبتلات كنماذج حية للأجيال التالية من النساء، والمديح الذى حصلت عليه النساء اللاتى تسرد قصصهن فى هذا الفصل يتناقض تناقضاً صارخاً مع اللوم الموجه لحواء وسلالتها من الإناث، كما هو مدون بالتفصيل فى الفصلين الأول والثالث.

وبذلك نكون قدمنا صورةً متكاملةً لاكتشاف تخبط آباء الكنيسة فى موقفهم من النساء، فالنساء نلن مديحاً سخياً وذماً وهجاءً وفيراً باعتبارهن سبب ويلات العالم على يد مؤلف واحد: فنادراً ما يُنظر إليهن كأشخاص لهن نفس الفضائل والضعفات كالرجال. فلابد من مرور ردح من الزمان قبل أن تُقر السلطات الدينية المتركزة فى أيدى الرجال بأن النساء اللاتى يقمن

بوظيفتهن الجنسية والإنجاب جديرات بالاحترام تماماً كالنساء اللاتى اخترن طريق البتولية.

بقى أيضاً الكثير- والذى ما يزال قائماً- وهو فتح الأبواب التى أغلقها آباء الكنيسة فى وجه النساء، حتى بالرغم من ترددهم فى تخصيص بعض الأدوار والفرص الجديدة للنساء.



الفصل الأول

الفردوس المفقود: الخليقة والسقوط والزواج

قبلت المسيحية الأولى الاعتقاد العبرى الراسخ بأن العالم خلقه الله، ومن ثم فهو حسن فى الجوهر، كما تم الإعلان عن ذلك فى سفر التكوين الأصحاح الأول، وقد فهم آباء الكنيسة أن الأصحاح الأول والثانى من سفر التكوين يشكلان وحدة متصلة لكاتب واحد، وأنهما قررا أن كلا من المرأة والرجل خليقة الله، ومن ثم فهما يشتركان فى النظام البديع للخليقة، ولكن كيف ظهر هذا الحسن فى العلاقة بين الذكر والأنثى؟ كان ذلك سؤالاً يتطلب إجابة، حيث أن الآباء اعتقدوا اعتقاداً راسخاً أن حواء كانت هى المسئولة عن دخول الخطية إلى العالم، وكيف يمكن أن تدعى «معينة» للرجل (تكوين٢:١٨) إذا كانت هى السبب فى اقتياده لهذا المصير؟ ومع ذلك فمعظم الآباء أصروا على أن الله قصد حقاً أن يكون هناك جنسين. إن تضارب أقوال كُتّاب الكنيسة الأوائل بشأن هذه النقاط يمكن الكشف عنه من أحاديثهم عن الخليقة.يقول أوغسطينس Augustine(٣٥٤-٤٣٠ب.م) أسقف Hippo Regius فى شمال أفريقيا فى بحثه عن **«فائدة الزواج»** [١] والذى كُتب ٤٠١ب.م إن الله خلق البشر ككائنات اجتماعية، وأن أول «مجتمع بشرى كان يتكون من الرجل والمرأة».

أولاً: بما أن كل شخص جزء من الجنس البشرى، وأن الطبيعة البشرية شيء اجتماعى ولها فى حد ذاتها القدرة على تكوين الصداقة كالخير الأسمى، أراد الله لهذا السبب أن يخلق بشراً من شخص واحد حتى يتكون مجتمع متماسك ليس فقط بسبب تشابه السلالة بل أيضاً عن طريق توطيد العلاقة بين أفراده، ولذا فأول رابطة للمجتمع البشرى الطبيعى هى التى تجمع بين زوج وزوجة، ومع ذلك فالله لم يخلق كل منهما على انفراد، ثم يجمع بينهما بعد ذلك كما لو كانا غرباء كل منهما عن الآخر. بل خلق الواحد من الآخر، ومع ذلك فقد وضع علامة على قوة اتحادهما فى الجانب الذى أُخذت وتكوّنت منه (تكوين٢:٢١-٢٢)، لأنهما ارتبطا معاً من الأجناب، فهما يسيران جنباً إلى جنب، وينظران معاً إلى الجانب الذى يسيران فيه، ويتحدان

---

(١) Text CSEL 41.187

معاً فى مجتمع يعقبه الأطفال، كنتيجة طبيعية ليس لزواج الرجل والمرأة، بل للاتصال الجنسى، لأنه من الممكن أن يكون بين الجنسين نوع من العلاقة الوطيدة والصداقة، ومن الممكن أن يكون أحدهما مسيطراً والآخر خاضعاً، حتى بدون مثل هذا الاتصال الجنسى.على الرغم من هذا الجانب الإيجابى للخليقة، فالنص الكتابى أجبر (أوغسطينس) على التفكير بعمق فى دور حواء، ففى **تعليقه المبسط على سفر التكوين** والذى[٢] كُتب فى السنوات الأولى من القرن الخامس، كان يتأمل نوع «المعونة» التى كان المفروض أن تقدمها حواء لآدم.

تاسعاً،٥ «إذا لم يكن الحال هو أن المرأة خُلقت لمساعدة الرجل، وبنوع خاص لإنجاب الأطفال، فلماذا إذن خُلقت كمعينة» (تكوين ٢:١٨)؟ هل لكى تعمل فى الأرض معه؟ كلا لأنه لم يكن يوجد وقتها أى عمل يحتاج فيه لمساعد، وحتى لو وُجد مثل هذا العمل، فالرجل كان يمكن أن يكون مساعداً أفضل. ويمكن للمرء أيضاً أن يفترض أن السبب لخلقها كمعين له صلة بالرفقة التى يمكن أن توفرها للرجل إذ ربما يشعر بالملل لوجوده وحده، ومع ذلك فالرفقة والحديث يكون أكثر ملاءمة بين رجلين صديقين يسكنان معاً عنه بين رجل وامرأة! وإذا كان من الضرورى أن واحداً من الاثنين اللذين يعيشان سوياً أن يتحكم والآخر أن يطيع، حتى لا تفسد تعارض إرادة كل منهما للآخر تعايشهما السلمى معاً، فلا يوجد ما يحول دون ذلك فى نظام الخلق الذى ذكر فى سفر التكوين، لأن واحداً قد خُلق أولاً والثانى بعد ذلك، والأهم من ذلك أن الأخير قد خُلق من الأول، والمرأة من الرجل، ولا يريد أحد أن يقترح أنه لو أراد الله أن يفعل خلاف ذلك لفعل، فبدلاً من أن يخلق امرأة من جانب الرجل ألم يكن فى مقدوره أن يخلق رجلاً كذلك؟ أعتقد أنه لا يوجد سبب يبرر وضع المرأة معينة للرجل إذا استبعدنا سبب إنجاب الأطفال.

إن الغرض من خلق المرأة بالرغم من مسئوليتها عن الخطية الأصلية، كان أيضاً موضوع تأمل (امبروز Ambrose) أسقف ميلان من ٣٧٤-٣٩٧م.

ففى بحثه عن **«الفردوس»** [٣] الذى كُتب حوالى ٣٧٥ م ركز انتباهه على ترتيب الأعداد فى تكوين ٢،١ والذى افترض أنهما وحدة متصلة كوسيلة لإثبات أن حواء لها نصيب فى

---

(٢) Text CSEL, 28, 1, 273.

(٣) Text: CSEL 32,280.

حسن خليقة الله.

رابعاً٢٤، «وأخذ الرب الإله آدم ووضعه فى جنة عدن ليعملها ويحفظها» (تكوين ٢ : ١٥) لاحظ من هو الرجل الذى «أخذ»، فقد كان فى نفس الأرض التى خلقه الله فيها، هكذا أخذ الله هذا الإنسان بقوته ونفخ فيه لكى ينمى ويزيد من قوة الإنسان. وبالاختصار فإن الله أسكنه فى الجنة وهذا يعنى أنه «أخذ» ونفخت فيه القوة الإلهية إذا جاز لنا هذا التعبير. ولاحظ أن الإنسان تم صنعه خارج الجنة وأن المرأة صُنعت داخل الجنة. ومن ذلك نستنتج أن كل شخص يكتسب النعمة ليس من موقعه الجغرافى ولا من نبل عائلته أو عائلتها بل بموجب الفضيلة. بل أن الواقع يقول إنه حتى وإن خُلق الرجل خارج الجنة (فى مكان أدنى) فهو فى مقام أسمى، ومع أن المرأة خُلقت فى مكان أفضل (داخل الجنة) إلا أنها فى مقام أقل، لأن المرأة أغويت أولاً وهى التى خدعت الرجل، ولذا فالرسول بطرس يعتبر أن النساء القديسات كنّ خاضعات للإناء الأقوى، مطيعات لأزواجهن كأسياد (بطرس الأولى ٣ : ١-٦)، وقال بولس «آدم لم يغو لكن المرأة أغويت فحصلت فى التعدى» (رسالة بولس الأولى إلى تيموثاوس٢ : ١٤). لاحظ أنه منذ ذلك الوقت فصاعداً لا يجب على أى إنسان أن يثق فى نفسه أكثر من اللازم. فتأمل المرأة التى خُلقت لتكون معيناً للرجل تحتاج لحماية الرجل! «رأس المرأة هو الرجل» (رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس ١١ : ٣)، ومع أن آدم اعتقد أن زوجته سوف تكون معيناً له إلا أنه سقط بسببها. ولذلك فلا يجب على أى إنسان أن يستودع نفسه لشخص آخر بسهولة ما لم يختبر صلاحية هذا الشخص، ولا أن يزعم أن شخصاً ما معين له، ولكنه فى نفس الوقت يعتقد أنه غريب بالنسبة له، فإذا وجد أنه هو الأقوى ويرى أنه يستطيع حمايته فيمكن أن يسبغ عليه هذه النعمة، وبالمثل يعلمنا الرسول بطرس أن الرجال يجب أن يعطوا كرامةً لزوجاتهم عندما يقول «أيها الرجال كونوا ساكنين بحسب الفطنة مع الإناء النسائى كالأضعف معطين إياهن كرامة كالوارثات أيضاً معكم نعمة الحياة لكى لا تعاق صلواتكم» (بطرس الأولى ٣ : ٧).

عاشراً٤٦، ويوجد هنا سؤال آخر، يختص فيما قاله الرب «ليس جيداً أن يكون آدم وحده» (تكوين ٢ : ١٨). لاحظ أولاً ما قيل من قبل حيث جبل الله الإنسان من تراب الأرض (تكوين٢ : ٧)، فعند هذه النقطة لم يقل «ورأى الله ذلك أنه حسن» كما قال عن كل الأعمال الأخرى التى صنعها [٤] لأنه لو قال الله هنا إنه كان جيداً أن يخلق الإنسان لوجدنا تناقضاً

(٤) كما في تكوين ١

حين يقول بعد ذلك «ليس جيداً» (أن يكون آدم وحده) فلندرك ذلك عندما يقول إن الله خلق آدم وحده، وعندما تذكر الأعداد عن خلق الرجل والمرأة معاً بعد ذلك (تكوين١:٢٦) نرى أنه لا يعاملهما معاملة خاصة لأنه بعد ذلك نجد القول «ورأى الله كل ما عمله فإذا هو حسن جداً» (تكوين ١:٣١)، ولذا فهناك تعبير واضح عن هذا المفهوم:إنه جيد أن يخلق المرأة والرجل سوياً.

عاشراً ٤٧، هذا السؤال يثير سؤالاً آخر، فإذا كان آدم خُلق وحده أولاً فلماذا لم يقل أن خلق آدم كان حسناً [٥] كما حدث عندما خلقت المرأة منه، حيث يُفهم من القول إن الله رأى كل ما عمله فإذا هو حسن جداً؟ فلنفترض أن الله امتدح كل شيء مخلوق، وقال إن خلقه للعالم كان حسناً: فحيث إن الإنسان متضمن في مدح الله للطبيعة عموماً أفلا يكون من باب المزايدة أن يختص خلق «آدم» وحده بأنه «حسن»؟ ولهذا السبب، وفى الوقت الذى خُلق فيه آدم وحده، فإن مدح الله لهذا العمل فقط لم يكن ليضيف أى بركة خاصة بأى وسيلة، بل أن الله قال: «ليس جيداً أن يكون آدم وحده»، ونحن نعرف أن آدم لم يخطىء قبل خلق المرأة بل بعد خلقها، فقد كانت هى أول من عصى الأمر الإلهى. بل أنها أيضاً دفعت زوجها معها لارتكاب الخطيئة، وبذلك بدت بأنها كانت المحفز له لارتكاب الذنب. فإذا كانت المرأة، فى الواقع، هى مرتكبة للذنب فكيف يمكن أن يكون خلقها حسناً؟

إن كنت تعتقد أن الكون يوجد تحت رعاية الله فإنك يجب أن تعرف أن الله يُسر أكثر بأن يكون هو سبب وجود الخليقة أكثر من سروره بإدانة المرأة لأنها سبب وجود الخطية. ولذلك أعلن الله أنه «ليس جيداً أن يكون آدم وحده» لأن الجنس البشرى ما كان يمكن له أن يوجد ويتكاثر من الرجل وحده. فالله فضل أن يكون هناك أناس كثيرون يجرى لهم عمل الخلاص، ويغفر لهم خطاياهم من أن يكون هناك شخص واحد فقط هو آدم حتى وإن كان بلا خطية. ومجمل القول إن الله حقاً هو موجد الذكر والأنثى، وأنه أتى إلى العالم حتى يقوم بخلاص الخطاة.

وأخيراً فإن الله لم يسمح لقايين، وهو الرجل القاتل لأخيه (تكوين٤:٨) أن يموت دون أن

(٥) يتأمل أمبروز هنا في حقيقة أن الله في رواية تكوين ٢ عن قصة الخليقة لم ينطق ببركة خاصة لآدم عند خلقه .

ينجب أطفالاً (تكوين٤:١٧).

وهكذا فلأجل تسلسل الجنس البشرى خُلقت المرأة مع الرجل، ونفس كلمات الله تعلن ذلك «ليس جيداً أن يكون آدم وحده»، وحتى مع أن المرأة هى البادئة بالخطية تبقى الحقيقة أن الفداء قد أعدّ ليتم عن طريقها، ولذلك فهى لا يجب أن تُستثنى من بركات العمل الإلهى. لأنه حتى وإن كان آدم لم يغو، لكن المرأة أغويت فحصلت فى التعدى، ولكنها ستخلص "بولادة الأولاد» الرسالة الأولى إلى تيموثاوس٢:١٤-١٥) والذين منهم جاء المسيح.

عاشراً،٤٨ ولا يصح أن نغفل حقيقة أن المرأة لم تُخلق من نفس التراب الذى خلق منه آدم، بل خُلقت من ضلع آدم نفسه، من هذه النقطة نعلم أن الطبيعة الجسدية للرجل والمرأة واحدة، وهى أصل الجنس البشرى، وهكذا فمنذ البدء لم يُخلق المرأة والرجل سوياً كزوج وزوجة، ولم يُخلقا كرجلين أو امرأتين، بل رجل أولاً ثم امرأة منه، وحيث أن الله أراد أن يخلق طبيعة بشرية واحدة، لذلك استبعد احتمال وجود طبائع بشرية عديدة ومختلفة من هذا المخلوق، وبدأ بمصدر واحد «قال الله فأصنع له معيناً نظيره» (تكوين٢:١٨). ونحن نعتبر أن ذلك يعنى «معيناً» لغرض تكوين طبيعة بشرية، وأن تفعل حواء ذلك فهى حقاً خير معين! لأننا إذا أخذنا كلمة «معين» بالمعنى الذى يناسب الكلمة أكثر، نقول إن عمل المرأة فى قضية الإنجاب شىء هام للغاية، إنه يشبه استقبال الأرض للبذرة لأول مرة، وهى بعد ذلك تحتفظ بالبذرة وتدفئها وتجعلها تنمو بالتدريج حتى تخترق التربة وتظهر. هذه هى الطريقة التى قامت بها المرأة بدور المعين الجيد حتى وإن دعيت معيناً أقل أهمية، ونحن نرى نفس الترتيب يتبع فى الشئون البشرية، فالرجال الأقوياء الذين يحتلون مواقع السلطة يتخذون لهم فى العادة مساعدين أقل أهميةً منهم.

حادى عشر، ٥ مكتوب «فأوقع الرب الإله سباتاً على آدم فنام» (تكوين٢:٢١) ماذا يعنى «هذا السبات»؟ أهو يعنى أننا إذ نوجه عقولنا لبرهة نحو الرابطة الزوجية فإننا كأننا نوجه عيوناً لتوقع ملكوت الله؟ ألا يبدو أننا نميل لرؤيا معينة لهذا العالم، ولمدة وجيزة ننام ونحن بين يدى الله حتى ونحن نستريح تحيطنا الأشياء العالمية لهذا الدهر الحاضر؟، ومجمل القول بعد أن «أوقع الله سباتاً على آدم فنام» بنى الرب الإله الضلع التى أخذها من آدم امرأته (تكوين٢:٢١-٢٢)، تقع كلمة (بنى) هنا فى موضعها الصحيح فى هذا العدد حيث كان يتحدث عن خلق المرأة، لأن الصرح المنزلى للرجل والمرأة يتميز بالثراء فى نوع معين من

الكمال، فالرجل بدون زوجة يعتبر طبقاً لذلك بلا بيت، كما يعتقد الرجل أنه أكثر مهارةً من المرأة فى أداء الواجبات العامة، فهكذا المرأة تعتقد أنها أمهر منه فى الواجبات المنزلية . تأمل فى حقيقة أن الله أخذ ضلعاً من جسد آدم، وليس جزءاً من نفسه، ولهذا فلا يمكن أن يطلق على المرأة القول: «نفس من نفسى» بل «عظم من عظامى ولحم من لحمى» (تكوين٢:٢٣).

كان (ليوحنا فم الذهب) أسقف القسطنطينية من ٣٩٨- ٤٠٤م. رأيان مختلفان بخصوص مركز المرأة عند خلقها، ففى بعض كتاباته كما فى الجزء التالى من **حديثه رقم٤ على سفر التكوين،** كان يشدد على القول إنه كانت هناك «مساواة فى الكرامة» متأصلة بين آدم وحواء، وبذل جهداً كبيراً للدفاع عن رأيه بأن دور حواء «كمعين» كان أسمى بكثير من دور الحيوانات التى عملها الله أيضاً لمساعدة آدم.

١.. [٦] وزد على ذلك فإن أول محاولة للسيطرة والاسترقاق تمت على يدىّ الرجال بالتحكم فى النساء، فبعد الخطية الأصلية دعت الحاجة لمثل هذا النظام، ولكن قبل الخطية كانت المرأة مثل الرجل، فحين شكّل الله المرأة كانت الكلمات التى تفوه بها مثل الكلمات التى قالها حين خلق الرجل، فكما قال فى خلق الرجل «لنصنع الإنسان على صورتنا كشبهنا» (تكوين١:٢٦) بدلاً من القول «ليكن هناك إنسان»، هكذا أيضاً فى حالة المرأة، لم يقل الله« لتكن هناك امرأة» بل قال «فأصنع له معيناً نظيره» (تكوين٢:١٨) وهو لا يدعوها ببساطة «معيناً» بل «معيناً نظيره» ليرى المساواة فى الكرامة مرة أخرى .

أوجد الله الحيوانات لتكون مساعدة لنا فى قضاء حوائج الحياة، ولئلا تعتبر المرأة أيضاً فى مرتبة مساوية لها، ميز الله بوضوح بين الحيوانات والمرأة «فأحضرها (الحيوانات) إلى آدم ليرى ماذا يدعوها.. وأما لنفسه فلم يجد معيناً نظيره» (تكوين ٢:١٩-٢٠). كيف يكون ذلك؟ أليس الحصان مساعداً يحارب مع الإنسان فى المعركة ؟ أليس الثور مساعداً يجرّ المحراث، ويتعب معنا فى زراعة المحصول؟ وأليس الحمار والبغل يساعدان الإنسان فى نقل ممتلكاته من مكان إلى آخر؟ وللرد على ذلك، يجعل الله فرقاً واضحاً بين الحيوانات والمرأة، فهو لا يقول «فلم يجد معيناً» له من بين الحيوانات بل قال «فلم يجد معيناً نظيره».، وهكذا

---

(٦) Text PG.54 594.

أيضاً فى هذه الفقرة لا يقول ببساطة «فأصنع له معيناً» بل يقول «فأصنع له معيناً نظيره».

ولكن (يوحنا فم الذهب) اعتقد أيضاً أن المرأة ليس لها «صورة الله» (تكوين١:٢٦) كما كان للرجل، وربط بين مركزها كمعينة للرجل بهذا النقص، وبمعنى آخر فمركزها لا يتحدد بهذه الطريقة نتيجة للسقوط بل كان أدنى حتى عند خلقها، ويشرح فكره فى **حديث رقم ٢ على سفر التكوين** [٧] ليرد على القائلين بأن كلا من المرأة والرجل خُلقا على «صورة الله».

٢.. بعض الناس يهبّون لمهاجمتنا، وهم الذين يعتقدون أننا خُلقنا على نفس «صورة الله»، ولذلك فهم يسيئون فهم معنى الكتاب المقدس، لأن «الصورة» لم يقصد بها الجوهر بل السلطان كما سنوضح بتقديم الأدلة بطريقة منظمة. ولكى نفهم فكرة أن صورة الإنسان ليست هى صورة الله دعنا نصغى لما يقوله بولس: «فإن الرجل لا ينبغى أن يغطى رأسه لكونه صورة الله ومجده، وأما المرأة فهى مجد الرجل، لهذا ينبغى للمرأة أن يكون لها سلطان[٨] على رأسها» (كورنثوس الأولى ١١:٧-١٠). فإذا كان بولس يقول هنا إن هذه هى الصورة «موضحاً عدم تغيير الصورة التى على مثال الله، ولهذا يدعى الإنسان بأنه صورة الله[٩]. لأن الله جبله بهذه الطريقة، ولكن الوضع ليس هكذا بالنسبة للمرأة كما ينادى خصومنا الذين يقولون بأنه ليس الرجل فقط هو الذى خُلق على صورة الله، بل المرأة أيضاً، وردّنا على ذلك هو أن الرجل والمرأة ليس لهما صورة واحدة وطبيعة واحدة وشبه واحد، ولكن لماذا يقال عن الرجل إنه «على صورة الله» ولا يقال ذلك عن المرأة؟، لأن ما يقوله بولس عن «الصورة» لا ينتمى إلى الشكل، فالصورة لها صلة بالسلطان. وهذا السلطان مُنح للرجل فقط، أما المرأة فليس لها سلطان، لأن الرجل لا يخضع لأحد بينما المرأة تخضع له، كما قال الله «إلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك» (تكوين٣:١٦)، لذلك فالرجل مخلوق على «صورة الله» لأنه لا سيطرة لأحد عليه، تماماً كما أن الله لا يرأسه أحد بل يسود على كل شىء، ومع ذلك فالمرأة «مجد الرجل» من حيث أنها خاضعة له. وبالإضافة لذلك اعتقد فم الذهب أن مركز المرأة الأدنى قد جعلها أكثر ملاءمةً من الرجل لتولى مسئوليات الحياة الدنيا، فمحور نشاطها

(٧) Text PG 54, 589.

(٨) هذه الكلمة (حجاب) في اليونانية، ولكنها تعني أيضاً سلطان.

(٩) يستعمل يوحنا فم الذهب هنا كلمات استخدمها آباء الكنيسة ليبرهنوا على أن الله هو علة وجود الجنس البشري.

محدود بكثير عن الرجل، ويعالج فم الذهب ذلك في إحدى عظاته **«نوع النساء اللاتي ينبغي أن يتخذن زوجات»** [١٠].

٤ ... "حقاً لقد سمعت الكثيرين يقولون «فلان الفلاني الذى كان فقيراً من قبل قد أصبح غنياً بسبب زواجه، ولأنه تزوج امرأة غنية فهو الآن ثرى وينفق بسخاء»، فما ردكم أيها الرجال؟ إنكم لا تشعرون بالخجل ولا تستحون على الرغم من أنكم تودون أن تربحوا من وراء الزوجة؟ كيف يمكن أن تكون هذه كلمات رجل حقيقى؟ إنكم بدلاً من ذلك يجب أن تضعوا وجوهكم فى الأرض. إن للزوجة هدفاً واحداً فقط: أن تحرس الممتلكات التى جمعناها، وأن تراقب الدخل وأن تهتم بأهل المنزل، ولهذا السبب أعطاها لك الله، حتى تكون فى كل هذه الأمور، بالإضافة لأمور أخرى معينة لك.إن حياتنا تدور فى حيزين: شئون عامة وأمور خاصة، وكلاهما مرتب من قبل الله. فالمرأة متروك لها الإشراف على شئون المنزل، وأما الرجل فعليه الإشراف على كل شئون الدولة، والتجارة وتحقيق العدالة والحكم والشئون العسكرية وكل المهام الأخرى، فالمرأة لا تستطيع أن ترشق حربة، ولا أن تطلق سهماً، ولكنها تستطيع أن تمسك بفلكة المغزل وتنسج على النول وتقوم بكل الأعباء المنزلية بصورة صحيحة، وهى لا تستطيع أن تعبر عن رأيها فى مجتمع تشريعى، ولكن يمكنها أن تعبر عن رأيها فى البيت، وفى الأغلب فهى أكثر إلماماً بشئون المنزل من زوجها، وهى لا تستطيع أن تدير شئون الدولة جيداً، ولكنها تستطيع أن تربى الأطفال تربية صحيحة، والأطفال هم ثروتنا الرئيسية، ولأول وهلة يمكنها أن تبين السلوك السيئ للخدم لتقومه بعناية، وهى توفر الأمن التام لزوجها وتحرره من كل هذه الاهتمامات المنزلية، وتهتم بالمال ونسج الصوف وإعداد الطعام والعناية بالملبس المناسب، وتهتم بكل الأمور الأخرى من هذا القبيل، والتى لا تعد مناسبة لاهتمامات زوجها، ولا يمكن أن يؤديها بنجاح لو تولاها هو بنفسه حتى وإن بذل جهوداً مكثفة فى ذلك!

هذا فى الواقع من عمل محبة الله وحكمته. إن الذى يمتلك مهارة فى إدارة دفة الأمور الكبرى يكون غير كفء وبلا فائدة فى الأمور الأقل شأناً، ولذا فخدمة المرأة ضرورية، لأنه إذا كان الرجل صالحاً للقيام بكلا النشاطين معاً، يكون من السهل حينئذ احتقار الجنس النسائى، وعلى العكس فلو أن الاهتمامات الأكثر فائدة تُركت للنساء فإن ذلك يدفعها للجنون. لذلك لم

---

(١٠) Text PG 51.230.

يعين الله كلا الواجبين لجنس واحد، لئلا يعتبر الآخر زائداً عن الحاجة وبلا عمل، ولم يقصد الله أن يكون كلا الجنسين متساويين تماماً، لأن هذه المساواة تنتج نوعاً من الخصومة والصراع. لأن النساء مثيرات للنزاع ومشاكسات، يعتبرن أنفسهن فى مركز أسمى من الرجل ويسرعن لاحتلال الصفوف الأولى بدلاً من الرجال، ولكن الله اتخذ الحيطة لذلك، وفى نفس الوقت حافظ على انتشار السلام والوئام فيما بينهما، فعين دوراً لكل جنس بتقسيم أمور الحياة البشرية إلى جزئين، وعيّن الدور الأهم والأكثر نفعاً للرجل والأقل والأدنى أهمية للمرأة. إن خطة الله نافعة لنا، بسبب حاجاتنا الملحة من جانب، ولأن المرأة لن تعصى زوجها نظراً لأن دورها أقل أهمية من الجانب الآخر، وإذ نتفهم كل هذه الأشياء دعنا نجاهد لتحقيق هدف واحد: طهارة النفس ونبل السلوك حتى نستمتع بالسلام ونعيش فى وئام ونحفظ أنفسنا فى المحبة حتى النهاية. بغض النظر عن دور حواء الأصلى والغرض من وجودها، فقد اتفق آباء الكنيسة على أنها كانت المسئولة عن الخطية المدونة فى (تكوين٣). ومن أقدم التعبيرات التى قيلت بهذا الخصوص فى أدب الآباء موجود فى كتاب **«ضد الهرطقات»** وهو بحث جدلى ضد الغنوسيين كتبه (إيريناوس Erenaeus أسقف ليون حوالى ١٨٥م، ومع أن إيريناوس يقارن عصيان حواء بطاعة مريم، إلا أنه لا يندمج فى إلقاء خطاب هجائى ضد النساء بسبب خطية حواء كما يفعل بعض آباء الكنيسة.

ثالثاً.١.٢٢[١١]. وبالإضافة لذلك يمكن القول إن مريم العذراء كانت مطيعة فهى تقول: «هوذا أنا أمة الرب. ليكن لى كقولك» (لوقا١:٣٨). ومن الأمور الأكيدة أن حواء كانت غير مطيعة حيث إنها لم تطع وهى ما تزال عذراء. لقد كان لها زوج هو آدم ولكنها كانت ما تزال عذراء (وكانا كلاهما عريانين) فى الجنة (وهما لا يخجلان) (تكوين٢:٢٥) لأنهما كانا قد خُلقا منذ وقت قصير، ولم يفهما شيئاً عن إنجاب الأطفال، لأنه كان الأفضل لهما أولاً أن يصلا للنضج وبعدها يتكاثران، وبعد أن وقعت حواء فى المعصية صارت معصيتها سبباً لموتها هى ولكل الجنس البشرى. وهكذا كان لمريم أيضاً زوج اختير لأجلها، ومع ذلك كانت عذراء. وبالرغم من عصيانها فقد أصبحت سبباً لخلاص نفسها ولكل الجنس البشرى. ولهذا السبب فالناموس ينظر للمرأة المخطوبة لرجل باعتبار أنها زوجته مع التسليم بأنها ما تزال عذراء، وهذا يبين وجود رابطة تربط بين مريم وحواء.. هذا علاوة على أن عقدة عصيان حواء قد

---

(١١) Text: PG 7.958

انفكت بسبب طاعة مريم. لأن ما ربطته العذراء حواء بسبب عدم الإيمان فكته مريم العذراء بالإيمان.

والرأى القائل بأن اللوم على الخطية الأولى امتد من حواء لجميع النساء الأخريات سرعان ما انتشر فى الأدب المسيحى المبكر، (**فترتليانوس** Turtullian وهو كاتب مسيحى هام من مدينة قرطاج بشمال أفريقيا كان عنيفاً بنوع خاص فى هجومه كما يتضح فى بحثه عن **«ملابس النساء»** والذى يرجع للسنوات الأولى من القرن الثالث، وكان (ترتليانوس) يوجه حديثه لجمع من النساء.

أولاً،١،١ [١٢] لو ظل الإيمان قوياً على الأرض، كما هو متوقع أن يكون فى السماء. لما رغبت أى واحدة منكن يا أخواتى العزيزات، منذ معرفتها بالإله الحى ومعرفتها بنفسها، فى أن تلبس ثوباً أكثر جمالاً أو أكثر جاذبية، بل كانت تفضل أن تمضى قدماً فى ملابس رخيصة الثمن، وأن تجاهد ليكون مظهرها متسماً بالإهمال، ولكانت تسير كحواء وهى باكية تائبة، وحتى تكفر بكل ثوب للتوبة تلبسه عما اكتسبته من حواء، أقصد خزى الخطية الأولى وكراهية العصيان البشرى «تكثيراً أكثر أتعاب حبلك. بالوجع تلدين أولاداً. وإلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك» (تكوين٣:١٦) ألا تعلمن أنكن أنتن أيضاً مثل حواء؟

أولاً،١ . ٢ إن دينونة الله على هذا الجنس ما زالت منصبة حتى عصرنا هذا، فالذنب ما يزال قائماً، "أنتنّ بوابة الشيطان، وأنتنّ أول من أكل من تلك الشجرة، وأنتنّ أول من عصى الناموس الإلهى، وأنتنّ اللاتى حرضتنّ ذاك الذى حتى الشيطان لم يجرؤ على الاقتراب منه، أنتنّ سحقتنّ صورة الله بكل استخفاف أى آدم بسبب عقوبتكنّ أى الموت، وحتى ابن الله اضطر أن يموت، ثم بعد ذلك تفكرنّ فى تزيين أنفسكنّ بأشياء خلاف الأقمصة من الجلد». (تكوين٣:٢١).

يؤكد **أوغسطينوس** كثيراً على كلمات الكتاب المقدس بخصوص مسئولية حواء بنوع خاص عن أول خطية، ففى **تعليقه المبسط على سفر التكوين** يركز على أن حواء وليس آدم هى التى أغويت[١٣].

حادى عشر،٤٢.. لو كان آدم روحياً على الأقل فى فكره فكيف كان يؤمن بما قالته الحية؟ لأن الحية قالت إن الله منعهما من الأكل من ثمار هذه الشجرة، لأنه كان يعلم أنهما إذا فعلا

---

(١٢) Text: CSEL 70.59.
(١٣) Text CSEL 28.376.

ذلك، فإنهما سوف يصبحان كالله عارفين الخير والشر (تكوين٣:٥)، كما لو كان الله يحقد على خليقته، ويمنعها من الحصول على مثل هذه النعمة! إنه أمر يدعو للدهشة إذا آمن الإنسان بهذه الفكرة بعد أن وهبه الله فكراً روحياً، لأنه يستحيل تصديق ذلك، أُعطيت المرأة للرجل، المرأة ذات الذكاء الضعيف، والتى ربما ما زالت تعيش وفقاً لدوافع الجسد الدنيئة بدلاً من العقل السامى. هل هذا هو السبب فى أن الرسول بولس لا ينسب إليها صورة الله؟ لأن بولس يقول هكذا« فإن الرجل لا ينبغى أن يغطى رأسه لكونه صورة الله ومجده، وأما المرأة فهى مجد الرجل» (كورنثوس الأولى ١١:٧). ليس بمعنى أن عقل المرأة لا يمكن أن يتقبل نفس «الصورة» حيث أنه يخبرنا أنه فى عهد النعمة «ليس ذكر وأنثى» (غلاطية٣:٢٨). ومع ذلك فقد لا تكون المرأة قد قبلت بعد هذه النعمة التى تأتى بمعرفة الله، ولكن يمكِن أن تكتسبها بالتدريج فقط تحت سيطرة الرجل وإدارته.إن كلمات الرسول بولس لم تكن بلا معنى حينما قال: « لأن آدم جبل أولاً ثم حواء وآدم لم يغو لكن المرأة أغويت فحصلت فى التعدى» (تيموثاوس الأولى ٢:١٣-١٤). أى أنه بسببها حصل الرجل فى التعدى، لأن الرسول يدعو نفسه متعدياً أيضاً حين يقول « على شبه تعدى آدم الذى هو مثال الآتى» (رومية ٥:١٤)، ولكنه لا يقول: إن آدم قد «أُغوى»، لأنه حتى عندما سئل آدم لم يقل «المرأة التى جعلتها معى أغوتنى فأكلت» بل قال: «المرأة التى جعلتها معى هى أعطتنى من الشجرة فأكلت»، ولكنها بكل تأكيد قالت هذه الكلمات : «الحية غرتنى فأكلت» (تكوين٣:١٣). وهناك آراء مماثلة عن مسئولية حواء عن الخطية و العقوبات الناجمة عن ذلك التى أوقعها الله عليها طبقاً لما جاء في تكوين ٣:١٦، وقد عبر عن ذلك **أمبروز فى كتابه عن «الفردوس»** [١٤].

ثانى عشر،٥٦... نحن نؤمن أن آدم، وليس حواء هو الذى تلقى الوصية من الله[١٥] لأن المرأة لم تكن قد خلقت بعد. والكتاب لم يذكر الكلمات التى قالها آدم لحواء عن طبيعة الوصية وعواقبها، ولكننا نفهم أن نتيجة مخالفة الوصية قد انتقل لحواء عن طريق آدم، ومع أننا يجب أن نلاحظ ما عبر به الآخرون عن هذا الموضوع إلا أنه يبدو لى مع ذلك أن المرأة قد حضت على ارتكاب الجريمة وابتدعت الإغراء، لأنه حتى لو كان هناك شيء من الشك فيما يختص بأى منهما فى هذا الصدد إلا أن الكتاب يحدد الجنس الذى تعرض للخطأ أولاً، هذا

---

(١٤) Text: CSEL 32,1,316,329.

(١٥) أن لا يأكل من شجرة معرفة الخير والشر

بالإضافة إلى أن المرأة كانت مكبلة بأغلال إدانة سابقة حين اكتشف الخطأ الأول، فالمرأة إذن هى المبتدعة لذنب الرجل وليس العكس. ولذلك يقول بولس« وآدم لم يغو لكن المرأة أغويت فحصلت فى التعدى (الرسالة الأولى إلى تيموثاوس٢:١٤).

رابع عشر،٧٢ لأن حواء نفسها اعترفت بغلطتها فقد صدر ضدها حكم مخفف لإدانة خطأها، وهو حكم لا يحول دون الغفران، وكان القصد منه أن تكرس نفسها لزوجها لكى تخدمه، وهناك سببان لذلك: أولهما حتى لا تسر بارتكاب الذنب، وثانيهما أنه بعد أن وُضعت تحت سيطرة الإناء الأقوى لا تعرض زوجها للازدراء، بل بالأحرى أن تمتثل لنصائحه. وفى الواقع فإنى أرى بوضوح فى هذا الأمر سر المسيح والكنيسة. لأننا نرى هنا أن مستقبل الكنيسة هو فى الالتفات إلى المسيح، وأن الخدمة التقية فى الخضوع لكلمة الله أفضل بكثير من حرية هذا العالم، فمكتوب: «الرب إلهك تتقى وإياه تعبد» (تثنية٦:١٢)، هذا النوع من العبادة هو عطية من الله بل أن الاستجابة لهذه العبادة تعد من ضمن البركات. وقد أوضح **فم الذهب** أنه مهما كان مركز المرأة فى الخلق أدنى من الرجل، فقد أُخضعت للرجل أساساً بسبب دورها فى الخطية الأولى. **ففى العظة رقم ٢٦** [١٦] على رسالة كورنثوس الأولى يكتب ما يلى:

٢... من العدل أن تكون المرأة خاضعة للرجل لأن المساواة فى الكرامة تجلب الصراع، وهى ليست مخضعة له لهذا السبب فقط، ولكن أيضاً بسبب الخيانة التى حدثت فى بداية العالم. لذلك أقول لكم: إنها لم تخضع للرجل مباشرة عندما خُلقت، ولا عندما أتى بها الله للرجل سمعت أى شىء من هذا القبيل، ولا قال لها الرجل شيئاً من ذلك بل قال «عظم من عظامى ولحم من لحمى» (تكوين٢:٣٢)، ولكنه لم يذكر لها شيئاً عن الخضوع له، أو عن القانون الإلهى. ولكن عندما أساءت استعمال السلطة المخولة لها ومع أنها خُلقت كمعين اكتشف أنها خائنة، وقد دمرت كل شىء، عندئذ سمعت باقى القول «إلى رجلك يكون اشتياقك» (تكوين٣:١٦)[١٧]. و مع ذلك فقد اعتقد **فم الذهب** أن خضوع المرأة كان للخير، ولم يكن عبئاً على النساء اللاتى قبلنه كإرادة الله. فكل من العهدين القديم والجديد يتفقان على مركز المرأة[١٨] التابع للرجل كنتيجة للخطية، ويقول ذلك فى **بحثه رقم ٤ على سفر التكوين.**

١... بعد الخطية جاءت الكلمات «إلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك»

---

(١٦) Text: PG.61.215

(١٧) «وهو يسود عليك».

(١٨) Text: pg.54.594.

(تكوين٣:١٦). وقال الله لحواء بعدها «لقد جعلتك مساوية للرجل فى الكرامة، ولكنك لم تستخدمى السلطة المخوّلة لك استخداماً صحيحاً، ولذلك فعليك بالتنازل عن مركزك لتكونى فى مركز التابع، إنك لم تقبلى الحرية فعليك بقبول العبودية، وحيث إنك لا تعرفين كيف تحكمين- كما أظهرت فى تجربتك فى أمور الحياة- من ثم فكونى بين الرعايا واعترفى بزوجك كالسيد. لاحظ شفقة الله هنا، لأنه عندما سمعت الكلمات«وهو يسود عليك» كان من الممكن أن تتخيل أن ذلك يعنى طغياناً قاسياً من قبل الرجل، فقد استخدم الله كلمات الرعاية أولاً فقال «إلى رجلك يكون اشتياقك» أى «هو يكون ملجأك ومأواك وأمنك»، إنه سوف يصبح كل هذه الأشياء بالنسبة لك، ففى وسط كل أهوال الحياة اليومية أعطيك الحق أن "تتجهى نحوه وأن تحتمى به». ولم يكن ذلك كل شيء، فقد ربطهما الله معاً بحاجاتهما الطبيعية، ربطهما برابطة لا تنفصم عراها عندما أحاطهما بسياج الرغبة. فأنت ترى كيف أن الخطية مهدت لخضوع المرأة، ولكن ترى أيضاً كيف أن الله الحكيم المبدع استخدم نتائج الخطية وجعلها لخيرنا، واستمع كيف يتحدث بولس عن هذا الخضوع، حتى تعلم مدى اتفاق العهدين القديم والجديد. يقول بولس:«لتتعلم المرأة فى كل خضوع». (الرسالة الأولى إلى تيموثاوس٢:١١).

وهل ترى كيف هو أيضاً يُخضع المرأة للرجل؟ انتظر وسوف تسمع السبب. لماذا يقول بولس «فى كل خضوع»؟ إنه يؤكد: «لست آذن للمرأة أن تعلم» (تيموثاوس الأولى ٢:١٢) لما لا؟ لأنها علّمت آدم مرة وإلى الأبد، وعلمته تعليماً سيئاً «ولا تتسلط على الرجل» (تيموثاوس الأولى ٢:١٢). ما الذى يرمى إليه بولس؟ لقد مارست سلطتها ذات مرة ومارستها ممارسة سيئة، فهى يجب أن تكون «فى سكوت» ويقول السبب فى ذلك أيضاً «آدم لم يغو، ولكن المرأة أغويت فحصلت فى التعدى» (تيموثاوس الأولى ٢:١٤)، لذلك دعها تنزل عن كرسى الأستاذية؛ فالذين لا يعرفون كيف يعلمون فليتعلموا هم أولاً، هكذا يقول، فإذا لم يريدوا أن يتعلموا بل أن يعلّموا فإنهم يدمرون أنفسهم والذين يتعلمون منهم، وهذا نفس ما حدث من خلالها، ولذلك فواضح هنا أنها مخضعة للرجل، وأن الخضوع بسبب الخطية، وأريدكم أن تنتبهوا لهذا العدد: «إلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك».

٢- أريد أن أعلمكم كيف يتحدث بولس بهذا الخصوص أيضاً، وكيف يمزج بين السلطة والعاطفة. كيف يستطيع أن يفعل ذلك؟ إنه يقول فى الرسالة إلى أهل كولوسى "أيها الرجال أحبوا نساءكم" (كولوسى٣:١٩،أفسس٥:٢٥)، وانظر أن ذلك يشبه ما جاء فى العهد القديم «وإلى رجلك يكون اشتياقك» (تكوين٣:١٦)!ثم يقول بولس بعد ذلك «أيتها النساء اخضعن لرجالكن» (كولوسى٣:١٨،أفسس٥:٢٢)، وانظر ما يساوى ذلك فى العهد القديم «وهو يسود عليك» (تكوين٣:١٦)؛ وأنت تعرف أن الطغيان ليس عبئاً ثقيلاً إذا كان السيد هو المحب الولهان للمرأة التى تخدمه عندما يمتزج الخوف بالمحبة. وهكذا فإن العبء الثقيل ينزاح من طريق الخدمة.

وتشكل آراء أوغسطينوس عن الخطية الأصلية أهمية قصوى لتطور اللاهوت الغربى، فهو يتفق مع آباء الكنيسة الآخرين فى أن خضوع المرأة كان نتيجة لتلك الخطية، ولكنه قام بتحليل نتيجتين أخريتين لتلك الخطية بالتفصيل، دخول الموت وشهوة العالم، فهو اعتقد أن الشهوة، وهى غير منطقية فى مضمونها، ما كانت لتوجد فى الجنة لو لم ترتكب الخطية، ولكنه مع ذلك يؤكد أن الاتصال الجنسى والإنجاب كان سيحدث حتى لو لم تحدث الخطية، ووصفه الخيالى للاتصال الجنسى بين آدم وحواء لو لم تكن هناك خطية نوع من الخيال الخلاب. وبالرغم من يأس أوغسطينوس إزاء قوة الشهوة (خبراته الجنسية فى مقتبل حياته جعلته يدرك ما يكتب عنه جيداً) فافتراضه بأن الاتصال الجنسى كان جزءاً من خطة الله للعالم، حتى لو ظل البشر بلا خطية، فإن فتح الباب للإعلاء من شأن الزواج له أكثر من رأى لدى بعض آباء الكنيسة الآخرين. وهذه بعض من **تأملات أوغسطينوس** عن الموضوع من بحثه اللاهوتى التاريخى المطول **«مدينة الله»**.

رابع عشر،٢٣ ..[١٩] ولذلك فالزواج وهو منتهى السعادة فى الجنة لو لم تكن الخطية قد ارتكبت كان سوف يجلب النسل المحبوب دون أن تكون هناك **شهوة** يخجل منها الإنسان، ولكن كيف كان يمكن أن يحدث هذا؟ نحن لا نستطيع أن نوضح ذلك بأمثلة. ومع ذلك فقد كان من الممكن تصديقه على أساس أن الإرادة التى يقوم على خدمتها العديد من الأعضاء الجسدية، كان من الممكن أيضاً أن يخدمها هذا العضو الجنسى بدون تلك الشهوة، لأننا حقاً نحرك أيدينا وأرجلنا عندما نريد ذلك، فتلك الأجزاء الجسدية تستجيب دون أية مقاومة،

(١٩) Text: CSEL 40,2,47

ونحن نرى كيف تعمل بكل سهولة سواء بالنسبة لنا أو للآخرين، ونحن نلاحظ ذلك بنوع خاص عند أولئك الذين يعملون عملاً جسدياً، حيث بقليل من الاجتهاد تؤدى تلك الطبيعة الضعيفة عملها، أفلا يمكن أيضاً أن نصدق أن تلك الأعضاء الجنسية كأعضائنا الجسدية الأخرى كان يمكن أن تخدمنا بكل خضوع عن طريق رغبة الإرادة فى عملية إنجاب الأطفال لو لم تكن هناك شهوة نتيجة لارتكاب خطية العصيان؟

رابع عشر،٢٦ وهكذا فقد كان الإنسان يعيش فى الجنة طالما كان يتمم إرادة الله فيما أوصى به، كان يعيش مستمتعاً بالله صالحاً مستمداً صلاحه من الله، كان يعيش دون أن ينقصه شيء ما، وكان بإمكانه أن يعيش دائماً بنفس الطريقة، كان لديه الطعام فى حالة الجوع، والشراب فى حالة العطش وشجرة الحياة لئلا يمرض من كبر السن. لا مضايقات لأية حاسة من حواسه، سواء من مرض فى جسده، أو من جسده، لا مرض بالداخل ولا جرح بالخارج كان يخيفه، كان فى أفضل صحة جسمية وفى أتم هدوء نفسى. وفى الفردوس أيضاً لم يكن هناك صيف أو شتاء، ولا شيء كان يضايق ساكنيه من جراء عدم تحقيق رغبة أو من خوف كحجر عثرة فى طريق إرادتهم الصالحة، فلم يكن هناك حزن على الإطلاق ولا كان هناك خفّة أو طيش وإنما كان يعم الفرح الحقيقى دون انقطاع، فالله مصدر هذا الفرح والذى منه تتدفق «المحبة من قلب طاهر وضمير صالح وإيمان بلا رياء» (تيموثاوس الأولى ١:٥)، وكان بين شركاء الزواج ثقة تامة نابعة من محبة عفيفة، وكان هناك نشاط كامل للعقل والجسد يتم فى سلام مع حفظ الوصية دون عنف أو إجهاد، ولم تكن هناك أية مضايقات نتيجة الملل من وقت الفراغ، ولا كانت الناس تنام رغماً عن إرادتها.

فى مثل هذه الحالة المريحة والسعادة البشرية نحن لا نشك فى أنه لم يكن من المستحيل إنجاب أطفال بدون **مرض الشهوة**، بل أن تلك الأعضاء الجسدية كان يمكن تحريكها عن طريق الإرادة، كما تتحرك سائر الأعضاء . فالزوج بدون جاذبية الشهوة وبذهن هادىء ودون إيقاع أى أذى بصحة الجسم يذوب فى العناق الزوجى. وعلى الرغم من أننا لا نستطيع إثبات ذلك بالتجربة العملية، فلا يصح أن نعتقد أنه عندما لا تكون هناك قوة شهوانية تحرك هذه الأعضاء فهى لا تتحرك ، بل حينما تكون هناك حاجة تصدر قوة من الإرادة فنتساءل كيف يمكن لسائل الإخصاب الذكرى أن يتدفق إلى رحم المرأة دون مساس بالأعضاء الأنثوية، فنرد بالقول إنه تماماً كما يتدفق دم الحيض من رحم العذراء دون مساس بأعضائها الأنثوية، هكذا

فالبذور الذكرية يمكن أن تمر من نفس الطريق الذى تمر منه السوائل الأخرى للمرأة. وكما يحدث عند ولادة طفل فإن رحم المرأة لا يتسع نتيجة لصرخة الألم بل بدافع اكتمال الإرادة، ولذلك فالأعضاء الجنسية تتحد معاً للحمل والولادة، ليس بسبب الشهوة الجنسية بل بالممارسة الطبيعية للإرادة.

وفى مقابل الآراء المتناقضة لآباء الكنيسة عن المسائل الجنسية، واضح أن الزواج نفسه فى حاجة لمن يدافع عنه ، وبخاصة فى القرنين الثانى والثالث، فإن المسيحيين المستقيمى الرأى ناضلوا بشدة ضد الجماعات الغنوسية المختلفة والتى قالت بأن العالم المادى كله شر، ومن هذا المنطلق تراوحت معتقدات الغنوسيين بين عقيدة قائمة على البتولية لا تسمح بأية علاقات جنسية، أو بصيغة أخلاقية متحررة أعلنت على الملأ عدم تمسكها بوصايا الإله الشرير الذى صنع هذا العالم البائس. وفى مواجهة مثل هذه العقائد الغنوسية فإن **إكليمنضس الإسكندرى** Clement Of Alexandria الذى كتب حوالى ٢٠٠ م. شعر أنه مجبر على تأكيد صلاح الزواج والإنجاب بالرغم من تفضيله للنسك، ويحث إكليمنضس على الزواج فى **الكتاب الثالث من «مجموعة كتاباته»**[٢٠] وما جاء فيه يبدو كدفاع فاتر عن هذا الموضوع للقارىء العصرى، ومع ذلك فهو فى الواقع من أقوى الحجج على صلاح الزواج كانت موجودة فى كتابات الثلاثة قرون الأولى للمسيحية، ويستعرض إكليمنضس المواقف الغنوسية المختلفة عن الزواج ويقدم ما يعتبره الرد المسيحى المستقيم الرأى.

ثالثاً،١،١ وهكذا فإن الفالنتيين[٢١] الذين يعتقدون أن الاتحاد الجسدى تم تصميمه على نمط الانبثاق الإلهى فى السماء معجبون بالزواج، وعلى النقيض من أتباع باسيليوس[٢٢] الذين يقولون إن الرسل عندما تساءلوا إن كان يستحسن عدم الزواج، أجابهم الرب بالقول «ليس الجميع يقبلون هذا الكلام... لأنه يوجد خصيان ولدوا هكذا من بطون أمهاتهم. ويوجد خصيان خصاهم الناس ويوجد خصيان خصوا أنفسهم» (متى ١٩: ١١-١٢).وتفسيرهم لهذا المثل يمضى بالقول: بعض الرجال منذ ميلادهم ينفرون من النساء، وهؤلاء الرجال المزودون بهذه الطبيعة يفعلون حسناً إذا لم يتزوجوا، وهؤلاء هم «الخصيان من بطون أمهاتهم».

(٢٠) Text:GCS 15, 195

(٢١) طائفة غنوسية ازدهرت في القرن الثاني للميلاد.

(٢٢) معلم غنوسي من القرن الثاني.

والخصيان الذين «خصوا أنفسهم» هم أولئك النساك الذين يضبطون أنفسهم بسبب عدم رغبتهم فى الشهوة وأولئك الذين خُصوا بالصدفة قد أصبحوا «خصياناً غصباً عنهم»(٢٣) لم يفعلوا ذلك بمحض إرادتهم الحرة. ولكن أولئك الذين «خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات» يقولون عنهم إنهم أخذوا هذا القرار، أى قرار حياة التبتل بسبب نتائج الزواج، فهم يخشون المتاعب التى تجرها عليهم ضرورات الحياة الزوجية.

ثالثاً.١.٤ فكبح النفس إذن ازدراء بالجسد الذى يتفق مع اعترافنا بالله، لأن كبح النفس لا ينطبق فقط على الرغبة الجنسية، بل على كل شىء شرير ترغبه النفس عندما لا تقنع بالضرورات الأساسية، فهناك كبح للنفس يتعلق باللسان، وآخر يتعلق بالملكية والاستعمال والرغبة. إن ضبط النفس لا يعلمنا العفة فقط، بل يمدنا بالعفة لأنها نعمة وقوة من الله، وهكذا يجب أن أقدم تقريراً عن رأينا فى هذا الموضوع. نحن نبارك الامتناع عن ممارسة الجنس بالنسبة لأولئك الذين أعطيت لهم هذه الحالة من الله، ولكننا أيضاً نغتبط للزواج بامرأة واحدة، ومهابة الزواج بامرأة واحدة فقط، لأننا نعتقد أننا يجب أن نتألم لأجل بعضنا البعض حيث يقول «احملوا بعضكم أثقال بعض» (غلاطية ٦:٢).

"إذاً من يظن أنه قائم فلينظر أن لا يسقط» (كورنثوس الأولى ١٠:١٢) ويتكلم الرسول بولس عن الزواج الثانى بالقول «إن التزوج أصلح من التحرق» (كورنثوس الأولى ٧:٩).

ثالثاً.٢.٥ ولكن تلاميذ (كاربوكراتيس(٢٤) Carpocrates) (وأبيفانس Epiphanes) يعتقدون أن الزوجات يجب أن تكنّ مشاعاً، والذين بسببهم شاع التجديف على اسم المسيحية. وأبيفانس هذا الذى احتفظ بكتاباته كان ابناً لكاربوكراتيس ، وكانت أمه اسمها اسكندرية، وعائلة والده كانت من الاسكندرية، وعائلة أمه كانت من (سيفالينيا Cephallenia) وقد عاش سبعة عشر عاماً فقط، وتم تكريمه كإله فى بلدة (سام Same) فى سيفالينيا. وعلمه أبوه التعليم العام والفكر الأفلاطونى، وشرح له معرفة (الموناد Monad) والذى تفرعت منه هرطقة (الكاربوكراتيين). يقول (إكليمنضس) إن (أبيفانس) فى كتابه (عبر البر) يكتب ما يأتى:

---

(٢٣) يحتمل أن يكون قد حدث إدخال بعض الكلمات في اليونانية .

(٢٤) قادة الجماعات الغنوسية المتحررة.

ثالثاً ٢، ٨ «لقد صنع الله كل شيء للإنسان ليشارك فيه الجميع، وذلك بإحضاره الأنثى للذكر عموماً، وبإشراك الحيوانات معه بنفس الطريقة، فقد أعلن أن البر يتكون من الشيوع والمساواة، ومع ذلك فالذين ولدوا نتيجة لهذا الشيوع بين الذكور والإناث، استنكروا هذا الشيوع بالمولد وقالوا: «إن من يتخذ امرأة فلتظل له، بدلاً من أن يشارك معه الجميع فيها كما تفعل الحيوانات»، وأنا أنقل هنا عباراته التى تفوه بها، ويستمر فى حديثه فيقول: «لقد خلق الله فى الذكور رغبة قوية مشبوبة ليضمن دوام الجنس، وهذه الرغبة لا يمكن لأى قانون أو عادة أو شيء آخر القضاء عليها لأنه أمر إلهى».

كيف يمكن لمثل هذا الرجل أن يحسب كواحد منا بينما بهذه الأقوال يقضى على كل من الناموس والإنجيل؟ لأن أحدهما يقول:«لا تزن» (خروج. ٢٠:١٤) والآخر يقول «إن كل من نظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها فى قلبه» (متى٥:٢٨)، والناموس الذى يقول: «لا تشته» (خروج . ٢٠:١٧) يبين أن الإله المعلن عنه فى الناموس والأنبياء والإنجيل واحد لأنه يقول «لا تشته امرأة قريبك..».

ثالثاً ٢، ١٠ هذه إذن هى تعاليم (الكاربوكراتيين) الطيبين، فيقال: إن هؤلاء الناس ومعهم آخرون متحمسون لهذا النوع من الشرور يجتمعون معاً من أجل الولائم (أنا عن نفسى لا أعتبر اجتماعهم وليمة حب مسيحية) رجالاً ونساء، وبعد أن يلتهموا كمية كبيرة من الطعام (بعد أن يتخموا) تأتى (سيبرس Cypris)[٢٥] كما تقول الرواية، وبعد أن يقلبوا المصباح ويطفئوا النور، لأنهم يفكرون فى إخفاء هذا الخزى الناتج عن هذا «البر» الدنس (العاهر) فيمارسون الاتصال الجنسى بأية طريقة يشاءون، ومع أية امرأة يرغبونها، وبعد أن يمارسوا الشيوع فى «وليمة الحب» هذه يطلبون فى النهار النساء اللائى يرغبون فيهن حتى يسيروا بموجب قانون (كاربوكراتيس) مع أنه لا يمكن أن يُسمى أمراً إلهياً بل أعتقد أن هذا القانون الذى سنه (كاربوكراتيس) لشهوات الكلاب والخنازير والمعيز! ويبدو لى أنه أساء ترجمة كلمات (أفلاطون Plato فى «الجمهورية» بأن نساء الجميع يجب أن يكنّ مشاعاً، (فأفلاطون) يقول إن النساء قبل أن يتزوجن يعتبرن مشاعاً قبل زواجهن للرجال [٢٦] الذين يفكرون فى

---

(٢٥) أفروديت آلهة الحب. يوروبيدس قصاصة رقم ٨٩٥.

(٢٦) الجمهورية Republic V, 457 DffÆ

الزواج منهن تماماً كما يقال عن المسرح إنه «مشاع» للمشاهدين، ولكن عندما يستقر رأى الرجل على امرأة واحدة، فهى بعدئذ لا تعد فى متناول أى شخص آخر يشاركه فيها.

ثالثاً ١٢،٣ فإذا كان (أفلاطون Plato نفسه (والفيثاغورسيون Pythagoreans من قبل اعتبروا الميلاد شراً، كما فعل بعد ذلك أتباع (ماركيون Marcion [٢٧] أيضاً (مع أن ماركيون لم يذهب بعيداً لحد أن يقترح شيوع الزوجات) إذ اعتبروا أن الطبيعة شريرة، وأنها مخلوقة من المادة الشريرة بواسطة قوة عادلة، ولأنهم لا يريدون أن يملأوا العالم الذى صنعه الخالق، فإنهم اختاروا البعد عن الزواج. لقد وضعوا أنفسهم فى تنافر مع خالقهم، وأسرعوا للإله الذى يدعونه خيراً، ولكن ليس للإله من النوع الآخر على حد تعبيرهم، ولأنهم لا يرغبون أن يتركوا على الأرض شيئاً ينتمى إليهم، فقد ظلوا طاهرين ليس باختيارهم بل بسبب عداوتهم للخالق، وهم لا يريدون استعمال الأشياء التى خلقها. ولكن هؤلاء الناس فى حربهم الشريرة ضد الله، فقدوا عقلهم الطبيعى مزدرين بصبر وصلاح الله، فحتى لو لم يريدوا الزواج فإنهم مع ذلك يستخدمون الطعام الذى صنعه الله، ويتنفسون هواء الله، فهذه الأشياء من صنعه، وهم يعيشون بسببها ..

ثالثاً ٤و٢٥ ذكرنا (ماركيون) من (بونتيوس Pontius) وهو أحد الهراطقة الذين استنكروا استعمال أشياء العالم ليس بسبب معارضته للخالق، فسبب كبح نفسه عن الشهوات هو الخالق نفسه إذا كان يمكن تسمية ذلك بضبط النفس. هذا الرجل القوى، الذى يضع نفسه فى مقام عدو الله المعارض له، يكبح شهواته رغماً عن إرادته ساخطاً على الخليقة وعملية تشكيل الحياة.

ثالثاً ٥،٠،٤ .. دعنا نستعرض كل الهرطقات وسوف نقسمها إلى قسمين حتى يمكن أن نرد عليها، فهى إما أن تعلّم أن سلوكنا فى الحياة لا يؤثر فى تقوانا سواء كنا منضبطين أم لا، أو يأخذون[٢٨] الجانب العكسى فيمتدحون كبح النفس التام عن الشهوات بدافع عدم التقوى والمشاكسة. دعنا نتأمل أولاً فى الصنف الأول إذا كان لابد لنا أن نختار من كل أساليب الحياة منهجاً واحداً، فواضح أن الإنسان يستحسن أن يسلك طريق الطهارة وإذا كانت

---

(٢٧) مسيحي من القرن الثاني اعتبره آباء الكنيسة من الغنوسيين.

(٢٨) نظام يتبعه الفلاسفة الصوفيون يشير إلى حياد أخلاقي في الأفعال .

الحياة بهذه الطريقة تجعل الإنسان الذى اختار هذا الطريق فى مأمن من الخطر فواضح أن الحياة مع الفضيلة وضبط النفس من أقصر الطرق التى توصلنا لذلك، وإذا كان «رب السبت» (مرقس٢:٢٨، متى١٢:٨، لوقا ٦:٥) يسوع أُعطى الحق أن يُحسب بلا خطية رغم أنه عاش بلا قيود فكم بالحرى تحسب كذلك حياة الإنسان الذى يعيش حياة محتشمة لائقة؟، فالرسول بولس يقول "كل الأشياء تحل لى وليس كل الأشياء توافق» (كورنثوس الأولى ٦:١٢، . ١:٢٣).ولكن إذا كانت كل الأشياء تحل لى، فواضح أن ضبط النفس يحل لى أيضاً.

ثالثاً ٤٣،٥ ليس من الممكن على أولئك الذين تتحكم فيهم نوازعهم أن تكون عندهم معرفة الله، والشخص الذى يفشل فى الوصول لهذا الهدف يُتهم حقاً بالجهل، لأنه من المستحيل أن تكون شخصاً حكيماً ولا تشعر بالخجل عند انغماس الجسد فى الملذات...

ثالثاً ٤٩،٦ هناك أناس يقولون بصراحة إن الزواج عهارة وينادون بأن الشيطان هو الذى شرعه، ويقول هؤلاء المدعون إنهم يقلدون الرب الذى لم يتزوج، ولم تكن له أية ممتلكات فى العالم، ويفتخرون بأنهم يفهمون الإنجيل أفضل من الآخرين، ولكن الكتاب المقدس يقول لهم «الله يقاوم المستكبرين وأما المتواضعون فيعطيهم نعمة» (يعقوب ٤:٦،بطرس الأولى ٥:٥)، ولذلك فهم لا يعلمون لماذا لم يتزوج الرب:

أولاً، لقد كانت له عروسه، الكنيسة (قارن أفسس ٥:٢٢-٣٣).

وثانياً، فهو لم يكن إنساناً عادياً حتى إنه يحتاج لمعين فى الجسد (تكوين٢:١٨)، ولا كان من الضرورى بالنسبة له أن ينجب نسلاً من حيث إنه حى إلى الأبد، وقد كان ابن الله الوحيد...

(كجزء من الدفاع عن الزواج يبرز إكليمنضس أن شخصيات العهد القديم والجديد المشهورة قد تزوجت).

ثالثاً، ٥٣،٦ فى الواقع أن بولس لم يخجل من تحية شريكته فى الخدمة فى إحدى رسائله (قارن فيلبى٤:٣)[٢٩] ولم يحضرها معه لأن ذلك كان أكثر فائدة لخدمته، ولذلك يقول فى إحدى رسائله «ألعلنا ليس لنا سلطان أن نجول بأخت زوجة كباقى الرسل» (كورنثوس

---

(٢٩) إكليمنضس يترجم «شريكة» بالقول إن بولس يخاطب زوجته.

الأولى٩:٥) ولكن هؤلاء الرسل، وجدوا أنه من المناسب لخدمتهم، أن يقوموا بالتبشير دون أن يشغلهم شاغل، فأخذوا زوجاتهم معهم ليس كشريكات فى الزواج بل كأخوات حتى يكنّ شريكات فى الخدمة للنساء فى المنزل، وقد تم تقديم تعليم الرب عن طريقهن لنساء أهل البيت، دون أن يعرض الرسل أنفسهم للافتراء وتشويه السمعة، لأننا نعلم أيضاً الأشياء المختصة بالنساء الشماسات، والتى عينها الرسول بولس فى إحدى رسالتيه إلى تيموثاوس (تيموثاوس الأولى ٣:١١)..

ثالثاً٥٧،٧، وهكذا، فالمعرفة البشرية عن الطهارة، وأعنى بها تلك التى نادى بها فلاسفة اليونان، تقول إننا يجب أن نحارب النزوات (الشهوات) ولا نشترك فى أفعالها، ومع ذلك فمعلوماتنا تفيد بأننا لا يجب حتى أن نختبر هذه النزوة، إنه ليس مجرد هزيمة النزوة وقهرها بل أنه بطريقة ما يجب أن يكبح جماح الشهوة نفسها، ولا توجد طريقة أخرى للتوصل لذلك سوى بنعمة الله، ولهذا السبب قال «اسألوا تعطوا» (متى٧:٧،لوقا١١:٩)...

ثالثاً٥٨،٧، إن تفكيرنا الأساسى المنطقى فيما يختص بالزواج والطعام وأشياء أخرى، تملى علينا أننا لايجب أن نكون مندفعين وراء الشهوات، إننا بدلاً من ذلك علينا أن نعمل إرادتنا فيما يختص بما هو ضرورى، لأننا لسنا أولاد المشيئة الجسدية بل المشيئة الإلهية (قارن يوحنا١:١٣)، والرجل الذى يرغب فى أن يتزوج لينجب أطفالاً لا يجب أن يضبط نفسه حتى لا يكون خاضعاً للهوى الجسدى فى علاقته مع زوجته، والتى عليه أن يحبها، وحتى ينجب أطفالاً نتيجة إرادة محتشمة لائقة واعتدال فى كل شيء، لأننا تعلمنا ألا نفكر فى الجسد لإرضاء نزواته وأن «نسلك بلياقة كما فى النهار» فى المسيح وفى تدريب الرب وإنذاره الذى ينير طريقنا، "لا بالبطر والسكر لا بالمضاجع والعهر ولابالخصام والحسد» (رومية ١٣:١٣-١٤).

ثالثاً٧٩،١٢، .. إن الهدف المنشود سواء بالنسبة للرجل الذى اتبع طريق التبتل لنفسه، أو بالنسبة للرجل الذى يتحمل عبء الزواج من أجل إنجاب الأطفال، يجب أن يكون عدم الخضوع للتوافه من الأمور، فإذا كرس حياته للعبادة، والتأمل الروحى سوف يحصل على مجد وكرامة من الله، حيث أن كبح جماح رغباته أمر طاهر وعقلانى فى نفس الوقت، ولكن إذا ارتأى فوق

ما ينبغى أن يرتئى ليحصل على مجد أعظم فقد يفقد كل رجاء، وهكذا فالبتولية والزواج يؤدى كل منهما عملاً وخدمة مختلفة للرب، ففى حالة الزواج يقوم المتزوج بالعناية بالأطفال والزوجة، ويبدو لى أنه بالنسبة للرجل الذى يرغب فى الزواج الناجح فالعلاقة المنزلية تحتم عليه العناية بكل شيء فى شئون المنزل، وأن يقتسم العمل هو وزوجته، وبولس الرسول يقول فى هذا الصدد إنه على الأساقفة أن يعرفوا كيف يدبرون بيتهم حسناً، حتى يستطيعوا أن يعتنوا بكنيسة الله (تيموثاوس الأولى ٣:٤-٥)، لذلك فليتمم كل شخص خدمته فى العمل الذى دعى إليه حتى يستمتع بالحرية فى المسيح، ويتلقى المكافأة المناسبة لخدمته.

إكليمنضس يجادل الغنوسيين Gnostics الذين يقولون إن آدم وحواء أصبحا كالحيوانات عندما ابتدآ فى ممارسة الاتصال الجنسى، فيرد عليهم إكليمنضس قائلاً إن الزوجين الأولين مارسا الجنس «بالطبيعة» ويردف بالقول:

ثالثاً ١٧،٣.١ ومع ذلك فإذا كانت الطبيعة قد قادتهم لإنجاب الأطفال كما تفعل المخلوقات غير العاقلة، إلا أنهما كانا مدفوعين لهذا العمل بسرعة أكثر من اللازم لأنهما كانا صغيرين فى السن وقد تمت غوايتهما، وكان حكم الله عليهما عادلاً لأنهما لم يصبرا لقراره، ولكن الولادة شيء مقدس، فبها تكوّن العالم، كل ما فى الوجود والطبائع والملائكة والسلاطين والأرواح، والوصايا والناموس والإنجيل ومعرفة الله .. فكيف بدون الجسد كان يمكن لخطة الله لأجلنا فى الكنيسة أن تحقق هدفها؟ ففى الواقع، أنه هو نفسه الذى هو رأس الكنيسة جاء فى الجسد، لا صورة له ولا منظر (إشعياء ٥٣:٢) لكى يعلمنا أن ننظر إلى ما هو ليس مادياً وإلى الكيان الروحى لمخلصنا المرسل من الله ...

وكُتّاب القرنين الرابع والخامس مثل يوحنا فم الذهب وأغسطينوس لم يكونوا بحاجة بعد لكتابة بحوثهم عن الزواج، كرد مباشر على الآراء الغنوسية ولكن قبل عصرهم كانت حركة التبتل فى أوجها، وحياة الامتناع عن ممارسة الجنس كان ينشدها جميع المسيحيين، فكيف يمكن للاهوتى مسيحى فى ظل هذه النظرة لحياة التبتل كهدف أسمى للحياة، أن ينادى بأن الزواج هو عطية الله الصالحة؟ إن وجهة نظر أوغسطينوس، بالرغم من كل هذه الإدانة للشهوة أكثر إيجابية من وجهة نظر فم الذهب الذى لم يعتقد أن الله قصد للبشر أن يتوالدوا عن طريق الجنس، وبهذا الادعاء أغلق ملف الجدل **بخصوص الزواج**. وآراء أوغسطينوس معبر عنها هنا

فى **بحثه عن الزواج والشهوة الجنسية** (٣٠) والذى كُتب حوالى ٤٢٠ م. وموقف أوغسطينوس فيما يختص بوسائل منع الحمل والإجهاض كما هى مدونة فى هذا الجزء المختار من بحثه قد أصبحت ملزمة للكثيرين فيما بعد من تعليم الكنيسة الكاثوليكية.

أولاً ٤، ٥ إن **الفائدة** الطبيعية المرجوة من **الزواج** هو أن الاتصال الجنسى بين الذكر والأنثى يؤدى للإنجاب، ولكن الشخص يسيء استعمال هذه الفائدة المرجوة من الزواج بغرض تحقيق اللذة بدلاً من الرغبة فى الإنجاب، ومع ذلك فحتى بالنسبة لبعض الحيوانات غير العاقلة (على سبيل المثال فى معظم الطيور) يوجد شيء أشبه ما يكون بالاتحاد الكونفيدرالى بين الزوجين. فالمهارة الاجتماعية المتضمنة فى بناء العش، ومشاركة الزوجين فى تدفئة البيض، وتبادلهما فى إطعام الصغار يجعل الطيور تبدو وكأن الزواج بالنسبة لها عمل الهدف منه إنجاب الصغار وليس إشباع الشهوة.

هذان مثالان، أحدهما شبيه بالإنسان فى عالم الحيوان والآخر شبيه بالحيوان فى عالم الإنسان.

وما قلته حقاً يظهر طبيعة الزواج (إن الذكر والأنثى يتحدان فى شركة هدفها الإنجاب ولذلك لا مجال أن يخدع الواحد الآخر، لأنه بالطبيعة لا شركة تقوم على شريك مخادع) وأن ذلك ينطبق حتى على غير المؤمنين الذى يبدأ عندهم الزواج بداية حسنة، ولكن ربما أنهم يفعلون ذلك بدون إيمان فإنهم يحولونه إلى شر وخطية، وبنفس الطريقة إذن فزواج المؤمنين يحول هذه الشهوة الجسدية التى فيها الجسد يشتهى ضد الروح (غلاطية٥:١٧) إلى شيء طاهر، لأن المؤمنين يهدفون إلى إنجاب الأطفال ليحصلوا على التجديد، ولذا فالمولودون كأطفال العالم يمكن أن يولدوا ثانية كأبناء الله.

ولهذا السبب فأولئك الناس الذين عند إنجابهم للأطفال ليست عندهم هذه النية، وهذه المشيئة، وهذا الهدف وهو تحويلهم من كونهم أبناء الإنسان الأول إلى أبناء للمسيح، بل يفتخرون بأنهم آباء غير مؤمنين لأبناء غير مؤمنين، هؤلاء الناس على الرغم من حرصهم فى نظامهم الزوجى على التعايش كأزواج فقط لأجل إنجاب الأطفال إلا أنهم هم أنفسهم ليست عندهم الطهارة الزوجية لأنه بما أن الطهارة فضيلة، فإن النجاسة تعد رزيلة مضادة لها. وبما أن كل الفضائل حتى التى تظهر من خلال الجسد تنبع من النفس، فكيف يمكن للجسد أن يقال

---

(٣٠) Text: CSEL 42.2.215

عنه إنه طاهر إذا كانت النفس ذاتها تزنى بعيداً عن الإله الحقيقى؟

فالمرنم يدين مثل هذا الزنى حين يقول «هوذا البعداء عنك يبيدون. تهلك كل من يزنى عنك» (مزمور٧٣:٢٧). فلا يمكن إذن أن تكون هناك طهارة حقيقية سواء فى الزواج أو الترمل أو البتولية سوى عند أولئك الذين وضعوا الإيمان الحقيقى أساساً لحياتهم. حتى عند الذين يبدو لهم أن البتولية أفضل من الزواج، وعند المسيحيين الكاثوليك الذين لا يفضلون زواج المرأة أكثر من مرة، وحتى فى نظام البتولية عند الهراطقة. إن قوة الإيمان عظيمة، ويقول عنها الرسول « كل ما ليس من الإيمان فهو خطية» (رومية ١٤:٢٣). ونفس الموضوع مشار إليه أيضاً فى الرسالة إلى العبرانيين« بدون إيمان لا يمكن إرضاء الله» (عبرانيين١١:٦).

أولاً، ١١،١٠ فما يوصى به المؤمنون فى الزواج ليس فقط بالتأكيد كثرة الإخصاب الذى ثمرته كثرة النسل، ولا العفة القائمة على الأمانة بل أيضاً نوع من الرابطة المقدسة بين الزوجين حيث يقول الرسول «أيها الأزواج أحبوا نساءكم كما أحب المسيح الكنيسة» (أفسس٥:٢٥). إن أساس هذه الرابطة الزوجية بلا شك هو أن الرجل والمرأة المرتبطان برابطة الزواج يجب أن يظلا معاً طالما هما على قيد الحياة وأنه لا يحل لأى منهما أن ينفصلا الواحد عن الآخر إلا لعلة الزنى (متى٥:٣٢، ١٩:٩)، لأن مثال هذا الزواج هو المسيح والكنيسة، هكذا أيضاً تبقى هذه الرابطة فى مدينة إلهنا، وفى جبله المقدس (مزمور٤٨:١-٢). ففى كنيسة المسيح التى تتكون من أفراد يكونون بدورهم جسد المسيح يمكن أن النساء يتزوجن والرجال يتخذون لهم زوجات لأجل إنجاب الأطفال، لكن غير مسموح لشخص ما أن يترك زوجته العاقر ليتزوج بأخرى ليست عاقراً، فأى واحد يفعل ذلك يتهم بارتكاب الزنا حسب قانون الإنجيل ولكن ليس حسب قانون العالم. وطبقاً لقانون العالم فإنه عندما يحدث طلاق بدون تبعات، فطرفا الزواج مصرح لهما بزواج ثان. وحتى الرب يعلن أن رجل الله موسى سمح بمثل هذا الطلاق بين الإسرائيليين بسبب قساوة قلوبهم (متى ١٩:٨و٩)، ونفس الحكم ينطبق على المرأة إذا تزوجت بآخر، وتبقى قوانين الزواج أيضاً قائمة بالنسبة للذين تزوجوا بهم طالما هم على قيد الحياة، لأن الذين انفصلوا عن بعضهم البعض ما يزال ينظر إليهم كفرادى بدلاً من أن ينظر إليهم فى إطار شركة الزواج الجديد، فلا يعتبروا بالطبع زناة إذا كان الزواج السابق قد انتهى، فإذا مات الزوج الذى كان الزواج الحقيقى قائماً به، فإنه يمكن للزوجة أن تتزوج ويترتب على ذلك زواج حقيقى ولكن ليس قبل وفاة الزوج، وإلا اعتبر زنى. وهكذا تبقى

العلاقة الزوجية قائمة طالما كان الزوجان على قيد الحياة ولا يمكن أن تنفصم عرى هذه العلاقة سواء بالانفصال أو بالزواج بآخر..

أولاً، ١٧،١٥ ومع ذلك إذا تم الاتصال الجنسى بهدف الرغبة فى إنجاب الأطفال فهذا شيء وهو ليس خطية، وأن يتم الاتصال الجنسى بهدف الاستمتاع بالاتصال الجسدى فهذا شيء آخر، وهو يتضمن ارتكاب خطيئة غير مميتة* حتى وإن لم يرتكب الفعل سوى مع الزوج أو الزوجة. وفى الحالات التى يكون فيها إنجاب الأطفال ليس هو سبب الاتصال الجنسى، فلا مانع من إنجاب الأطفال نتيجة لهذه الرغبة سواء كانت رغبة شريرة أو عمل شرير، ولكن أولئك الذين يستعملون وسائل لمنع الحمل حتى وإن كانوا أزواجاً فهم ليسوا كذلك، إنهم لم يبقوا على أى شيء من الزواج الحقيقى بل جعلوا اسم الزواج المكرم وسيلة للخزى والعار، وقد يذهبون إلى حد التعريض بالأطفال الذين وُلدوا هكذا بدون رغبتهم لأنهم يكرهون أن يطعموهم أو يحتفظون بهم لأنهم جاءوا رغماً عنهم. وهكذا عندما ينتابهم الغضب ضد أولئك الذين لم يرغبوا فى إنجابهم نتيجة لخطئهم فى الخفاء، فالخطية تظهر للعيان بإظهار القسوة، وبذلك يفصح الشر المخفى، وفى بعض الأحيان فهذه القسوة البادية فى شكل شهوة أو الشهوة المقنعة فى صورة قسوة تصل لحد أنها تخطط لإحداث العقم عن طريق العقاقير، وإذا لم يأت ذلك بنتيجة فإنها تحاول أن تقضى على الجنين الذى تم الحبل به وطرده من الرحم بطريقة ما بغية أن يقضى على النسل ويموت بدلاً من أن يعيش، وإذا كان الجنين ما يزال حياً فى الرحم فهو يقتل قبل أن يولد. وبالاختصار إذا كان الوالدان من هذه النوعية فإنهما ليسا زوجين وإذا كانا هكذا منذ بداية زواجهما فإنهما لم يتحدا مع بعضهما البعض عن طريق الزواج بل عن طريق النجاسة، ومع ذلك إذا كان أحد الطرفين فقط هو الذى يتصرف بهذه الطريقة فإنى أتجرأ لأعلن أنه إما أن المرأة تعتبر بطريقة ما من إحدى بنات الهوى للرجل، أو أن الرجل يعتبر كذلك زانياً بالنسبة للزوجة.

أولاً، ١٩،١٧ فى الزواج دعنا نقدر هذه المزايا الزوجية:النسل والأمانة الزوجية والرابطة السرية المقدسة. والنسل لا يعنى النسل لمجرد أن يولد بل أن يولد ثانية لأنه وُلد فى المرة

* الرأي الذي يقول إن العلاقات الجسدية بين الزوجين غير الإنجاب يعتبر خطية، خالفه القديس يوحنا فم الذهب وباقي آباء الكنيسة وقالوا إن من بين أهداف الزواج عدم السقوط في الزنا والشهوة ولذلك أباحوا وباركوا العلاقات الجسدية بين الزوجين ولو بغير الإنجاب.

الأولى للعقاب ما لم يولد مرة أخرى للحياة. وأما عن الأمانة الزوجية فأنا لا أقصد ذلك النوع الذى يحتفظ به حتى غير المؤمنين فى علاقتهما تجاه بعضهما فى حماسة جسدية لأنه أى رجل، مهما كان يعوزه الحياء يقبل أن يعاشر زانية؟ وأية امرأة مهما فقدت برقع الحياء ترضى بزوج زان؟ بالتأكيد يوجد فى الزواج خير طبيعى حتى وإن كان جسدياً، ولكن أى «عضو من أعضاء المسيح» (كورنثوس الأولى ٦:١٥) يجب أن يخشى الزنى بسبب حبه لزوجته لا بسبب حبه لنفسه، وأن يأمل فى الحصول على المكافأة من المسيح بسبب الأمانة التى يسير عليها تجاه زوجته. وبما أن الرابطة السرية بين الزوجين لا يمكن أن تفسد إلا بسبب الانفصال أو الزنى فالزوجان يجب أن يحافظا عليها بحب ونقاء، لأن الخير الوحيد الذى يحتفظ به حتى فى الزواج العقيم هو اتباع ناموس التقوى، فإذا ضاع الأمل فى الذرية بقى الأمل فى ارتباطهما الدائم كزوج وزوجة، فمن يرغب فى مدح الزواج عليه بمدح هذه المنافع الزوجية للزواج، أما شهوة الجسد مع ذلك فلا يصح أن تنسب للزواج بالرغم من السماح بها: إنها ليست خيراً نابعاً من طبيعة الزواج، بل شر ناتج من الخطية الأصلية.

أولاً، ٢٤، ٢٧ ولذلك فالشيطان يجعل الأطفال آثمين، فالأطفال مولودون ليس نتيجة للخير الذى ينتج من الزواج، بل نتيجة لشر الشهوة، وبالتأكيد فالزواج يستخدم الشهوة استخداماً صحيحاً، ولكن مع ذلك فحتى الزواج يحمر خجلاً بسببها، إن الزواج مكرم فى حد ذاته بسبب كل الخيرات التى تنتسب إليه حقاً، ولكن حتى إن احتفظ الشريكان بمضجعهما غير مدنس (عبرانيين١٣:٤)- ليس فقط من العهارة والزنى وهما مصيبتان ملعونتان ، ولكن أيضاً من كثرة ممارسة الاتصال الجنسى الذى لا يحدث بسبب الرغبة القوية فى إنجاب الأطفال بل بسبب الإفراط فى الشهوة الجامحة للحصول على اللذة، ذلك الإفراط الذى هو بمثابة خطايا غير مميتة للزوجين -ومع ذلك فحتى عند إنجاب الأطفال، فنفس الاتصال الذى هو حلال ومكرم لا يمكن أن يتم دون دافع الشهوة، وكنتيجة لذلك، فالشريكان لا يمكنهما أن ينفذا الفعل على أساس العقل بل هو نابع من الشهوة. وبالتأكيد فإن هذا الدافع -سواء سبق أو تبع الإرادة- فإنه مع ذلك يثير ويحرك الأعضاء كما لو كان بقوته الخاصة، وهذه الأعضاء لا يمكن أن تتحرك بالإرادة وحدها، وهكذا فإن هذا الدافع يبين أنه ليس خادماً لإرادة تتحكم فيه بل هو عقاب لإرادة غير مطيعة، إنه لا ينجم عن إرادة حرة بل نتيجة حافز مغرٍ ولذلك فهو مخجل. فشهوة الجسد هذه التى يسمح بها للإنجاب لا تعد خطية لكنها مع ذلك لا تحدث فى الطبيعة بمعزل

عن الخطية. أقول إن هذه الشهوة الجسدية هى على حد القول ابنة الخطية، وعندما تخضع لأعمال قذرة فهى أيضاً أم لخطايا كثيرة، فكل النسل المولود معرض للخطية الأصلية ما لم يولد ثانية فى ذاك الذى حبلت به العذراء بدون شهوة، وعلى هذا الأساس فعندما تنازل ليولد فى الجسد فهو الوحيد الذى وُلد بلا خطية.

ثانياً، ٣٥،٢ ... ومع ذلك فما يقوله الرسول بولس عن الخلاعة التى ذكرها حين قال «وكذلك الذكور أيضاً تاركين استعمال الأنثى الطبيعى اشتعلوا بشهوتهم بعضهم لبعض ذكوراً بذكور» (رومية١:٢٧). إنه لا يتحدث عن الفعل الزوجى بذاته، بل عن الفعل الجنسى (الطبيعى) لأنه يريد أن يفهمنا أنه بهذه الأعضاء المخلوقة لهذا الغرض، فإن الجنسين يمكن أن يتحدا معاً للإنجاب. ومن ذلك يستتبع أنه عندما يتصل رجل بامرأة زانية مستخدماً هذه الأعضاء فالاستعمال «طبيعى» على الرغم من أنه لا يستحق المدح بل الذم. إن استعمال جزء من الجسد ليس بقصد الإنجاب هو فعل ضد الطبيعة، وهو مشين حتى لو كان الرجل يتصل اتصالات جنسية بزوجته، لأن نفس الرسول قال من قبل عن النساء «لأن إناثهم استبدلن الاستعمال الطبيعى بالذى على خلاف الطبيعة» (رومية١:٢٦). ثم يذكر إن الرجال فعلوا الفحشاء ذكوراً بذكور تاركين استعمال الأنثى الطبيعى، ولذلك فهذه العبارة «الاستعمال الطبيعى» ليس القصد منه مدح الاتصال الجنسى الزوجى، بل القصد منه التنديد بتلك الأفعال المخزية التى هى أكثر دنساً ونجاسة من تلك الأفعال المحظورة والتى تجرى مع النساء، ولكنها مع ذلك «طبيعية». وآراء أوغسطينوس عن الخير النسبى للزواج موجودة أيضاً فى بحثه المبكر عن **«فائدة الزواج»**.

٣،٩(٣١) بالتأكيد يجب أن يُفهم أن الله يعطينا بعض الخيرات المرغوبة فى حد ذاتها، كالحكمة والصحة والصداقة وخيرات أخرى ضرورية لأجل شىء آخر، كالتعليم والطعام والشراب والنوم والزواج والاتصال الجنسى. ومن هذه الأشياء الاخيرة نجد البعض منها ضرورياً لأجل الحكمة كالتعليم، والبعض الآخر لأجل الصحة كالطعام والشراب والنوم، والبعض لأجل الصداقة كالزواج أو الاتصال الجنسى، لأن بهما يتم تكاثر الجنس البشرى والذى تعد رابطة الصداقة فيه خيراً أسمى. وهكذا فالشخص يخطىء عندما يستعمل هذه الخيرات الضرورية

---

(٣١) Text: CSEL 41.1990.

لأجل شيء معين لغرض خلاف الغرض الذى أنشيء لأجله، وفى بعض الحالات يخطيء المرء خطايا غير مميتة ولكن بعضها يعتبر خطايا مميتة، فمن يستخدمها للغرض الذى أعطيت لأجله يفعل حسناً، لذلك فإذا كانت هذه الأشياء تعتبر غير ضرورية لشخص ما ويمتنع عن استعمالها فهو يفعل حسناً.إذن فعندما نحتاج هذه الخيرات فمن حقنا أن نتمناها، ولكن من الأفضل ألا نتمنى أكثر مما نفعل، لأننا نحن أنفسنا نكون أناساً أفضل عندما لا نعتبر هذه الخيرات أشياء ضرورية، فمن الجيد أن نتزوج لأنه جيد أن ننجب أطفالاً، وأن ننشيء عائلات (تيموثاوس الأولى٥:١٤، ٢:١٥) ولكن من الأفضل ألا نتزوج لأنه من الأفضل للمجتمع البشرى نفسه ألا يحتاج لهذا النشاط. لأنه فى حالة الجنس البشرى حالياً، فإن الذين لا يستطيعون ضبط أنفسهم يقدمون على الزواج، وكثيرون غيرهم يجدون متعة فى علاقات غير مشروعة، ومع ذلك فالخالق العظيم يأتى بالخير من شرورهم، والنتيجة إن العديد من النسل وتسلسل الأجيال لا ينقطع، وينتج عن ذلك صداقات مقدسة، ونستنتج من ذلك أنه فى بداية الجنس البشرى ولأجل تكاثر شعب الله الذى كان سيأتى من نسلهم مخلص العالم الذى سبق التنبؤ به، فكان لزاماً على شعب الله المقدس أن يتزوج، وليس للزواج نفسه، بل لشيء آخر ضرورى، ولكن الآن وفى كل مكان بين الأمم قد كثرت الصداقات الروحية، ولكى ندبر مجتمعاً مقدساً طاهراً يجب أن نحذر حتى أولئك الذين يرغبون أن يرتبطوا بالزواج فقط لأجل إنجاب الأطفال أنه من الأفضل لهم أن يلجأوا للجانب الأسمى وهو ضبط النفس.

. ١- ولكنى أعلم أن بعض الناس يتذمرون متسائلين «وماذا لو أن كل البشر أرادوا الامتناع عن العلاقات الجنسية كلية، كيف يمكن للجنس البشرى أن يستمر؟ هل بذلك يرغبون فى خلق سماء على الأرض خاصة إذا عملوا ذلك فى محبة من قلب طاهر وضمير صالح وإيمان بلا رياء» (تيموثاوس الأولى١:٥) ! إن مدينة الله سوف تمتلىء بسرعة، ونهاية العالم سوف تسرع، وإلا فما الذى دفع الرسول بولس لكى يحض الناس قائلاً: «لأنى أريد أن يكون جميع الناس كما أنا» (كورنثوس الأولى ٧:٧)؟ أو فى تلك الفقرة الأخرى التى يقول فيها «فأقول هذا أيها الإخوة الوقت منذ الآن مقصر لكى يكون الذين لهم نساء كأن ليس لهم . والذين يبكون كأنهم لا يبكون والذين يفرحون كأنهم لا يفرحون والذين يشترون كأنهم لا يملكون. والذين يستعملون هذا العالم كأنهم لا يستعملونه لأن هيئة هذا العالم تزول فأريد أن تكونوا بلا هم» (كورنثوس الأولى ٧:٢٩-٣٢). ثم يضيف قائلاً: «غير المتزوج يهتم فى ما

للرب كيف يرضى الرب، وأما المتزوج فيهتم فى ما للعالم كيف يرضى امرأته. إن بين الزوجة والعذراء فرقاً، غير المتزوجة تهتم فيما للرب لتكون مقدسة جسداً وروحاً وأما المتزوجة فتهتم فى ما للعالم كيف ترضى رجلها» (١كورنثوس ٧: ٣٢-٣٤). لأنه يبدو فى ذلك الوقت أن الذين لم يكونوا قادرين على ضبط أنفسهم فقط هم الذين يتزوجون طبقاً لرأى نفس الرسول "ولكن إن لم يضبطوا أنفسهم فليتزوجوا لأن التزوج أصلح من التحرق» (١كورنثوس ٧: ٩).

وتوصية **يوحنا فم الذهب** بخصوص الزواج فى **عظته** تعليقاً على ما جاء فى **(١كورنثوس٧: ٢)**. «ولكن لسبب الزنا ليكن لكل واحد امرأته وليكن لكل واحدة رجلها» أكثر تردداً من توصيات أوغسطينوس [٣٢].

٣- لدينا هنا سببان للزواج: حتى تكون هناك عفة أو طهارة، وحتى نصبح آباء، لأنه منذ أن ظهرت الشهوة على المسرح، كان لابد من الزواج لكبح جماح الانغماس فى ممارسة الجنس، ولحض الرجل على الزواج بامرأة واحدة، فالزواج لم يبتدع ببساطة لخلق الأطفال، حقاً إن كلمة الله تقول «أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض» (تكوين ١: ٢٨). والدليل على ذلك عدد الذين تزوجوا، ولكنهم لم يصبحوا آباء، ولذلك فالطهارة هى السبب الرئيسى للزواج، وبخاصة فى الوقت الحاضر حيث إن جنسنا قد ملأ العالم كله، ففى البداية كانت الرغبة فى إنجاب الأطفال حتى يترك كل شخص خلفه ذكرى وأثراً لحياته هو، حيث إنه لم يكن عندهم أمل فى القيامة (بل كان الموت هو السائد) فهؤلاء الناس الذين كان مصيرهم الموت حسبوا أن كل شيء ينتهى بانتهاء الحياة الحاضرة، فأعطاهم الله لذلك عزاء فى الأطفال حتى حين يرحلون تظل صورتهم حية، ويتم حفظ الجنس، وبالنسبة لأولئك الذين كانوا على شفا الموت فإن نسلهم كان يمثل تعزية ليست بقليلة لأصدقائهم، ولكى نعلم أن الأبناء كانوا الأمنية المشتهاة، فلنستمع إلى زوجة أيوب وهى تنعى بحرارة الويلات التى حلت بهم «ذكره يبيد من الأرض ولا اسم له على وجه البر» (أيوب ١٨: ١٧) [٣٣]. واسمع ثانية ما قاله شاول لداود «فاحلف لى الآن بالرب أنك لا تقطع نسلى من بعدى» (صموئيل الأول ٢٤: ٢١).

وبما أن القيامة المستقبلية على الأبواب، فالموت لم يعد له الكلمة الأخيرة وسوف نرحل لحياة أخرى أفضل بكثير من الحياة الحاضرة، والاهتمام بالأشياء الحاضرة لا لزوم له، فإذا كنت

(٣٢) Text: PG 51. 213

(٣٣) قيلت حقاً على لم أحد المعزين لأيوب "بلدد الشوحي".

ترغب فى الأطفال، فيمكنك الحصول على أبناء أكثر وأنفع، فإن مخاض الولادة الروحية يدعونا. ويمكننا الحصول على نسل أكثر فائدة لنا عندما نتقدم فى السن.

إذن هناك سبب واحد فقط للزواج وهو تجنب الزنا، وهذا هو العلاج الموصوف.

وبالرغم من تقويم **أوغسطينوس** الأكثر إيجابية للزواج ، إلا أنه يوضح فى تعليقه على **«العظة على الجبل»** أن عدم الزواج أفضل شىء، وهو هنا يتأمل فى ما قصده يسوع حين قال إننا يجب أن «نبغض أقرباءنا» (لوقا١٤: ٢٦).

أولاً،١٥،٠ ٤ ..[٣٤] هكذا يقول الرب نفسه «متى قاموا من الأموات لا يُزوجِون ولا يُزوَجون بل يكونوا كملائكة فى السموات» (مرقس ١٢: ٢٥، متى ٢٢: ٣٠،لوقا ٢٠: ٣٥). لذلك فمن يريد أن يعد نفسه هنا والآن لذلك الملكوت يجب أن يبغض ليس البشر أنفسهم، بل تلك العلاقات الوقتية المرتبطة بحياتنا الحاضرة، هذه الحياة السريعة الزوال التى تتلخص فى الولادة والموت، لأن الشخص الذى لا يكرهها لا يحب الحياة الأبدية التى لا ولادة فيها ولا ممات، ذلك الشىء الذى يربط الناس بعضهم ببعض هنا عن طريق الزواج الأرضى.

أولاً،١٥،٤١ لذلك إذا أتيح لى أن أسأل أى مسيحى صالح عما إذا كان يريد زوجته التى ما زالت تنجب أطفالاً، فى ذلك الملكوت، خاصة إذا تذكرنا مواعيد الله عن الحياة التى فيها «هذا الفاسد لابد أن يلبس عدم فساد وهذا المائت يلبس عدم موت» (١كورنثوس١٥: ٥٣). فمع أنه قد يشعر بعدم اليقين فى الوقت الحاضر بسبب حبه الكثير لها (أو حتى القليل منه) فإنه سوف يجيب بالنفى والاستنكار، ولكن إذا أتيح لى أن أسأله ثانية عما إذا كان بعد القيامة عندما تكون زوجته قد حدث لها ذلك التغيير الملائكى الذى وعد به القديسين، فإنه سوف يجيب قائلاً: إنه يريد زوجته أن تعيش معه هناك وهو يريد هذا بقدر ما رفض الآخر، وهكذا فالمسيحى الحقيقى نجده يحب امرأة واحدة خليقة الله التى يريد أن تتشكل من جديد وتصاغ فى قالب آخر، ولكنه يكره فيها العلاقة الجنسية الفاسدة والمائتة، أى أنه يحب فيها ما هو إنسانى ويكره فيها ما يمت للزوجة. وبنفس الطريقة فإنه يحب عدوه ليس لمجرد أنه عدوه، بل لأنه إنسان فيتمنى له ما يتمناه لنفسه أى أن يصل لملكوت السموات متجدداً وفى صورة أمجد.

---

(٣٤) Text: CCL 35.44

اعتقد أوغسطينوس اعتقاداً راسخاً أن الله أراد للنساء أن يخضعن لأزواجهن فى الزواج، وحتى إذا أردن أن يعشن حياة النسك حفاظاً على قيم الرهبنة فى أواخر العصر المسيحى الأول ولا يستطعن عمل ذلك إلا بموافقة أزواجهن، **وتكشف رسالة أوغسطينوس(٣٥) لأم مسيحية** تدعى (إسيدسيا Ecidicie إصراره على خضوع الزوجات. وإذ نعرف تميز (أوغسطينوس) لحياة التبتل، فإن نقده اللاذع (لإسيدسيا) من الأشياء الملفتة للنظر بنوع خاص.

١. قرأت خطابك الموقر وقد استفسرت من حامله عن بعض الأمور المراد التحقق منها، وقد حزنت حزناً عظيماً لأنك قررت أن تتصرفى تجاه زوجك بطريقة جعلت صرح ضبط النفس الذى كان قد بدأ يعلو فيه ينهار، مما جعله يهوى إلى قاع خطيئة الزنا لأنه لم يستطع أن يستمر فى المثابرة، لأنه لو كان قد عاد للاتصال الجنسى الزوجى الجسدى بعد أن أخذ على نفسه عهد ضبط النفس أمام الله، واتخذه شعاراً له فى التصرف والسلوك، فإن ذلك مما يرثى له، ولكن كم وكم يكون أكثر مدعاة للرثاء أن يهوى إلى ذلك الدرك الأسفل بارتكابه لجريمة الزنا فيكون بذلك قد حطم وتحلل من الرابطة الزوجية! ففى غضبه عليك كان مدمراً لنفسه، كما لو كان تدمير نفسه يعلن عن شدة سخطه عليك، وهذا الشر العظيم حدث عندما لم تعامليه بالاعتدال الواجب اتباعه مراعاة لحالته العقلية، لأنه حتى لو كان بالاتفاق المتبادل لم تشتركا فى الاتصال الجسدى، ومع ذلك فإنك كزوجة كان يجب أن تكونى خاضعة لزوجك فى أمور أخرى، مراعية لرابطة الزوجية، وخاصة لأن كليكما أعضاء فى جسد المسيح، ومن المؤكد حتى لو كنت أنت مؤمنة وكان زوجك غير مؤمن فإنه من الأسلم لك أن تتصرفى بطريق الخضوع، حتى تكسبينه للمسيح، كما ينصحنا الرسول بذلك (١كورنثوس ٧:١٢-١٦)*.

٢. ثم أمضى إلى القول إنى أعرف أنك اتخذت قرار ضبط النفس والابتعاد عن الممارسة الجنسية بينما لم يكن هو قد أعطى موافقته، ومثل هذا القرار لا يتفق مع التعليم الصحيح، لأنه ما كان ينبغى أن تخدعيه فى وديعة جسدك قبل أن تتحد إرادتكما فى اتخاذ هذا القرار الصالح الذى يفوق الطهارة الزوجية، وهذا ربما لأنك لم تقرأى أو ربما لم تعيرى الالتفات وهكذا لم تسمعى ما قاله الرسول:

---

(٣٥) Text CSEL 57. 627.

* نصيحة الرسول بولس تخص زواج قائم فعلاً، بين زوجين غير مؤمنين، آمن أحدهما بالمسيحية ولم يؤمن الآخر، وينصح ببقاء العلاقة الزوجية. ومن الخطأ تطبيق هذا المبدأ على ارتباط جديد بين طرفين أحدهما غير مسيحي (المراجع).

«حسن للرجل أن لا يمس امرأة، ولكن لسبب الزنا ليكن لكل واحد امرأته وليكن لكل واحدة رجلها. ليوف الرجل المرأة حقها الواجب وكذلك المرأة أيضاً الرجل. ليس للمرأة تسلط على جسدها بل للرجل. وكذلك الرجل أيضاً ليس له تسلط على جسده بل للمرأة. لا يسلب أحدكم الآخر إلا أن يكون على موافقة إلى حين لكى تتفرغوا للصوم والصلاة ثم تجتمعوا أيضاً معاً لكى لا يجربكم الشيطان لسبب عدم نزاهتكم» (كورنثوس الأولى ٧: ١-٦).

طبقاً لهذه الأقوال الرسولية فحتى لو أراد هو أن يضبط نفسه عن ممارسة الجنس وحتى لم تريدى أنت، فإنه يكون مضطراً ألا يسلبك حقك الزوجى، فقد كان من الممكن لله أن ينسب إليه النزاهة وضبط النفس لو أنه وضع فى اعتباره ضعفك وليس ضعفه هو، ولم يسلبك حقك كزوجة حتى لا تقعى فى قضية الزنا اللعينة، فكم كان يكون أكثر ملاءمة، بالنسبة لك، والتى يعتبر الخضوع بالنسبة لها أكثر ملاءمة أن تتوافقى مع رغبته فى عدم سلبك حقك الزوجى لئلا ينجرف هو إلى حافة الزنا، حيث إن الله كان من الممكن أن يسمح لك بتحقيق رغبتك فى ضبط النفس، تلك الرغبة التى لم تراعى فيها حق زوجك حتى لا يهلك؟

٤- ولكنى حزنت، أنك راعيت أمراً آخر أقل أهمية، وكان المفروض عليك أن تخضعى له فى رابطة زوجية باتضاع وطاعة حيث إنه قد استسلم لك بأمانة فى أمر هام مقلداً إياك، ولأنكما كنتما تبتعدان سوياً عن ممارسة الاتصال الجنسى فإن ذلك لا يعنى أنه لم يعد زوجاً لك، بل على العكس تماماً فقد ظللتما بالحق زوجاً وزوجة بطريقة أكثر قداسة لأنكما كنتما تراعيان تحقيق هدف أقدس وأنبل طواعية وعن طيب خاطر. لذلك ما كان يجب عليك أن تفرطى فى ملابسك وحليك من ذهب أو فضة أو أية ممتلكات أرضية دون موافقته لئلا تضعى حجر عثرة أمام رجل أقسم معك على الوفاء بأشياء أسمى لله، وامتنع بكل عفة عن المطالبة بحقه المشروع وكان من الممكن أن يطلب جسدك منك ...

٩- ثم كان من المفروض أن تتشاورى مع زوجك الذى كان مؤمناً، والذى أخذ على نفسه معك عهد العفة وألا تحتقرى رغباته فيما يختص بخطتك فى تقديم الصدقات وتكريس كل ممتلكاتك للفقراء، وهو عمل صالح وعادل قد صرح الرب به بأقوال واضحة (قارن مرقس.١: ٢١، متى١٩: ٢١، لوقا١٨: ٢٢)، وإذا كان ينبغى عليك أن تشاوريه فى هذا الموضوع فكم يكون من الأجدر لك ألا تغيرى أو تتخذى أى قرار بالنسبة لملابسك مضاد لإرادته والذى لم نقرأ بخصوصه أى أمر إلهى؟ حقاً إنه مكتوب أن على النساء أن يزين

ذواتهن بلباس الحشمة مع ورع وتعقل لا بضفائر أو ذهب أو ما شابه ذلك للتباهى الكاذب أو للظهور بمظهر مغر، فكل هذه الأشياء مدعاة إلى اللوم (تيموثاوس الأولى٢:٩).ولكن هناك ملابس محتشمة للنساء-حسب حالة كل امرأة-فهناك ملابس تصلح للنساء المتزوجات المؤمنات، وملابس للأرامل، تراعي الجانب الدينى، فإذا كان زوجك لم يردك أن تتبذى هذا النوع من الملابس، ولم يرد أن تظهرى فى مظهر الأرملة وهو على قيد الحياة فلا داع أن تدخلى معه فى شجار مفضوح بخصوص هذا الأمر مع جلب شر أكبر ناجم عن عصيانك من أى خير كان يمكن أن ينجم من أى عمل من أعمال التقشف والزهد، لأنه ليس هناك أمر يثير السخرية أكثر من امرأة تتعالى على زوجها بشأن موضوع اللباس المتواضع، ألم يكن أكثر فائدة لك أن تتوافقى معه فى سلوك رائع من أن تتشاجرى معه فى ملابس الحداد؟ وحتى لو كانت ملابس الرهبنة قد جذبتك ألم يكن ممكناً أن يكون تصرفك أكثر فاعلية باحترام زوجك والتأثير عليه من أن تعتبرى الموضوع كأنه حق مكتسب لك دون استشارته أو الإقلال من شأنه؟ وإذا كان زوجك يرفض ذلك رفضاً قاطعاً فكيف يمكن التنازل عن قرارك؟ فليس مما يغضب الله أنه فى حين أن زوجك على قيد الحياة يكون لباسك ليس (كحنة) بل (كسوزانا Susanna)[٣٦].

ثانياً وبما أنك فكرت فى استشارتى فقد كتبت هذا لك ليس بقصد أن أثنيك عن عزمك بهذا الحديث، بل لأنى شعرت بالحزن بسبب سلوك زوجك، هذا السلوك الذى نتج بسبب تصرفك العنيد والمتهور، كان من المفروض أن تفكرى جدياً فى استعادته إذا كنت بالحق تريدين أن تكونى من أتباع المسيح، لذلك فاكتسى برداء التواضع العقلى حتى يحفظك الله ويمنحك صبراً جميلاً، ولا تحتقرى زوجك لفشله، اسكبى لأجله صلوات تقية بلا انقطاع، وقدمى له ذبيحة دموعك كالدم النازف من قلب جريح. اكتبى له محاولةً استرضاءه راجيةً منه المغفرة على الخطية التى ارتكبتيها ضده بالتخلى عن ممتلكاتك كما ارتأى لك، دون الحصول على موافقته ودون رغبته، وليس المقصود أن تتوبى عن منح ملكيتك للفقراء بل التوبة لعدم السماح له لمشاركتك فى هذا العمل وإرشادك لهذا العمل الصالح. لتعتبرى أنه من الآن فصاعداً بمعونة الرب أنه إذا تاب عن تصرفاته المشينة وطلب سلوك الزهد وضبط النفس مرة ثانية، ذلك السلوك الذى تخلى عنه، إنك تخضعين له فى كل شيء كما يليق، وكما يقول

---

(٣٦)أي ليس كأرملة بل كامرأة متزوجة تقية جذابة: انظر لوقا ٢:٣٦-٣٨ وسفر (سوزانا) الأبوكريفي عددي ١و٢.

الرسول:«مؤدباً بالوداعة المقاومين عسى أن يعطيهم الله توبة لمعرفة الحق فيستفيقوا من فخ إبليس، إذ قد اقتنصهم لإرادته» (تيموثاوس الثانية٢:٢٥-٢٦). أما بخصوص ابنك فبما أنك حبلت به بالزواج المشروع والمكرم فمن الذى يعلم أنه حق لأبيه أكثر منك؟ لذلك فلا يمكن أن تنكرى على والده حقه المشروع بمجرد أن يعرف مكانه ويطالب به، وطبقاً لرغبتك يمكن أن يتدرب ويتعلم الحكمة الإلهية، وباستثناء ذلك الموضوع فإن توافقك الزوجى أكثر فائدة بالنسبة لابنك.

إن الكُتَّاب المسيحيين الأوائل لم يكتفوا بنقد الزواج على وجه العموم بل تعرضوا للمشكلات الخاصة المرتبطة بالزواج، والتى كانت تنشأ كعقبات أمام النساء المسيحيات اللاتى كن ما يزلن يعشن فى عالم تسوده قيم وعادات وثنية، فعندما تعتنق المرأة الديانة المسيحية ولكن زوجها لم يفعل ذلك فإن الصعاب الوعرة كانت تكتنف علاقتهما. وكتاب **ترتليانوس** Tertullian **«مناشدة لزوجته»** يبرز بعض الأمثلة الصارخة على مشاكل الزواج المختلط، أى الزواج بين مسيحى ووثنى، والمشاكل التى تنشأ نتيجة لذلك.

ثانياً ٣، [٣٧]..من الضرورى على أية امرأة مسيحية أن تخدم الله. كيف يمكنها أن تخدم سيدين (متى٦:٢٤،لوقا١٦:١٣) الرب وزوجها الوثنى؟ ففى خدمتها للوثنى فإنها ستنفذ عادات وثنية، إنها سوف تكون شريكة فى المظهر غير اللائق، والزينة العالمية، والتصرفات المشينة بما فيها أسرار الزواج الدنسة نفسها، ولكن ليس هذا هو حال المؤمنين حيث تمارس واجبات الزواج فى إجلال وإكرام نظراً لضرورتها، وتمارس فى اتضاع واعتدال كما لو كانت تحت رقابة الله.

ثانياً،٤، ولكن دعنا نرى كيف تقيم واجباتها لزوجها، إنها فى الواقع لا تستطيع إرضاء الرب بسبب العادات المعمول بها، لأنه يوجد بجوارها خادم الشيطان، عميل سيده لإعاقة أنشطة وواجبات المؤمنين. فإذا كان عليها أن تحضر اجتماعاً دينياً يبادر الزوج منذ الفجر فى الاتفاق على مواعيد للاغتسال، وإذا حلت مواعيد الصيام فإنه يرتب إقامة وليمة (فى بيته)، وإذا كان هناك موكب دينى، فاهتمامه ينصب على العناية بالشئون المنزلية، ومن هو الرجل الذى يسمح لزوجته، لكى تزور الإخوة، أن تتجول من شارع إلى شارع، أو تذهب إلى أماكن

---

(٣٧) Text: CSEL 70.116.

غريبة أو إلى أكواخ الفقراء؟ من هو الرجل الذى يسمح لها بمحض إرادته أن تنتزع من جواره للذهاب إلى اجتماعات الليل حتى لو كانت ضرورية؟ ومن هو الرجل الذى يتحمل بهدوء حضورها اجتماع عيد القيامة طوال الليل؟ وأى رجل يرسلها للتناول من مائدة الرب دون إثارة أية شبهة، ثم يحاول بعد ذلك أن يشهرها؟ ومن يسمح لها أن تذهب للسجن لتقبل سلاسل الشهداء؟ بل أن تحيى أى واحد من الإخوة بقبلة؟ وأن تقدم ماءً لأرجل القديسين؟ وأن ترغب فى توفير جزء من طعامها وشرابها لهم؟ وأن تفتكر فيهم دائماً؟ وإذا وصل أخ من خارج البلاد فأية حفاوة يقابل بها فى منزل غريب؟ أما إذا كان هناك توزيع للطعام لعامة الشعب، فالمخزن وأماكن حفظ الطعام مغلقة تماماً.

- ثم إن حفل الزفاف نفسه يمكن أن يلقى بظلال كئيبة على النقاوة الأخلاقية للفتاة المسيحية، ويعرضها للخطر، هكذا قال **يوحنا فم الذهب فى العظة رقم ١٢ على الرسالة الأولى لأهل كورنثوس:**

٥ ...[٣٨] إن الزواج يعتبر مكرماً أيضاً منا، ومن الذين هم خارج الكنيسة، ولكن عندما تجرى احتفالات الزفاف تحدث أشياء تدعو للسخرية والضحك، وسوف تسمعون عنها الآن، فمعظم الناس يعملون أشياء خاطئة بحكم العادة، وهم لا يدركون غرابة هذه الممارسات ولكنهم يحتاجون لمن يعلمهم بشأنها، فهناك رقص وصنوج وآلات للنفخ، وأغنيات وكلمات هابطة وسكر حتى الثمالة، ثم يتم تقديم كل تفاهات الشيطان.

إنى أعلم أنه من السخف أن أهاجم هذه الممارسات، وإنى سوف أتهم بالحماقة الشديدة من قبل الأغلبية لتعطيل القوانين القديمة، وكما قلت سابقاً فإن العادات تحمل معها الخديعة، ومع ذلك فلن أتوقف عن توضيح ما أقصده، لأنه بالتأكيد سوف ينضم بعض الناس، ويقبلوا أقوالى ويفضلوا أن يكونوا موضع سخرية معنا من أن يشاركوا هؤلاء الناس فى ذلك الضحك الذى لا يستحق أن يقابل إلا بالدموع، والعقاب الشديد والتوبيخ.

لأنه كيف لا توجه أقسى أنواع الإدانة لتلك العادات التى تجبر عذراء عاشت طوال حياتها داخل نطاق منزلها، وعُلّمت دروس الحياء منذ نعومة أظافرها، أن تتخلى فجأة عن حيائها

(٣٨) Text: PG 61-103.

تماماً، لكى تتعلم أن تنزع برقع الحياء منذ بداية زواجها، وأن توضع وسط رجال شهوانيين أجلاف دنسين ومخنثين؟ أى نوع من الشرور لاتنغرس فى نفس العروس منذ ذلك اليوم؟ من بينها عدم الحياء، والطيش والوقاحة وحب المجد الزائف، لأنها تريد أن تكون كل أيامها هكذا! وحيث تصبح النساء مبذرات ومسرفات، تكثر شرورهن نتيجة لذلك..

٦.. **فإذاً لماذا؟** يتساءل أحدهم «هل تنتقد الزواج؟ تكلم! لا على الإطلاق..إنى لست مجنوناً لأفعل ذلك، ولكنى أنتقد مجموعة الشرور المصاحبة لصحوة الزواج: عمل الماكياج، وظلال العيون وكل الأشياء غيرالضرورية من هذا القبيل، حقاً فمنذ ذلك اليوم فإنها سوف تكون مطمعاً للعشاق قبل أن تكون محط أنظار عريسها المقبل.ثم انظر ما يحدث بعد ذلك، ليس فقط أثناء النهار بل أيضاً فى المساء، السكارى الذين أعمتهم وأشعلتهم الخمر يصبون لهم المزيد منها ليفغرون فمهم وهم يتطلعون إلى وجه الفتاة، ثم يودعونها ليس فقط فى المنزل بل أيضاً حتى موضع السوق، وفى المساء المتأخر يصحبونها بالشموع، وذلك لاستعراضها أمام الجميع، وبهذه الأفعال لا يفعلون إلا ما يدفعها لإلقاء برقع الحياء فى عرض الطريق، ثم لا يتوقفون إلى هذا الحد بل يقودونها إلى الأمام، وهم يتلفظون بكلمات غير لائقة.هذا هو قانون الجماهير، ثم إن آلاف العبيد الهاربين والأوغاد يقولون ما يتمنونه دون خجل أمامها، وأمام الرجل الذى سوف تقطن معه قريباً، لا شىء مهذب بل كل شىء تنقصه اللياقة. ألا تتعلم العروس درساً جيداً فى حرية التصرف على هواها بعد أن ترى وتسمع مثل هذه الأشياء؟ثم تنشأ بعد ذلك منافسة شيطانية بين أبطال هذا الموكب فى التفوق على الآخرين بإلقاء الكلمات البذيئة والتصنيف القاسى لإهانة المجموعة كلها، ولكن البعض يعترض قائلاً:«ولكن هذا هو الشىء المعتاد! وأقول: ولهذا فإنه يستحق الرثاء لأن الشيطان قد ألبس العملية كلها قناع العادة، ولكن بما أن الزواج أمر يدعو للياقة والاحتشام وهو الدليل الهادى لجنسنا وله فوائد كثيرة، فعدو الخير قد تضايق. ولأنه يعلم أن الزواج هو فى الواقع قلعة حصينة ضد الفساد الجنسى، فقد ابتدع من جديد بطريقة أو بأخرى كل أنواع الفساد الجنسى، ففى كل الحالات أصاب كثير من العذارى الكثير من الهوان فى مثل هذه الحفلات، وحتى إذا لم يحدث

ذلك فيكفى الشيطان هنا هذه الكلمات والأغانى الشريرة، والاستعراض الذى يقام للعروس ومصاحبة العريس فى زهو وسط سوق البلدة. وبما أن هذه الأنشطة تحدث فى المساء فهذه الشموع الكثيرة تجُلب لتكشف عن كل الأحداث لئلا يوفر الظلام غطاءً على هذه الشرور. لأنه ما دلالة كل هذه الجموع الحاشدة؟ وما الذى تدل عليه المعسكرات؟ وآلات الزمر، أليس واضحاً أن هذه الأشياء تحدث حتى أن أولئك الذين فى المنزل يغطون فى نوم عميق لا يمكن إلا أن يدركوا كل ما حدث فيوقظهم صوت المزمار، ويميلون ليطلوا من شرفاتهم ليصبحوا شهوداً على تلك المهزلة العابرة؟

وما الذى يمكن أن يقال عن الأغانى نفسها التى تذخر بكل ألوان الكلمات الشهوانية مقدمة العلاقات الغرامية غير الشرعية، والارتباطات غير المشروعة والإطاحة بالأهل، وسلسلة المآسى وتبادل المسميات مثل «يا حبيبى ويا صديقى» «يا عزيزتى ويا حبى». وما يحز فى النفس، هناك الخادمات اللاتى تجردن من كل حياء كما لو أنهن قد تجردن أيضاً من ملابسهن فى تلك الأحداث. وإكراماً للعروس أو بتعبير أصدق كإهانة لها فإنهن يضحين بخلاصهن فى وسط الشباب الفاسق ويتصرفن فى خلاعة بأغنياتهن المشوهة، وكلماتهن المخزية ولحنهن الشيطانى.وإذا كنت ما زلت تتسائل فيمكنك أن تقول لى: «من أين تأتى جرائم الزنا، ومن أين الفساد الجنسى؟ وما سر تحطم الزيجات؟

إن الطريقة الوحيدة التى اتبعها الكُتّاب المسيحيون القدامى لرفع شأن المرأة، هو التأكيد على النمط الوحيد للجنس، أى أنه لا يحق لرجل أو امرأة الدخول فى علاقات جنسية بغير الزواج، فلا يمكن للرجال أن يسموا أنفسهم مسيحيين حقيقيين لو أنهم استغلوا الحرية الجنسية الواسعة التى أتاحها لهم القانون الرومانى والعادات الرومانية، وقد عبر **يوحنا فم الذهب** عن آرائه فى هذا الموضوع فى العظة الخامسة تعليقاً على الرسالة الأولى إلى أهل تسالونيكى.

٢..[٣٩] لذلك أناشدكم، لننأى بأنفسنا عن هذه الخطية، لأنه كما تعاقب النساء حينما يهبن أنفسهن لآخرين بالرغم من زواجهن منا، فهكذا نحن أيضاً نُعاقب إن لم يكن بواسطة القوانين

---

(٣٩) Text: PG. 425.

الرومانية فمن الله، لأن هذا أيضاً يعد زنا. فالفعل الجنسى آثم، ليس فقط عندما تكون المرأة مرتبطة برجل آخر، بل آثم أيضاً بالنسبة للرجل المرتبط بزوجة. انتبهوا جيداً لما أقوله، حتى وإن كان كلامى يضايق الكثيرين، فيلزمنى أن أقوله لأضعكم على الطريق الصحيح فى المستقبل. فليس الزنا فقط يتم عندما تدنس امرأة مرتبطة برجل، ولكن الفعل أيضاً يعد زنا إذا دنّس رجال متزوجون امرأة حرة، وليس لها ارتباط بأى رجل. وقد يتساءل أحدهم: «لماذا يعد الأمر هكذا إذا كانت المرأة التى ترتكب معها الفعل ليست متزوجة؟». لكنك أنت متزوج، لقد خالفت القانون، لقد أسأت إلى جسدك أنت، وإلا فقل لى لماذا تعاقب زوجتك إذا كان لها صلات جنسية برجل حر غير متزوج؟ لأنه زنا: حتى لو كان الرجل الذى يرتكب الفعل معها غير متزوج، فإنها مرتبطة بزوج. ولكنك أنت أيضاً مرتبط بزوجة، ولذا فإن فعلتك هى زنا أيضاً. لأنه مكتوب «إن من طلق امرأته إلا لعلة الزنى يجعلها تزنى ومن يتزوج مطلقة فإنه يزنى» (متى ٥:٣٢) فإذا كان الرجل الذى يتزوج مطلقة يزنى فكم وكم يكون الحال بالنسبة للرجل الذى له زوجة، ومع ذلك فإنه يزنى بامرأة أخرى. ألا يفعل هو نفس الشىء؟ هذا واضح لكل ذى عيان ، ولكن بالنسبة لكم أيها الرجال فما قيل فى الموضوع يكفى، فالمسيح قال عن الناس الذين يسلكون فى هذا الطريق: «حيث دودهم لا يموت والنار لا تطفأ» (مرقس٩:٤٨).

لقد اعتقد **يوحنا فم الذهب** بالحق إن الطريقة المثلى الوحيدة للاتصال الجنسى كانت هى الدليل على أن الزوجات المسيحيات يستمتعن بالمساواة التامة مع أزواجهن يؤكد ذلك **فى العظة رقم ١٩ فى تعليقه على رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس.**

أولاً..[(٤٠)] «ليوف الرجل المرأة حقها الواجب، وكذلك المرأة أيضاً الرجل» (قارن ١كورنثوس ٧:٣).

وما هو «حقها الواجب» إن الزوجة ليس لها سلطان على جسدها، ولكنها تعد خادمة وزوجة للرجل، وإذا امتنعتن كنساء عن أداء دوركن الجنسى المناسب، فإنكن تخطئن إلى الله، فإذا رغبت فى الامتناع عن الاتصال فيما بينكما، يمكن ذلك فقط عندما يرى زوجك أن ذلك

(٤٠) Text: PG. 61. 152.

مناسب حتى وإن كان لفترة قصيرة، وهذا هو السبب الذى جعل بولس يدعو إلى الاتصال الزوجي «حقاً» لكى يبين أنه ليس لأحد سلطان على نفسه أو نفسها بل أن الزوجان خادمان لبعضهما البعض، ولذلك أيها الأزواج إذا رأيتم عاهرة تغريكم فإنكم تقولون «إن جسدى ليس ملكى بل ملك لزوجتى» والزوجة بالمثل ترد على أولئك الذين يريدون الاعتداء على عفافها «جسدى ليس ملكى بل ملك لزوجى»، فإذا لم يكن للزوج أو للزوجة سلطان على جسده أو جسدها، فكم بالأحرى ينطبق هذا المبدأ على كل الممتلكات؟.ففى فقرات أخرى فى الكتاب المقدس يعطى الله للزوج امتيازاً أكبر فى كل من العهدين الجديد والقديم بالقول «إلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك» (تكوين٣:١٦). وبولس أيضاً يعطى تمييزاً للرجال عندما يكتب قائلاً «أيتها النساء اخضعن لرجالكن كما يليق فى الرب. أيها الرجال أحبوا نساءكم ولا تكونوا قساة عليهن» (كولوسى٣:١٨-١٩،أفسس٥:٢٤-٢٥).ولكن فى الفقرة التى نحن بصددها، فليس السؤال من هو الأعظم ومن هو الأقل: هناك مستوى واحد للسيادة. لماذا؟ لأن حديث بولس هنا منصب على العفة، لأنه فى أماكن أخرى يقول«للرجل السيادة"، ولكن عندما يكون الحديث عن الطهارة والعفة فالأمر يختلف. فليس للزوج حق السيادة على جسده، ولا للزوجة على جسدها: فالمساواة فى حقوق كل منهما واجبة، ولا مزية للرجل فى هذا.

بمثل هذه الطرق امتدح آباء الكنيسة صلاح هذا النظام الإلهى، وأدانوا المرأة المسئولة عن الخطية الأصلية، وأسلموا نسلها من الإناث لحياة الخضوع للرجال، وطبقاً لأقوالهم، فالزواج يذكر النساء بالفردوس المفقود.

الفصل الثانى

النساء وتعرضهن للمخاطر

(سفر أعمال الرسل الأبوكريفى والاستشهاد)*

فى أواخر القرنين الثانى والثالث، ظهر نوع جديد من الأدب المسيحى وهو الأبوكريفا، ومنها سفر بعنوان أعمال الرسل، ومع أن نفس عناوين هذه الأسفار الأبوكريفية توحى بأنها كُتبت على نمط أعمال الرسل الكتابية، ومع أن كاتبيها يدعون أن أبطالهم كانوا رسل الكتاب المقدس، وقد ذهبوا فى رحلاتهم التبشيرية حتى حدود الهند، إلا أن العلماء يعتقدون أنه لا يوجد فى الحقيقة اتصال مباشر يربط فيما بين أعمال العهد الجديد بكتب الأبوكريفا. ومن المحتمل أن تلك الكتب قد تأثرت بالأدب غير المسيحى، وبخاصة الروايات أو الأساطير الهلّينية (اليونانية) ويبدو أنها قد كُتبت لتقديم مادة للتسلية، ولغرس بعض المثل المسيحية المعينة مع التأكيد على النسك والمعجزات.

والدور الرئيسى الذى تقوم به النساء فى الأعمال الأبوكريفية، ذو بريق خاص، والنساء اللاتى وضعن فى هذه الكتب من عائلات بارزة، وقد تزوجن أو خطبن لرجال أقوياء وأثرياء، وقدأصبحن مولعات روحياً بواحد من الرسل المتجولين ذى الجاذبية الخاصة، وهنّ يرفضن القيم التقليدية الاجتماعية التى تربطهن بالمنزل لأجل المسيحية التى ينظر إليها على أنها نظام جامد للنسك، ونساء أعمال الأبوكريفا لسن الزوجات الطيعات اللواتى يمتدحن فى الرسالة الأولى إلى تيموثاوس: فهؤلاء النساء عاقدات العزم وراغبات فى المخاطرة، بالتوافق مع المجتمع بل وبالحياة ذاتها لرفع لواء إيمانهن، ولا يمكن أن تثبت أن هذه القصص الشعبية وجدت جمهوراً كبيراً من النساء، فالانتقال المفاجىء من الأدب «للحياة الواقعية» دائماً يحدث فجائياً دون مقدمات، ولكن كان دور النساء بارزاً فى أعمال الأبوكريفا لدرجة أن هناك دراسة حديثة تقترح بأن بعض هذه الأعمال قد كتبها عدد من الإناث[1].

---

* مع أن الكنيسة في قوانينها، وفي أقوال آبائها وقرارات مجامعها لم تقبل هذه الكتابات إلا أننا نقدمها هنا كأعمال أدبية تكشف لنا روعة بعض النساء اللاتي قدمن مثلاً رائعاً في الشجاعة، والتمسك بالعفة، والتكريس للعريس السمائي وتفضيل الملكوت والأبدية على كل ما هو جسدي حتى لو كان شرعياً مثل الزواج. إنه مثل في الشجاعة والبطولة والاستشهاد وقدرة يحتذى بها (المراجع)!!

(١) ستيفن ل.دافيز Steven L. Davies «ثورة الأرامل» - العالم الاجتماعي لأعمال الأبوكريفا (كاربوندال Carbondale)، مطبعة جامعة إلينوي الجنوبية . ١٩٨.

وأول هذه الأعمال هو ما يعرف باسم **أعمال بولس وتكلا** Thecla، وهى جزء من أعمال بولس المطولة، وبما أن (ترتليانوس Tertullian فى بحث يرجع لحوالى. ٢٠٠م، يشير لهذا الكتاب فقد قرر الدارسون أنه يرجع لأواخر القرن الثانى، وقد ذاع صيت (تكلا) بين المسيحيين، وقد أصبح اسمها مرادفاً للمرأة المسيحية ذات البطولة الفذة. وحث (جيروم) وكُتّاب آخرون أصدقاءهم من النساء محاكاة إيمان (تكلا) المثابر، وقد تجمع حولها عدد من المعجبين واعتقدوا أنها شخصية تاريخية، ومنهم (الحاج ايجيريا Egeria)، فعندما كان يذهب إلى آسيا الصغرى فى آواخر القرن الثالث كان يزور ضريح (تكلا) فى سلوقيا حيث كان موضع سرور (ايجيريا). وكان يقرأ هناك «أعمال تكلا»، وفى القرن الخامس كتب كتاباً يدعى «حياة ومعجزات تكلا» وقد أوضح هذا الكتاب الأعمال الرائعة التى قامت بها بطلته.

ومما يلفت الأنظار بنوع خاص فى النص الذى سنورده حالاً الدفاع عن حياة النسك، والظروف الصعبة التى أوضحها بولس مثل كان بعيداً عن مساعدة تكلا عندما حدث الاعتداء عليها جنسياً)، وسيطرة (تكلا) على الحيوانات، وهى سمة تميز الأبطال النساك، ومعمودية (تكلا) لنفسها، وهى قصة جعلت الكنيسة تواجه مشاكل فيما بعد.

الرسول بولس يذهب إلى أيقونية [(٢)]

٥. وعندما دخل بولس منزل (أنسيفورس Onesiphorus كان هناك فرح عظيم وسجود وكسر الخبز وكلمة الله التى تتحدث عن ضبط النفس والقيامة.

وقال بولس:

طوبى لأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله.

طوبى للذين يحفظون جسدهم طاهراً لأنهم يصبحون هيكل الله.

طوبى للذين يظلون طاهرين لأن الله سوف يكلمهم.

طوبى للذين يودعون هذا العالم لأنهم يرضون الله.

طوبى للذين عندهم زوجات، وكأنهم ليسوا متزوجين لأنهم يرثون الله.

طوبى للذين عندهم خوف الله، لأنهم سوف يصبحون ملائكة الله.

طوبى لأولئك الذين يرتعبون عند سماع كلمات الله لأنهم يتعزون.

طوبى للذين يقبلون حكمة يسوع المسيح، لأنهم سوف يدعون أبناء العلى.

---

(٢) Text:Acta Apostolorum Apocryha, ed. R lipsius and M. Bonnet (Leipizgs,18911),238.

طوبى للذين حفظوا معموديتهم، لأنهم سيجدون راحتهم مع الآب والابن.

طوبى لأولئك الذين اتصفوا بالحكمة المعطاة من يسوع المسيح لأنهم يستنيرون.

طوبى للذين من أجل محبة الله، قد تركوا طريق العالم لأنهم يدينون ملائكة وسينالون البركة على يمين الآب.

طوبى للذين يرحمون، لأنهم يرحمون ولن ينالوا دينونة قاسية.

طوبى لأجساد العذارى لأنهن سوف يرضين الله، ولن يفقدوا مكافأة طهارتهن.

لأن كلمة الآب سوف يكون سبب خلاص لهن في يوم ابنه، وسوف يسترحن إلى أبد الآبدين.

٧. وبينما كان بولس يتكلم بهذه الأمور في وسط الجمع الذي في بيت (أنسيفورس) كانت هناك عذراء اسمها (تكلا) وأمها اسمها (تاوكليا Theocleia) وكان يخطب ودها رجل اسمه (تاميرس Thamyris وقد كانت تجلس بجوار شباك لمنزل مجاور، وكانت تستمع ليلاً ونهاراً لرسالة بولس عن العفة، ولم تكن تغادر الشباك وفرحت فرحاً عظيماً إذ اقتيدت إلى الإيمان، ومع ذلك فعندما رأت كثيراً من النساء والعذارى يذهبن لبولس، رغبت رغبة عارمة أن تكون مستحقة لأن تقف أمام بولس، لأنها لم تكن قد رأت بعد هيئته الجسدية ولكنها سمعت صوته فقط.

٨. ولأنها لم تترك الشبّاك فقد استدعت أمها (تاميرس)، فجاءت مبتهجة كما لو كان قد أصبح زوجاً لها، وقال (تاميرس) (لتاوكليا) أين (تكلا) زوجتي؟ فقالت (تاوكليا) عندي خبر أقوله لك يا (تاميرس)، إن (تكلا) لها ثلاثة أيام وثلاث ليال وهي لم تترك الشبّاك ولا تأكل أو تشرب، ولكنها تحملق كما لو كانت تنظر شيئاً مبهجاً، وهي قد كرست نفسها لذلك الشخص الغريب الذي يقوم بإعطاء تعاليم عديدة ومضلة، لدرجة إني مندهشة كيف حدث مثل هذا التغيير الكبير لهذه العذراء البسيطة.

٩. «ياتاميرس، إن هذا الرجل قد أثار مدينة أيقونية وخطيبتك أيضاً لأن كل النساء والشبان يذهبون إليه ليتعلموا منه، وهو يقول إنك يجب أن تخشى الإله الواحد، وأن تعيش حياة الطهارة، وابنتي أيضاً كالعنكبوت الملتصق بالشبّاك، وقد قيدتها كلماته وتمتلكها رغبة جديدة وعاطفة مقدسة، وهي مغلوبة على أمرها، ولكنك يجب أن تذهب وتكلمها لأنها مخطوبة لك».

١٠. فذهب إليها تاميرس مدفوعاً بحبها وهو متخوف من إزعاجها وقال: «يا تكلا يا خطيبتي. لماذا تجلسين هكذا؟ وأي نوع من العاطفة قد أدارت رأسك هكذا؟ التفت إليّ أنا تاميرس ولتخجلي من نفسك». وقالت لها أمها أيضاً نفس الشيء:«ياطفلتي لماذا تجلسين

هكذا منكسة الرأس لا تنبسين ببنت شفة وتتصرفين كالمجنونة؟». وبكوا بشدة، لأن (تاميرس) فقد زوجته، (وتاوكليا) ابنتها، والخادمات فقدن سيدتهن، وهكذا كان هناك نوح وعويل كثير فى البيت. وبينما كان يحدث هذا، لم تلتفت (تكلا). ولكنها التفتت بكل جوارحها لرسالة بولس.

ويكتشف (تاميرس) بعض الأعداء (لبولس) ويتآمر معهم لإحضار (بولس) أمام الحاكم. وعندما سمع (بولس):

١٧. رفع صوته قائلاً: «إذا كان لابد من التحقيق معى بسبب تعليمى، فاسمع أيها الوالى. إن الإله الحى الإله المنتقم الإله الغيور، الإله الذى لا يحتاج لشيء سوى خلاص البشر، قد أرسلنى لأبعدهم عن الفساد والأدران وكل المتع الرخيصة والموت حتى لا يخطئوا مرة أخرى، ولهذا السبب فقد أرسل الله ابنه الوحيد الذى أنادى وأبشر به حتي يضع الناس رجاءهم فيه، ذلك الذى عطف وحده على العالم الساقط فى الخطية، حتى لا يكون البشر بعد ذلك تحت حكم الدينونة بل ليكون عندهم الإيمان وخوف الله، ومعرفة جلاله ومحبة الحق. ولذلك فإن كنت أعلم بالأشياء التى أعلنها لى الله، فكيف أكون مخطئاً أيها الوالى؟». وعندما سمع الحاكم بذلك أمر أن يقيد بولس ويُلقى به فى السجن حتى تتاح له الفرصة ليسمعه بانتباه أكثر.

١٨. ولكن فى الليل نزعت (تكلا) أسورتها وأعطتها للحارس، وعندما فتح لها الباب ودخلت السجن، وبعد أن أعطت السجّان مرآة فضية ذهبت لبولس، وجلست عند قدميه وسمعت عن أعمال الله العظيمة. ولم يكن بولس يخشى شيئاً على الإطلاق، بل كان يعيش بحرية ويتكلم بصراحة كاملة، وكان إيمانها يزداد بتقبيل قيوده.

١٩. وقد بحث أهل (تكلا) عنها وكذلك (تاميرس)، وإذ كانوا يبحثون عنها فى الشوارع كشخص ضل الطريق، كشف أحد زملاء الحارس أنها قد خرجت بالليل، وذهبوا للحارس فأخبرهم أنها قد ذهبت للشخص القريب فى السجن، فذهبوا إلى حيث أخبرهم ووجدوها مصممة عليه فى ارتباط وثيق، وبعد أن رحلوا من هناك، أخذوا معهم الجموع وأعلنوا ذلك للحاكم.

فأمر بإحضار (بولس) إلى المنصة، ومع ذلك ذهبت (تكلا) إلى المكان الذى كان يعلّم فيه (بولس) عندما كان يجلس فى السجن، وأمر الحاكم بإحضارها أيضاً إلى المنصة، فذهبت وهى مليئة بالفرح، وعندما أُحضر (بولس) ثانية صاحت الجموع فى غضب جامح «إنه ساحر، فليمت»، ولكن الحاكم استمع بسرور لبولس عن موضوع الأعمال المقدسة التى قام بها المسيح، وبعد أخذ رأى مستشاريه نادى (تكلا) وقال: «لماذا لا تتزوجين (تاميرس) طبقاً لقانون

أيقونية؟». ولكنها كانت تقف صامتة تحملق في بولس. وعندما لم تجب صاحت أمها (تاوكليا) قائلة: «احرقوا المرأة المتمردة على القانون، احرقوها في وسط المسرح لأنها لم ترد أن تصير عروساً، حتى تكون عبرة لكل النساء اللاتي علمهن هذا الرجل!».

٢١. وقد تأثر الحاكم كثيراً، وبعد أن وبخ بولس أخرجه خارج المدينة، ولكنه أمر بإحراق (تكلا)، وقام الحاكم في الحال وذهب إلى المسرح وذهب كل الرعاع لرؤية المنظر المؤلم. ولكن (تكلا) كانت كالحمل في البرية يبحث عن الراعي ففتشت عن بولس، وعندما نظرت للجمهور رأت الرب جالساً هناك كما لو كان بولس، وقالت: «لقد جاء بولس ليشاهدني عالماً أني لا أستطيع تحمل ذلك». وأخذت تنظر إليه متعلقة به ولكنه صعد إلى السموات.

٢٢. وأحضر الأولاد والعذارى الخشب والقش لكي يحرقوا (تكلا)، وعندما أُحضرت عارية بكى الحاكم متعجباً من القوة التي كانت فيها، ففرشوا الخشب وأمرها الجلادون أن تتسلق إلى القمة، ورسمت علامة الصليب وصعدت فوق الخشب ثم أشعلوا الخشب، واشتعلت النيران الهائلة، ولكن النار لم تمسها، ولأن الله أظهر رحمته فقد جلب ضوضاء تحت الأرض، والتقت سحابة بظلها من فوق، وهي تلقي بالمطر والبرَد الذي انسكب كالسيول حتى مات كثيرون، وأنطفأت النيران وأنقذت (تكلا).

(تكلا تجد بولس بعد نجاتها الأسطورية، وتطلب منه أن يعمدها ولكنه يخبرها أنها يجب أن تصبر ،وتستمر القصة):

٢٦. وأرسل (بولس) (أنسيفورس) مع كل أهل بيته إلى أيقونية، ثم أخذ (تكلا) وذهب إلى أنطاكية، وعندما دخلوا أنطاكية رأى شخصاً سورياً اسمه (الإسكندر Alexander) رأى (تكلا) وأحبَّها، وتوسل إلى (بولس) محاولاً رشوته بالمال والهدايا، ولكن (بولس) قال: «إني لا أعرف هذه المرأة التي تتحدث عنها، وهي ليست زوجتي»، ولكن بما أن الرجل كان قوياً، فقد احتضنها في الشارع، ومع ذلك فقد رفضت ذلك وبحثت عن بولس، وبكت بمرارة وهي تقول: «لا تغتصب امرأة غريبة، لا تغتصب خادمة الله، إني أول الأيقونيين لأني لم أرد الزواج من (تاميرس)، لقد طُردت من المدينة»، ثم أمسكت بالإسكندر ومزقت عباءته، وأزالت إكليل الزهور من على رأسه وجعلت منه أضحوكة.

٢٧. ولكنه إذ كان يحبها وقد أصابه الخجل مما حدث له، أتى بها إلى الحاكم، وعندما اعترفت بما عملته أمر بإلقائها للوحوش، ولكن النساء وقد أصابهن الحزن صحن أمام المنصة «حكم شرير، حكم جائر».

وطلبت (تكلا) من الحاكم أن تظل عذراء حتى يحين وقت تقديمها للوحوش. وأخذتها ملكة ثرية تسمى (ترايفاينا Tryphaena كانت قد ماتت ابنتها، في رعايتها واعتبرتها عزاءً

لها.

٢٨. وعندما تقدم موكب الوحوش ربطوا (تكلا) إلى لبؤة متوحشة وتبعتها الملكة (ترايفاينا) عن كثب، ولكن عندما أجلسوا (تكلا) فوق اللبؤة أخذت تلعق قدمى (تكلا) وتعجّب كل الجمهور. وكان الاتهام الملصق بها هكذا «مرتكبة لجريمة عدم توقير المقدسات»، ثم صاحت النسوة مع أطفالهن من فوق قائلات: «يا ألله حكم ظالم قد حدث فى هذه المدينة» وبعد الموكب استقبلتها (ترايفاينا) ثانية، لأن ابنتها (فالكونيلا Falconilla) التى كانت قد ماتت قالت لها فى حلم: «يا أمى احتفظى (بتكلا) الفتاة الغريبة العاجزة فى مكانى حتى تصلى لأجلى ولكى أرتقى مكانة الأبرار».

٢٩. وهكذا عندما أخذتها (ترايفاينا) بعد الموكب، أخذت تنتحب لأنها لابد أن تواجه الوحوش فى اليوم التالى ولأنها أحست بعاطفة عميقة تجاهها، كما لو كانت هى ابنتها (فالكونيلا)، وقالت «يا تكلا يا ابنتى الثانية، تعالى وصلى لابنتى حتى تعيش إلى الأبد لأنى رأيت ذلك أثناء النوم». ورفعت (تكلا) صوتها فوراً وقالت «يا إلهى يا ابن الله العلى الذى فى السماء، اعطها كما تريد حتى تعيش ابنتها (فالكونيلا) إلى الأبد». وبعد أن قالت (تكلا) هذه الكلمات، أخذت (ترايفاينا) تبكى لأن امرأة جميلة كهذه تلقى للأسود.

٣٠. وعند بزوغ الفجر جاء (الإسكندر) ليأخذها (لأنه كان مسئولاً عن قتال الأسود) قائلاً«الحاكم جالس والجمهور يصيح فينا، أعطنى المرأة التى سوف تُعطى للأسود حتى† آخذها» ولكن (ترايفاينا) صاحت فيه حتى هرب وقالت «هناك حداد ثان فى بيتى (لفالكونيلا) ولا أحد يأتى لتقديم العون، لا ابنة لأنها ماتت ولا قريب لأنى أرملة، يا إله ابنتى (تكلا)، هلم إلى معونة (تكلا)».

٣١. فأرسل الحاكم الجنود ليحضروا (تكلا) فلم تتركها (ترايفاينا) بل أخذت بيدها واقتادتها قائلة «لقد أوصلت ابنتى (فالكونيلا) إلى القبر، ولكنى أوصلك أنت يا تكلا لمحاربة الأسود» وبكت (تكلا) بمرارة ورفعت صلاتها للرب قائلة:«يا رب يا ألله الذى أثق فيه، والذى وجدت عنده مأوى، والذى خلّصنى من النار، أعط مكافأة (لترايفاينا) التى عطفت على خادمتك وقد حفظتنى طاهرة».

٣٢. وارتفع صوت الزئير من الناس والوحوش ومن النساء الجالسات معاً، واللاتى قالت بعضهن «أحضروا المرأة التى ارتكبت جريمة تدنيس المقدسات» بينما صحن بعضهن الآخر قائلآت: «لتسقط المدينة على هذا الفعل الشنيع! لنسقط كلنا أيها الوالى! إنه منظر مؤلم،

وحكم شرير».

٣٣. ولكن (تكلا) بعد أن أخذت يد (ترايفاينا) جُردت من ملابسها، ولبست منطقة، وألقى بها فى الملعب، ووُضعت الأسود والدببة فى مقابلها فجرت إليها لبؤة مفترسة، ورقدت عند رجليها فصاح جمهور النساء بشدة. وجاء نحوها دب، ولكنّ اللبؤة جرت إلى الدب وواجهته ومزقته إرباً. ثم جاء أسد مدرب على قتال البشر، وكان ملْكاً للإسكندر، جرى نحوها فاشتبكت معه اللبؤة فى قتال متلاحم قتل فيه الاثنان، فبكت النساء أكثر لأن اللبؤة التى ساعدتها قد ماتت.

٣٤. ثم ألقوا بعدد كبير من الوحوش بينما وقفت هى ومدت يديها وصلّت، وعندما أنهت صلاتها اتجهت ورأت حفرة كبيرة مليئة بالماء فقالت:«الآن جاء الوقت المناسب لأعمِّد فيه نفسى»، وألقت بنفسها داخلها وهى تقول «باسم يسوع المسيح أعمِّد نفسى فى اليوم الأخير» فالنساء اللاتى رأين ذلك المنظر والجمهور بكوا قائلين: «لا تلق بنفسك فى الماء» حتى إن الحاكم ذرف الدموع لأن هذا الجمال سوف يكون طعاماً لعجول البحر، وهكذا ألقت بنفسها فى الماء فى اسم يسوع المسيح، ولكن بعد أن رأت عجول البحر ضوء ومیض من النور فإنها طفت ميتة . وكانت حولها سحابة من النار، حتى أن الحيوانات لم تلمسها، ولم تُر هى أيضاً وهى عارية.

٣٥. وصاحت النساء عندما أُلقى بحيوانات أخرى مرعبة، والبعض منهن ألقين بأوراق الزهور، بينما ألقت الأخريات بالناردين وألقت البعض الآخر بالكاسيا (القرفة الصينية) وأخريات بنباتات التوابل حتى كان هناك خليط من الروائح العطرية، وضربت كل الحيوانات حتى وجدت كأنها نائمة ولم تلمسها، ولذلك قال الاسكندر للحاكم «عندى بعض الثيران المتوحشة، فلنربط المرأة المحكوم عليها بقتال الوحوش بهذه الثيران». ومع أن الحاكم كان متردداً، إلا أنه وافق وقال: «افعل ما تريد»، وربطوها بين أرجل الثيران، ووضعوا حديداً ساخناً على أعضائها التناسلية حتى تصبح أكثر شراسةً وتقتلها، ثم قفزت إلى الأمام ولكن النار المشتعلة حولها حرقت الحبال وكانت كأنها لم تقيَّد بشيء.

٣٦. ولكن (ترايفاينا) التى كانت واقفة بجوار الساحة أغمى عليها عند درجات السلم فى الساحة، فقالت خادماتها:«الملكة ترايفانيا ماتت!»، فأوقف الحاكم الإجراءات وخافت كل المدينة. ووقع (الإسكندر) عند قدمى الحاكم وقال:«ارحمنى وارحم المدينة وأطلق سراح المرأة المحكوم عليها بنزال الأسود لئلا تدمَّر المدينة كلها بسببها ، لأنه لو سمع القيصر بهذه الأشياء ربما أهلكنا وأهلك المدينة لأن الملكة (ترايفاينا) قريبته ماتت على درجات السلم فى الساحة».

٣٧.. واستدعى الحاكم (تكلا) من وسط الأسود، وقال لها: «من أنت؟ وماذا بك الذى جعل الوحوش لا تقرب منك؟» فأجابت قائلة: «إنى خادمة للإله الحى، أما الذى بى هو أنى أثق فى ابن الله الذى يسر به، والذى بسببه لم يلمسنى أى أحد من الحيوانات، لأنه هو وحده طريق الخلاص، وأساس الحياة الأبدية، فهو ملجأ للحزانى وبلسم للمجروحين ومأوى لليائسين. وعموماً فأى إنسان لا يؤمن به لا يعيش بل يموت إلى الأبد».

٣٨. وعندما سمع الحاكم هذه الأقوال أمر بإحضار الملابس إليها وقال: «البسى ملابسك» فقالت «إن الذى كسانى وأنا عارية وسط الوحوش سوف يكسونى بالخلاص فى يوم الدينونة»، وأخذت الملابس ولبستها، وفى الحال أصدر الحاكم مرسوماً معلناً «أطلق سراح (تكلا) إليكم، خادمة الله التقية» وصاحت النساء بصوت عال وبفم واحد ممجدات الله قائلات: «الله الذى خلص (تكلا) واحد» حتى أن المدينة كلها اهتزت من صوتهن.

٣٩. وعندما أخبرت (ترايفاينا) بهذه الأخبار السارة قابلت (تكلا) مع الجمهور واحتضنتها وقالت: «الآن أؤمن أن ابنتى تعيش. ادخلى وسوف أسلم لك كل ما أمتلك» ثم دخلت معها (تكلا) وأقامت فى منزلها ثمانية أيام معلّمة إياها كلمة الله، حتى أن معظم الخادمات أيضاً آمنّ وكان فرح عظيم فى البيت.

٤٠. ولكن (تكلا) اشتاقت أن ترى بولس وبحثت عنه وهى ترسل رسلاً فى كل مكان، وقيل لها إنه كان فى (ميرا Myra) وبعد أن أخذت معها الشباب والفتيات، وضعت منطقة حولها وخاطت عباءتها لتصبح ثوباً على غرار ثوب الرجال، ورحلت إلى (ميرا) ووجدت بولس يعظ بكلمة الله، وذهبت إليه. وقد دهش إذ رآها والجمهور الذى كان معها، وهو يتساءل عما إذا كانت قد حدثت لها تجربة أخرى، ولكنها فهمت قصده وقالت له «لقد تلقيت المعمودية يا بولس، لأن الذى عمل معك فى الإنجيل عمل أيضاً معى وعمدنى».

٤١. وأخذها بولس واقتادها لبيت (هرمياس Hermias) وسمع منها كل شىء لدرجة أنه ذهل وكل الذين سمعوا تثبتوا وصلوا لأجل (ترايفاينا) وقالت (تكلا) لبولس «إنى سوف أذهب إلى أيقونية». وقال بولس «اذهبى وعلّمى كلمة الله».

وكثير من الأردية والذهب الذى أرسلته (ترايفاينا)، تركتها (تكلا) مع (بولس) لخدمة الفقراء.

٤٢. ورحلت إلى (أيقونية) ودخلت منزل (أنسيفورس) ووقعت على الأرض حيث كان (بولس) يجلس عندما كان يعلّم بكلمة الله، وبكت قائلة: «يا إلهى وإله هذا المنزل حيث سطع النور علىّ يا يسوع المسيح يا ابن الله معينى فى السجن، ومعينى أمام الحكام ومعينى

فى النار ومعينى وسط الوحوش، أنت هو الله ولك المجد إلى الأبد. آمين».

٤٣. ووجدت (تاميريس) قد مات ولكن أمها كانت ما تزال على قيد الحياة. فاستدعت أمها وقالت لها «يا تاوكليا أمى، هل يمكنك أن تؤمنى أن الرب يعيش فى السموات؟ فإذا رغبت المال فالرب سيعطيه لك بواسطتى. ها أنا ابنتك، إنى هنا أمامك»، وبعد أن شهدت بهذه الأشياء رحلت إلى (سلوقية Seleucia وبعد أن أثارت ذهن الكثيرين بكلمة الله رقدت واستراحت فى الرب.

هناك قصة أخرى خلابة من «أعمال الأبوكريفا» وهى تراجيديا (دروزيانا Drusiana من «**أعمال يوحنا**» ويعتقد العلماء أن هذا الكتاب مصدره الطوائف المسيحية المتنسكة فى آسيا الصغرى، ومع أن أقدم الأدلة الخارجية ترجع بالكتاب إلى القرن الرابع إلا أنه قد يعود لما قبل ذلك. (ودروزيانا) واحدة من العديد من بطلات أعمال الأبوكريفا، والتى حاول زوجها أو خطيبها أن يمنعها عن الانخراط فى سلك البتولية. ومن إحدى مقتطفات قصة (دروزيانا) غير تلك المطبوعة هنا، تكشف أن زوج (دروزيانا) قد أغلق عليها القبر لمدة ١٤ يوماً عندما رفضت الانصياع لرغباته الجنسية، وأخيراً اعتنق هو المسيحية على نمط حياة التبتل أيضاً. ولكن حظ (دروزيانا) العاثر أوقعها فى طريق شخص يدعى (كاليماكوس Chalhimachus الذى هام بها حباً. وقصة حبه لها وموتها ومحاولته اغتصاب جسدها بعد موتها، وقيامة كل من له صلة بالقصة يجعلها مادة محببة للقراءة، ومما هو جدير بالملاحظة أيضاً إقامة دروزيانا لرجل ميت. ولا نرى فى العهد الجديد نفسه فى أى موضع عن امرأة كانت سبباً فى حدوث معجزة كهذه.

جاء يوحنا إلى أفسس لزيارة ثانية وهو يقيم فى منزل (اندرونيكس)[٣].

٦٣. ولأنه كان هناك فرح عظيم وحب جم يجمع ما بين الإخوة، فهناك وُجد رجل معين، رسول للشيطان، وقع فى حب (دروزيانا) على الرغم من أنه رأى وعرف أنها كانت زوجة (أندرونيكوس)، وقال له كثيرون: «يستحيل عليك أن تأخذ هذه المرأة، لأنها انفصلت عن زوجها لمدة طويلة بسبب خوفها من الله. فهل أنت الوحيد الذى لا تعلم أن أدرونيكس والذى لم يكن قبلاً الرجل الذى يخاف الله كما هو الآن، قد أغلق عليها فى مقبرة قائلاً «يجب أن تكونى زوجة لى كما كنت من قبل وإلا سوف تموتين»؟ وفضلت الموت على أن تشترك فى تلك الأدران، وهكذا لم تقبل أن تعيش مع سيدها وزوجها بسبب التقوى بل أنها أقنعته بأن ينظر

(٣) Acta Apostolorum Apocrypha, ed.R. Lipsius and M. Bornet (Leipzig, 1898, 2,I,181.

إلى الموضوع نفس نظرتها له، فهل ستوافق عليك أنت يا من تريد أن تزنى معها؟ اترك هذا الجنون الذى لا يدع لك فرصة لالتقاط الأنفاس، واهجر هذا العمل الذى لا يمكنك أن تنفذه أو أن تصل فيه إلى قرار».

٦٤. وقال له أصدقاؤه المقربون هذه الأشياء، ولكنهم لم يقنعوه، وقد تورط فى سلوك معيب فأرسل لها رسائل، وعندما علمت بإهانته لها على هذا النحو قضت وقتها فى الكسل، وبعد مضى يومين، انتابت (دروزيانا) الحمى ولزمت الفراش بسبب الاكتئاب قائلة: «أليس من الأفضل أن أعود إلى موطنى، لأنى قد أصبحت حجر عثرة لرجل بعيد عن التقوى! لأنه لو كان ممتلئاً بكلمة الله ما كان قد وصل لمثل هذه الحالة من الجنون، ولكن بما أنى يا رب قد أصبحت مسئولة إلى حد ما عن إيقاع الأذى بهذه النفس الجاهلة فانقذنى من ارتباطى بالجسد وانقلنى إليك سريعاً». وبينما كان يوحنا هناك، وكان يجهل الموضوع تماماً رحلت دروزيانا عن عالمنا غير سعيدة على الإطلاق بل حزينة بسبب تحطم ذلك الرجل.

٦٥. ولكن (اندرونيكس) انتابه حزن دفين، وانتحب وصرخ بصوت عال حتى أن يوحنا أوقفه عند حده مرات كثيرة وقال له: «لقد انتقلت (دروزيانا) إلى رجاء أفضل من هذه الحياة الدنسة». فرد عليه (أندرونيكس) قائلاً: «إنى مقتنع بهذا تماماً يا يوحنا ولا أشعر بأى شك إطلاقاً فى ثقتى بالله، ولكنى متأكد تماماً أنها تركت هذه الحياة فى حالة من الطهر والنقاء».

٦٦. وعندما دفنت أخذ (يوحنا) (اندرونيكس) وما أن عرف السبب حتى حزن أكثر من (أندرونيكس)، ولكنه ظل صامتاً بعد أن أدرك تلك الإساءة الحاقدة لعدو الخير[٤] وجلس لفترة وجيزة، بعدأن تجمع الإخوة ليسمعوا ما سوف يقوله بخصوص هذه المرأة الراحلة، (يوحنا يتكلم عن ضرورة المثابرة فى البر حتى النهاية).

٧. وبينما كان يوحنا ما يزال يتحدث بالتفصيل للإخوة قائلاً: «إنهم يجب أن يحتقروا الأشياء الوقتية من أجل الأبدية»، فالرجل الذى كان قد وقع فى حب (دروزيانا) انتابته حالة هياج شديدة، وبقوة الشيطان الذى يتقمص أشكالاً عديدة قام برشوة وكيل (أندرونيكس)، وهو رجل جشع، بمبلغ كبير من المال. ففتح الوكيل مقبرة (دروزيانا)، وكان على استعداد للسماح له أن يجرى الفعل القبيح على الجثة، ولأنه لم يفلح فى أداء هذا الفعل وهى على قيد الحياة، كان مصراً على فعله بالجسد بعد موته قائلاً: «مادمت لم توافقى على الاتصال بك وأنت حية فسوف أهين جسدك بعد موتك». وبعد التفكير فى هذا الأمر بعد أن أعد نفسه لهذا الفعل القبيح عن طريق هذا الوكيل الهمجى اندفع نحو المقبرة معه، وعندما فتحا الباب ابتدآ فى

(٤) الشيطان.

تعرية الكفن وإزالته من فوق الجثة قائلين: «ما الذى استفدته أيتها البائسة (دروزيانا)؟ ألم يكن من الأفضل عمل ذلك وأنت حية لأنه ربما لم يكن يحزنك هذا الفعل بالمرة عندئذ لو فعلته بإرادتك؟».

٧١. وبينما تكلم هذان الرجلان بمثل هذا الكلام، حتى لم يبق فوق جسدها سوى القميص التحتى، ظهر منظر غريب لا يستحق أن يشاهده سوى من يقوم بعمل من هذا النوع، فقد ظهرت حية من مكان ما، وعضت الوكيل عضة واحدة أودت بحياته، ولكنها لم تضرب ذلك الشاب. كانت تصدر فحيحاً مزعجاً وكورت نفسها حول قدميه وعندما وقع زحفت فوقه وجلست عليه.

٧٢. وفى اليوم التالى جاء يوحنا مع (أندرونيكس) والإخوة إلى المقبرة فى الفجر، لأنه كان اليوم الثالث لوفاة (دروزيانا) حتى يكسروا الخبز هناك. وعندما هموا بدخول المقبرة لم يجدوا المفاتيح، فقال يوحنا (لأندرونيكس) «يبدو أن المفاتيح فقدت لأن (دروزيانا) ليست فى المقبرة. دعنا نذهب على أية حال لئلا تكون مهملاً، ثم إن الأبواب سوف تفتح من تلقاء نفسها لأن الرب قد رتب لنا أشياء أخرى كثيرة».

٧٣. وعندما أتينا إلى المكان فتحت الأبواب بناء على أوامر معلمنا، وعند قبر (دروزيانا) رأينا شاباً جميلاً يبتسم. وعندما رآه يوحنا صاح وقال: «وأنت أيضاً وصلت هنا أولاً قبلنا أيها الشاب الجميل؟ لماذا؟» ثم سمع صوتاً يقول له «لأجل خاطر (دروزيانا) التى توشك أن تقيمها من الأموات- لأنى قد وجدتها على وشك أن تهان- ولأجل خاطر الشخص الراقد بجوارها»، وعندما قال هذه العبارات ليوحنا، صعد الرجل الجميل إلى السموات، ونحن نرقبه جميعاً، واتجه بصر يوحنا إلى الجانب الآخر من المقبرة، ورأى شاباً، أفسسياً شهيراً يدعى (كاليماكوس)، ورأى ثعباناً ضخماً ينام فوقه ووكيل (اندرونيكس) (فورتوناتوس Fortuna-tus) ميتاً. وعندما رآهما معاً وقف متحيراً وقال للإخوة «ماذا يعنى مثل هذا المنظر؟ أو لماذا لم يظهر لى الرب ما حدث هنا حيث أنه لم يتركنى أبداً؟».

٧٤. وإذ رأى (أندرونيكس) هذين الرجلين الميتين نهض وذهب إلى قبر (دروزيانا)، وعندما رآها بالقميص الداخلى فقط قال ليوحنا: «إنى أعلم ما حدث هنا يا يوحنا يا خادم الله المبارك، فإن (كاليماكوس) هذا كان يحب أختى[٥]. ولأنه لم يفلح معها بالرغم من محاولاته العديدة، فقد قام برشوة هذا الوكيل الملعون بمبلغ كبير من المال، وربما لأنه كان يأمل كما نرى الآن أن يتمم هذه الخطة بواسطته، بل أن (كاليماكوس) قد صرح بذلك لأناس عديدين قائلاً «إذا رفضت أية علاقات جنسية معى وهى على قيد الحياة فإنى سوف أنتهك حرمتها

(٥) كان الزوجان المسيحيان اللذان يعيشان التبتل يسميان أحدهما الآخر «أخ» و«أخت».

وهى ميتة»، ولربما يا معلم عرف ذلك الشاب الجميل بهذا ولم يوافق على انتهاك جثتها، ولهذا السبب فإن هذين الرجلين اللذين تجاسرا على فعل ذلك ماتا. ألم يكن الصوت الذى قال لك «قومى يا دروزيانا» يتنبأ بذلك؟ لأنها رحلت عن هذه الحياة فى حزن. ولكنى مقتنع عن طريق الرجل الذى قال ذلك، إن هذا الرجل كان ضمن الرجال الذين ضلوا الطريق، وحقاً لقد أمرت أن تقيمها، لأنه فيما يخص الرجل الآخر إنى أعلم أنه جدير بالخلاص، ولكنى أتوسل إليك «أقم أولاً (كاليماكوس) وهو سوف يعترف بما حدث».

٧٥. ولذا نظر يوحنا إلى الحية وقال للحية السامة «اتركى ذلك الرجل الذى سوف يصبح خادماً ليسوع المسيح» ووقف وصلى هكذا: «يا الله الذى يستحق اسمه الحمد منا. يا الله الذى يستأنس كل قوة ضارة بالصحة، يا الله الذى ينفذ إرادته، والذى يسمعنا دائماً، فالآن أيضاً لتعلن قدرتك فى هذا الشاب، ولتظهر هذه القوة بقيامته»، وقام الشاب فى الحال وظل صامتاً لمدة ساعة كاملة.

٧٦. ولكن عندما عاد إلى وعيه سأله يوحنا عن سبب دخوله للقبر، وعندما علم منه ما قاله (أندرونيكس) له أنه بالحق كان يحب دروزيانا. فسأله يوحنا ثانية إذا كان قد نفذ خطته المقززة بانتهاك حرمة جسد بهذا النبل والشرف، فأجابه بالقول: «كيف كان يمكن أن أنفذ هذه الخطة؟ فهذا الحيوان المرعب قد ضرب (فورتوناتوس) ضربة وحيدة أمام عينى، وأراد إلحاق الجنون الدائم بى بعد أن توقف تأثير الجنون الذى انتابنى بعد الضربة السريعة الأولى، فقد أخافنى وجعلنى فى هذه الحالة التى رأيتنى فيها قبل إقامتى، وسوف أقول لك شيئاً آخر، أكثر دهشة، والذى هز كيانى أكثر، وكان على وشك أن يحولنى إلى جثة. عندما كانت نفسى تتوق لتنفيذ الخطة، وكان مرض الخطية اللعين يتملكنى، وعندما كنت قد انتزعت الكفن الذى كان يحيط بها، ثم خرجت من القبر ووضعته فى المكان الذى رأيته فيه، رجعت ثانية لأزاول فعلتى المشئومة، ورأيت شاباً جميلاً يغطيها بعباءته. وكان يسطع نور من عينيه فيقع على عينيها، وتكلم أيضاً معى وقال: «يا كاليماكوس مت حتى يمكنك أن تعيش»، من كان ذلك الشاب؟ فأنا لا أعلم يا خادم الله، ولكن بظهورك هنا فأنا أعلم أنه كان ملاك الله، إنى أعلم ذلك جيداً، وأعلم بالحق أنك تنادى بالإله الحق، إنى موقن بذلك ولكنى أناشدك لئلا تتوانى عن تحريرى من تلك الحالة البائسة والجريمة النكراء، وتقدمنى، كرجل انخدع بمكيدة خبيثة إلى الله، ولذا أحتاج لمعونتك، وأقبّل قدميك، أريد أن أصبح رجلاً من بين أولئك الذين يضعون رجاءهم فى المسيح، حتى يكون الصوت الذى نطق بالكلمات التالية صادقاً «مت حتى تحيا»، وقد تمم الصوت عمله لأن ذلك الرجل العديم الإيمان الشرير الفوضوى قد مات وأقمتنى أنت لكى أصير مؤمناً خائفاً لله عارفاً الحق الذى أرجو أن تعلنه لى».

٧٧. وقال يوحنا بسرور عظيم متأملاً مقدار عظمة خلاص البشر: «يارب يسوع المسيح، إنى لا أعرف مقدار قوتك، وإنى منبهر بعظمة رحمتك، وأمانتك التى بلا حدود، أيتها العظمة التى لبست ثوب العبودية، أيتها الحرية التى لا يُعبر عنها، والتى لبست ثوب العبودية لأجلنا، أيها المجد الذى لا يُدرك الذى صرت ملكاً لنا، لقد حفظت الجسد الميت من أن ينتهك، أنت فادى للرجل الذى خضب نفسه بدماء البشر، أنت أدبت وعاقبت من كان مزمعاً أن يدنس الأجساد الفانية، أيها الآب لقد أظهرت شفقة وعطفاً على إنسان متهاون. نحن نمجدك ونحمدك ونكرمك، ونقدم الشكر على عظيم صلاحك وأناتك يا يسوع القدوس لأنك أنت وحدك الله وليس آخر، القوة التى بلا شر الآن وكل أوان آمين».

٧٨. وعندما قال ذلك، أخذ يوحنا (كاليماكوس) وقبّله قائلاً«المجد لإلهنا، يا ابنى، الذى أشفق عليك وجعلنى مستحقاً لتمجيد عظمته وجعلك أنت أيضاً مستحقاً للسير فى طريقه لترك جنونك وخمرك والذى قد دعاك لراحته ومكافأة الحياة».

٧٩. ولكن (أندرونيكس) بعد أن رأى (كاليماكوس) الميت يقام من الأموات، توسل إلى يوحنا مع الإخوة لإقامة (دروزيانا) أيضاً قائلاً« يا يوحنا دع (دروزيانا) تقوم وتفرح لمدة قصيرة لأنها ماتت حزينة من أجل (كاليماكوس) متخيلة أنها أصبحت حجر عثرة له، وعندما يريد الرب فسوف يأخذها إليه». وبلا تردد ذهب يوحنا إلى قبرها وأخذ بيدها وقال:«أدعوك أيها الإله الوحيد العظيم بلاحدود والذى لا يعبر عنه، والذى لا يدرك والذى تخضع له كل قوة الرياسات، والذى يخضع له كل سلطان والذى يسقط أمامه كل ادعاء زائف ويصمت أمامه الذى ترتعب منه الشياطين عندما تسمعه، وكل خليقة عندما تراه تلزم حدودها ليتمجد اسمك بواسطتنا وأقم دروزيانا حتى يثبت (كاليماكوس) أكثر فى ذلك الشخص الذى يعطى للبشر غير المستطاع ولكنه مستطاع بالنسبة لك فقط، الخلاص والقيامة، وحتى تأتى (دروزيانا) الآن فى سلام حيث أن الشاب قد تجدد، فلتأت الآن دون عوائق إذ تأتى إليك الآن».

٨٠. وبعد أن قال هذه الأشياء، قال يوحنا لدروزيانا: «دروزيانا قومى» فقامت وتركت القبر، وعندما رأت نفسها فى قميص داخلى فقط، تحيرت فى الأمر، وعندما علمت كل شىء بالتحديد من (أندرونيكس) بينما كان يوحنا ما يزال راقداً ومنحنياً، ومجد (كاليماكوس) الله بصوت ودموع، ابتهجت هى أيضاً ومجدته كذلك (وكان القرار بعد ذلك إقامة (فورتوناتوس) وقد أوكل هذا العمل (لدروزيانا) التى تصلى لله لكى يقيم (فورتوناتوس).

٨٣. وبعد أن وضعت يدها على رأس الرجل الميت قالت «قم يا فورتوناتوس باسم ربنا يسوع المسيح» وقام (فورتوناتوس)، وعندما رأى يوحنا فى المقبرة (وأندرونيكس) (ودروزيانا) بعد أن أقيمت من الأموات (وكاليماكوس) وهو واحد من المؤمنين وبقية الإخوة

يمجدون الله، قال: إلى أى مدى وصل سلطان هؤلاء الناس؟ لم أكن أريد أن أقوم بل كنت أفضل الموت لكيلا أراهم». وبعد أن قال هذه الأشياء هرب وترك القبر.

٨٤. وعندما رأى يوحنا روح (فورتوناتوس) التى لم تتغير قال «أيتها الطبيعة التى لم تتغيرى للأحسن! يا ينبوع النفس الممتلئ قذارة! يا جوهر الفساد، المليء بالظلام! أيها الموت الذى يتراقص فى أتباعك أيتها الشجرة غير المثمرة المليئة بالنار! أيها الخشب المليء بالفحم بدلاً من الثمار ! أيتها المادة القاطنة مع جنون المادة وجارة عدم الإيمان! لقد أثبت من أنت وأنت مدانة إلى الأبد مع كل أبنائك! وأنت غير قادرة على معرفة كيف تمجدين ما هو أفضل بسبب عدم قدرتك على ذلك. فبحسب طريقك هكذا يكون أصلك وطبيعتك، ابتعد عن أولئك الذين وضعوا رجاءهم فى الرب، ابتعد عن أفكارهم وعقولهم وأنفسهم وأجسادهم وأعمالهم وحياتهم وحديثهم ووظائفهم وممارساتهم ومن نصائحهم ومن قيامتهم، ومن عبيرهم الذى تريد مشاركتهم فيه، ومن صيامهم وصلاتهم واغتسالهم المقدس وقربانهم المقدس، ومن غذاء أجسادهم وشرابهم وثيابهم، ومن وليمة حبهم ومن تعبهم ومن انضباطهم وبرهم، ومن كل تلك الأشياء. أيها الشيطان الدنس وعدو الله، فإن يسوع المسيح، إلهنا وديّان الذين على شاكلتك الذين يحذون حذوك ويسيرون دربك سوف يُقضى عليك».

٨٥. وعندما قال هذه الأشياء صلّى يوحنا وأخذ الخبز وحمله إلى القبر ليكسره وقال «نحن نمجد اسمك الذى جددنا من الخطأ والخداع الذى لا يرحم، نحن نمجدك الذى أظهرت لنا ما رأيناه بعيوننا، نحن نشهد لصلاحك الذى يظهر فى أمور عديدة، نحن نحمد اسمك الصالح يا رب يا من تدين الذين يقفون مدانين، نحن نشكرك يا رب يسوع المسيح على نعمتك غير المتغيرة. ونحن نشكرك لأنك تحب طبيعتنا، والتى بها خلصنا، ونحن نشكرك لأنك أعطيتنا ذلك الإيمان غير المتزعزع. إنك أنت وحدك الله الآن وإلى الأبد. وكعبيد لك نشكرك نحن الذين جمعتنا وأحضرتنا لغرض أيها القدوس».

وبعد أن صلى يوحنا ومجّد الله، خرج من المقبرة وشارك الإخوة فى القربان المقدس، وعندما أتى إلى منزل (أندرونيكس) قال للإخوة «أيها الإخوة إن روحاً فىّ قد أنبأتنى أن (فورتوناتوس) على وشك أن يموت وأصبح لونه مسوداً من لدغة الحية، ولكن فليعلمنا واحد إن كان الأمر هكذا بسرعة». وجرى واحد من الشبان ووجده ميتاً، ووجد اللون الأسود ينتشر فى كل جسده حتى وصل قلبه، وجاء وأخبر يوحنا أنه قد مات منذ ثلاث ساعات، وقال يوحنا «أيها الشيطان لقد حصلت على حقك كاملاً فى ابنك».

وبينما تم تصوير قصص نساء أعمال الأبوكريفا على أنهن تعرضن للمخاطر بسبب تحولهن إلى البتولية المسيحية، فالنساء المسيحيات تعرضن للمخاطر بسبب الاضطهادات الرومانية،

إن الاضطهاد الكبير الذى شمل الإمبراطورية كلها لم يبدأ حتى ٢٥٠م، ولكن القصص تروى منذ ١١٢م وتبين أن المسيحيين كانوا يضطهدون ببساطة لمجرد أنهم يحملون هذا الاسم، ومع أن هناك كثيراً من الجدل العلمى حول سبب الاضطهادات التى تمت قبل ٢٥٠م وتحت أى مسمى من المسميات، فإننا يمكن أن نستنتج أن رفض المسيحيين تقديم ذبائح لآلهة الوثن وتأففهم من تملق الإمبراطور جعل الرومان يتشككون فى ولاء المسيحيين السياسى، هذا بالإضافة إلى شكهم فى طقوس المسيحيين كالعشاء الربانى، وضيقهم من رفض المسيحيين التوافق مع أعراف ومباهج العصر، مما ساهم فى حدة هذا الاضطهاد، وليس الرجال المسيحيين فقط هم الذين أصبحوا شهداء، بل النساء أيضاً شعرن أنهن مدعوات للمخاطرة بالموت من أن ينكرن إيمانهن عند التعرض لاختبار حقيقى.

ومن أشهر روايات الشهيدات من الإناث **«استشهاد بريتوا فيلستاس»** تقول هذه الرواية إن فيبيابربتوا Vibia Perpetua بطلتها كانت من عائلة مشهورة فى (ثابيربو Thuburbo بشمال أفريقيا. وقد أستشهدت هى ومسيحيون آخرون بما فيهم عبدها (فيلستيا Felicitas ربما فى سنة ٢٠٣م، وكتاب (الاستشهاد) يظهر حماسة كبيرة للنبوة والإعلانات والرؤى والتأكيدات المثالية لطائفة «المونتانيين» Montanists فى كنيسة شمال أفريقيا خلال تلك الفترة، وهى طائفة كانت تنبر على نشاط الروح القدس الدائم فى وسطها. فى مقدمة الكتاب يبين محرر القصة أن إعلانات الروح هذه كانت فى اتفاق مع تنبؤات الكتاب المقدس بخصوص الأحداث الخارجية التى سوف تحدث قبل مجىء ملكوت الله. وإذا كانت (بربتوا) نفسها قد كتبت القسم الأول من «الاستشهاد» والذى يتحدث عن اختباراتها الأولى ورؤاها كما يقول النص، فإن هذه القصة تعد من أقدم أجزاء الأدب المسيحى الذى كتبته امرأة. وربما يوصى بأن النساء كن يتمتعن بحرية أكبر فى النهضات النبوية الأولى مما تمتعن به بعد ذلك. وفى القرن الثالث أو الرابع أنشئت كنيسة فى قرطاج إحياءً لذكرى (بربيتوا)، وقد أدرجت الكنيسة الرومانية يوم استشهادها فى تقويمها[٦].

٢. تم القبض على المتنصرين الجدد قبل المعمودية أمثال (ريفوكاتوس Revocatus وزميله العبد (فيلستاس) (وسيكوندولوس Secundulas ، ومن بينهم أيضاً كانت (فيبا بربتوا) سليلة الشرف والتى نشأت كما يليق بامرأة حرة، وكانت متزوجة حديثاً، وكان لها أبٌ وأمٌ وأخان، أحدهما كان بالمثل متنصراً حديثاً وكان لها ابن رضيع، وكان عمرها وقتئذ ٢٢سنة، ومن هنا

(٦) Text: The Acts Of The Christian Martyrs, ed.H. Musurillo (Oxford, 1972),108.

تسرد سلسلة أحداث استشهادها، وهى بالضبط كما تركتها بخط يدها، وهى تحوى أفكارها الخاصة.

٣. عندما بدأت تدوين قصتها بالقول: كنا ما نزال نعمل مع موظفى الإمبراطورية، وأراد والدى أن يحطم قرارى بكلماته، وأصر على محاولة إبعادى عن هذا الطريق بدافع حبه لى، فقلت له «يا والدى هل ترى هذه الزهرية التى هناك على سبيل المثال أو هذا الإبريق؟» فقال لى: «أراه» وقلت له «والآن هل يمكن أن تسميه بأى اسم آخر يختلف عن مسماه؟» فأجاب بالقول «كلا» فقلت له «هكذا أنا لا يمكن أن تسمينى بأى اسم آخر خلاف كلمة مسيحية»، فثار والدى ثورة عارمة عند سماعه هذا الاسم، واندفع نحوى كما لو كان يريد أن يقتلع عينى، ولكن بعد أن وصلت ثورته إلى هذا الحد مضى وهو يتمتم بكلمات شريرة تنم عن الوحشية. ثم بعد أيام قليلة شكرت الرب لأنى تحررت من والدى، وشعرت بالارتياح لغيابه، وفى هذه المدة الوجيزة عُمدت وأوحى إلىّ الروح ألا أبحث عن شيء آخر بعد الماء سوى تحمل المتاعب الجسدية. وبعد أيام قليلة أخذنا إلى السجن، وقد ارتعبت لأنى لم اختبر من قبل الوجود فى مكان مظلم كهذا. ياله من وقت قاس! وبسبب الرعاع كانت درجة الحرارة مرعبة، بالإضافة إلى ابتزاز الجنود، وأخيراً تم تعذيبى وازداد قلقى على طفلى الرضيع.

ثم بعد ذلك قدم (ترتيوس Tertius و(بومبونيوس Pomponius الشماسان المباركان اللذان كانا يقومان بخدمتنا، رشوة حتى يمكن إرسالنا لمكان أفضل فى السجن لبضع ساعات حتى نجد متنفساً لنا، ثم خرجنا من السجن وكان كل واحد منا حراً فيما يفعل، فقمت بالعناية بطفلى الرضيع، والذى انتابه الضعف بسبب نقص الطعام، وفى أثناء قلقى عليه تحدثت مع أمى وكنت أواسى أخى وقد عهدت بالطفل إليهما، وهكذا كنت أضعف لأنى رأيتهما مكتئبين بسببى، وهكذا كان القلق يتملكنى لعدة أيام، وبعد ذلك استطعت الحصول على ترخيص بإقامة رضيعى معى فى السجن، وبعدها أصبحت فى حالة جيدة، وقد تحررت من الحزن والقلق على طفلى، وفجأة أصبح السجن قصراً بالنسبة لى، ولذلك فضلت أن أكون هناك من أن أكون فى أى مكان آخر.

وبعد ذلك رأت (بربتوا) رؤية بأن أحد الرعاة ذو الشعر الأبيض يستقبلها فى السماء ويعطيها لبناً لتشرب: كانت عادة شرب اللبن بعد المعمودية شائعة فى كنائس شمال أفريقيا فى تلك الفترة.

٥. وبعد أيام قليلة سرت شائعة بأنه سوف تتاح لنا فرصة لسماع أقوالنا. ثم حضر أيضاً

والدى من المدينة منهك القوى، وقد جاءني ليثنينى عن عزمى قائلاً« يا ابنتى ارحمى كبر سنى، ارحمى والدك إذا كنت مستحقاً أن أدعى والدك وإذا كنت بهاتين اليدين حملتك فى سنواتك الأولى، وإذا كنت قد فضّلتك على كل إخوتك: لا تسمحى لى بأن يوبخنى الناس، فكرى فى إخوتك وأمك وخالتك وابنك الذى لن يعيش من بعدك، تخلى عن هدفك الذى تسعين إليه لئلا تقضى علينا جميعاً، لأننا لن نستطيع أن نتكلم بحرية لو حدث لك شيء».

وكان والدى يتحدث بهذه الطريقة بسبب محبته لى، وكان يقبّل يدىّ ويلقى بنفسه على قدمىّ ويبكى،والآن كان لا يناديني بلقب «ابنتى» بل «يا سيدة»، وقد حزنت لأجل خاطر والدى لأنه الوحيد من بين كل أقاربى الذى سوف يحزن لمعاناتى. وكنت أواسيه قائلة «ما يريده الله سوف يحدث عند قفص الاتهام هذا لأنى أعلم أننا لا نعتمد على قوتنا الذاتية ولكننا بين يدى الله»، وبعد أن تملكه الحزن تركنى ومضى.

٦. يوماً ما إذ كنا نتناول الإفطار، دفعونا للتقدم لسماع أقوالنا، وأتينا للساحة العامة، وفى الحال سرت الشائعة فى الميدان، وتجمع عدد كبير من الناس، وأُجلسنا فى قفص الاتهام، وقد اعترف الآخرون عند استجوابهم ثم جاء علىّ الدور، وظهر والدى مع ابنى وجذبنى إلى أسفل السلم قائلاً «قومى بواجب العبادة للإمبراطور.ارحمى *طفلك*»، وقال النائب (هيلاريانوس Hilarianus –الذى كان قد تسلم السلطة القضائية وقتئذ بدلاً من القنصل الذى توفى (مينوسيوس تيمينيانوس Timinianus- «ارحمى شعر والدك الأبيض وارحمى طفلك الرضيع، قدمى الذبيحة للإمبراطور» فأجبته قائلة «لن أفعل هذا» فسألنى (هيلاريانوس) «هل أنت مسيحية؟» فأجبته «أنا مسيحية»، وعندما استمر والدى فى محاولته لإثنائى عن عزمى أمر (هيلاريانوس) بإلقائه أرضاً وضربه بعصا. وما حل بوالدى من مصيبة كان مؤلماً لى كما لو كنت أنا الذى ضُربت، وهكذا تألمت لأجل كبر سنه، ثم نطق (هيلاريانوس) بالحكم علينا جميعاً، وأمر بإلقائنا للوحوش ورجعنا مسرورين إلى السجن، ولأن طفلى كان قد اعتاد على الرضاعة من صدرى والإقامة معى فى السجن، فقد أرسلت الشماس (بومبونيوس) إلى أبى أطلب منه الطفل، ولكن والدى رفض إعطاؤه لى، وكما أراد الله فلم يكن الطفل بحاجة للرضاعة من صدرى أكثر من ذلك، ولم أعانى من التهاب ثديى، ولذا فلم يعذبنى القلق على طفلى ولا الألم فى ثديى.

رأت (بربيتوا) رؤيتين أخريتين إحداهما لأخيها (دينوكراتيس Dinocrates الذى مات بالسرطان فى سن السابعة، والثانية أنه قد شفى وتحرر من الألم، وقد زارها والدها مرة أخرى.

١٠. وفى اليوم السابق لتقديمنا للوحوش، رأيت هذا فى رؤيا: جاء الشماس (بومبونيوس) إلى أبواب السجن وكان يطرق عليها بشدة، فذهبت إليه وفتحت له الباب،

وكان يرتدى ملابس بيضاء واسعة وحذاء كثير التعقيد وقال لى: «يا بربيتوا نحن ننتظرك، تعالى» وأمسك بيدى وبدأنا فى السير فى منطقة وعرة ومتعرجة، وأخيراً وصلنا بصعوبة إلى المدرج ونحن نلهث، واقتادنى إلى وسط الحلبة وقال لى: «لا تخافى إنى معك وأعمل معك» ثم رحل ، ثم نظرت إلى الجمهور الكبير المندهش ، ولأنى أعلم أنه كان محكوماً علىّ بالإلقاء إلى الأسود، ذهلت لعدم رؤيتى أى أسود طليقة تجرى تجاهى، واتجه نحوى أحد المصريين فى منظر مقيت ومعه مساعدوه ليحاربونى، وجاء إلىّ شبان على وجوههم بشاشة لمساعدتى، وقد جُردت من ملابسى وجُعلت رجلاً وبدأ مساعدى فى دهنى بالزيت حسب عادة المتسابقين، ورأيت المصرى فى مقابلتى يتدحرج على الرمال، وجاء رجل وكان طويلاً جداً لدرجة أنه كان أطول من قمة المدرج، وكان يرتدى عباءة أرجوانية ليس لها حزام، وحذاءً جميلاً مصنوعاً من الفضة والذهب، وكان يحمل عصاً كمدرب المصارعين وغصناً أخضر كان به تفاحات من الذهب، وطلب من الجميع أن يصمتوا ثم قال: «إذا هزمها هذا المصرى فسوف يقتلها بالسيف، وإذا هزمته فإنها ستأخذ هذا الغصن، ثم انسحب. واقترينا أنا والمصرى من بعضنا وابتدأنا فى إرسال الضربات، فأراد أن يمسك بقدمى، ولكن مع ذلك كنت أركله فى وجهه بحذائى، ثم ارتفعت فى الهواء وبدأت أضربه هكذا كما لو لم أكن واقفة على الأرض، وعندما رأيت أن هناك فترة صمت، تشابكت يدىّ وأصابعى فأمسكت برأسه، ووقع على وجهه ووقفت على رأسه، وبدأ الجمهور يصيح وبدأ مساعدى فى إنشاد المزامير، واقتربت من مدرب المصارعين وتسلمت الغصن، فقبّلنى وقال لى «يا ابنتى ليصحبك السلام» وبدأت السير فى انتصار إلى بوابة الأحياء Porta Sanavivaria [٧] ثم استيقظت، وفهمت أنى سوف لا أحارب الأسود، بل الشيطان، ولكنى علمت أنى سوف أكون منتصرة.

هذا ما فعلته حتى يوم ما قبل الاستعراض العام. ومع ذلك ففيما يختص بما حدث فى الجلسة نفسها، فمن يرغب أن يكتب دعه يفعل ذلك.

١٥ . أما فيما يتعلق (بفيليستاس Felicitas فقد كانت نعمة الله حقاً معها أيضاً بهذه الطريقة، فحيث أن الجنين قد وصل للشهر الثامن (لأنها كانت حاملاً عندما قُبض عليها) وبما أن مشهد المحاكمة كان قريباً فقد حزنت لئلا تؤجل قضيتها بسبب الجنين (لأن عقاب السيدات الحوامل بعقوبة الموت غير شرعى) ولئلا تسيل دماؤها البريئة المقدسة بعد ذلك مع الآخرين، الذين لم يكونوا سوى مجرمين عاديين، ولكن زملاءها الشهداء كانوا فى حالة من الحزن الشديد لئلا يتركوا وراءهم زميلة عزيزة تسير فى نفس الطريق لوحدها. ولذلك سكبوا قلوبهم فى صلاة للرب متحدين فى طلبة واحدة فى اليوم التالى للمحاكمة، وبعد الصلاة مباشرة

(٧) إحدى بوابتين كبيرتين فى المدرج يخرج منها المنتصرون الذين بقوا على قيد الحياة.

انتابتها آلام المخاض، وبسبب الصعوبة الطبيعية للولادة فى الشهر الثامن فقد تألمت فى مخاضها، فقال لها أحد مساعدى السجانين:«إذا كنت تتألمين هكذا الآن فماذا سوف تفعلين عندما يلقى بك للأسود؟هل نسيت ذلك عندما رفضت تقديم الذبيحة؟، فأجابت بالقول «ما أعانيه الآن فهذا أعانيه ولكن فيما بعد سيكون فيَّ من سوف يعانى لأجلى، لأنى أنا أيضاً ستكون معاناتى لأجله» ثم أنجبت بنتاً قامت بتربيتها إحدى الأخوات كابنتها.

١٨. إن يوم انتصارهم قد أشرق فجره، وجاءوا بابتهاج من السجن إلى المدرج كما لو كانوا ذاهبين إلى السماء بوجوه هادئة رابطة الجأش، وربما كانوا يرتعشون، ولكن ليس خوفاً بل فرحاً، وكانت «بربيتوا» تتبعهم بوجه مشرق ومشية هادئة كزوجة للمسيح، كالمرأة المسرة لقلب الله وبقوة نظرتها التى تتحدى نظرات جميع المحملقين فيها. وأيضاً (فيلستياس) جاءت وهى مبتهجة لأنها ولدت طفلتها بسلام حتى تستطيع أن تواجه الأسود، وهى تمضى من دماء إلى دماء أخرى، من القابلة إلى المصارع، على وشك أن تغتسل بعد ولادتها فى معمودية ثانية. وبعد أن اقتيدوا إلى البوابة، أجبروا على أن يلبسوا ملابس خاصة. فالرجال يلبسون ملابس كهنة المشترى، والمرأة فى ملابس كاهنات (سيريس Ceres. وقد قاتلت تلك المرأة النبيلة حتى النهاية، لأنها قالت «ولهذا السبب وصلنا لهذا الموقف باختيارنا لئلا تختنق حريتنا. لقد ضحينا بحياتنا حتى لا نشترك فى أنشطة كهذه، لقد توصلنا لاتفاق بخصوص ذلك!»، لقد تعرّف الظلم على العدل، واستسلم المدافع عن حقوق عامة الشعب، وكان لابد من إدخالهم مباشرة كما كانوا بالترتيب.وبدأت (بربيتوا) تنشد مزموراً وهى التى داست من قبل على رأس المصرى. وكان (ريفوكاتوس Revocatus (وساترمينوس Saturninus (وساتيوروس Saturus يهددون المتفرجين، وبعد ذلك حملق فيهم (هيلاريانوس) وبدأوا- يظهرون له بالإشارات والإيماءات والقول «إنك حكمت علينا بالإدانة ولكن الله سوف يدينك»، وهنا ثار الجمهور، وطلب تعذيبهم على أيدى مجموعة من المصارعين، لقد كانوا فرحين حقاً لأنهم كانوا إلى حد ما يحاكون آلام الرب.

٢٠. ومع ذلك فقد أعد الشيطان للشابتين بقرة متوحشة على أساس جنسهما خلافاً للعادة، وحتى يكون جنسهما على شاكلة جنس الحيوان، ثم جُردتا من ملابسهما وأوقفتا فى الشبّاك، وأحضرتا للأمام، وارتعب الجمهور بعد أن رأى أن واحدة كانت فتاة جذابة والأخرى امرأة قد ولدت لتوها وثدياها تقطران لبناً، فنودى عليهما وألبستا ملابس فضفاضة.وألقى (بربيتوا) أولاً فسقطت على ظهرها، وعندما جلست أخذت تشد عباءتها ومزقت جانباً منها حتى تغطى فخديها وهى تفكر فى حيائها أكثر من ألمها، ثم طلبت دبوساً وربطت شعرها الأشعث لأنه ليس من الملائم للشهيدة أن تبدو بشعر أشعث لئلا تشعر بالخزى فى مجدها، ثم

نهضت وعندما رأت (فيليستاس) قد ألقيت على الأرض، ذهبت إليها ومدّت إليها يدها ورفعتها، وقد وقفتا جنباً إلى جنب، ولكن بعد أن تم تهدئة مشاعر الجمهور نودى عليهما ثانية للدخول من بوابة الحياة Porta Sanavivaria»، ثم أوقفت (بربيتوا) رجل اسمه (روستوكوس Rusticus تنصّر فيما بعد وكان قريباً منها، وقد أوقظت كما لو كانت فى نوم (لقد كانت فى الروح تماماً، وفى نشوة روحية وبدأت تنظر حولها وقالت -وقد اندهش منها الجميع- «متى سيأخذوننا إلى تلك العجلة أو البقرة؟»، وعندما أخبرت أن ذلك قد حدث بالفعل لم تصدق ذلك أولاً حتى رأت بعض الآثار على جسدها وثيابها. وبعد ذلك بعد أن استدعت أخاها الذى تنصّر حيتهما بالقول: اثبتوا فى الإيمان» (١كورنثوس ١٦:٣، ١) وأحبوا بعضكم بعضاً ولا تعثروا بسبب الآلام».

٢١. وبنفس الطريقة كان (ساتوروس) عند بوابة أخرى يناشد جندياً يدعى (بودنس Pu-dend قائلاً «استمر حتى النهاية، إن الذى يحدث الآن يتم تماماً كما توقعت وتنبأت، حتى الآن لم أدخل فى تجربة مع الوحش، والآن لك أن تؤمن بكل قلبك وراقب أنى سوف أذهب إلى هناك وسوف تقضى علىّ اللبؤة فى قضمة واحدة»، وأخيراً فى نهاية المشهد ألقى بلبؤة فى الطريق وفى عضة واحدة كان (ساتوروس) غارقاً فى دمائه حتى صاح الجمهور عندما استدار. كشهادة على معموديته الثانية:

«حمّام جيد، حمّام جيد!» حقاً لقد اغتسل جيداً بهذا الحمّام الجيد، ثم قال للجندى (بودنس) « وداعاً تذكر الإيمان وتذكرنى، لا يجب أن تثبطك هذه الأشياء بل بالأحرى أن تشجعك» ثم طلب منه خاتماً من إصبعه، وبعد أن غمسه فى جرحه، أعاده إليه كميراث تاركاً له وديعة وتذكاراً للمذبحة.ثم بعد ذلك وقع على الأرض فاقد الوعى، وكان مع الآخرين فى المكان المعتاد ليقطع زوره، ولأن الجمهور كان يطلب وضعهم فى المنتصف حتى تشهد أعينهم جريمة غرس السيف فى جسدهم، نهضوا بإرادتهم وذهبوا إلى حيث أراد الجمهور، وأخيراً قبّلوا بعضهم بعضاً ليتمموا استشهادهم بقبلة السلام المقدسة، والآخرون تقبلوا السيف دون حركة فى صمت وبخاصة (ساتوروس) الذى صعد أولاً، وكان أول من أسلم الروح، ولأنه كان أيضاً يشجع (بربيتوا) كان عليها أن تذوق مزيداً من الألم. لقد صرخت إذ تم وخزها بين العظام، وأمسكت هى بنفسها اليد المعتدية للمصارع المبتدىء لترشده إلى زورها، ربما كانت هذه المرأة العظيمة والتى كان الروح الشرير يخشاها، ما كان ليمكن أن تقتل بطريقة أخرى دون أن تكون هى نفسها راغبة فى ذلك.

يا أشجع الشهداء وأطهرهم! لقد دُعيتم حقاً فى مجد ربنا يسوع المسيح! ومن يريد أن يمدح ويكرم ويتعبد لمجده ينبغى عليه أيضاً أن يقرأ هذه الأمثلة لبنيان الكنيسة، إنها ليست

أقل شأناً من أمثلة العصور القديمة.عالمين أن هذه الفضائل الجديدة سوف تكون شهادة لنفس الروح القدس الذى يعمل حتى الآن، ولله الآب القدير ولابنه يسوع المسيح ربنا الذى له المجد والسلطان غير المحدود لدهر الدهور. آمين .

آخر وأكبر الاضطهادات بدأت فى سنة ٣٠٣م تحت حكم الإمبراطور (دقلديانوس Diocletian، فقد كان المطلوب من المواطنين الرومان أن يزوروا المعابد الوثنية المشيّدة لتقديم الذبائح للآلهة والتقديس للإمبراطور، والذين يخالفون هذه اللوائح كان نصيبهم التعذيب والسجن والأعمال الإجبارية الشاقة فى المناجم، وعقوبات أخرى تتراوح شدتها حتى تصل لعقوبة الإعدام. وكانت قسوة اضطهاد (دقلديانوس)، تختلف حدته من منطقة لأخرى بناء على رغبة الموظفين المحليين فى تنفيذ الأمر الإمبراطورى.ومع أنه لا توجد إحصاءات دقيقة لعدد المسيحيين الذين استشهدوا أثناء هذه الجولة الأخيرة من الاضطهاد، فقد قدر العلماء العدد بأنه يصل لحوالى ٣٠٠٠ مسيحى فقدوا حياتهم، ومع ذلك فحتى هذا «الاضطهاد الكبير» لم يدم طويلاً: ففى ٣٠٥ م تنازل دقلديانوس، عن العرش. ومع أن اضطهاد المسيحيين استمر لعدة سنوات أخرى فى الإقليم الشرقى من الإمبراطورية، إلا أن المسيحية وجدت نفسها فى موقف أفضل مع وصول (قسطنطين Constantine السريع للسلطة، وقبل أن يدعو (قسطنطين) مجمع (نيقية Nicaea فى ٣٢٥م كان قد قدم عدة تنازلات للمسيحيين.

عملت أحداث اضطهاد (دقلديانوس) على تقوية عقيدة تقديس الشهداء. فقد قامت عدة مدن ومناطق بتقديس شهدائها، وكانت تحتفل بذكرى استشهادهم «كأعياد الميلاد»، وفى مدينة روما كانت هناك شابة تدعى (اجنس Agnes)تعد ضمن الشهداء المحليين المرموقين، ومع أن الدليل التاريخى لاستشهاد "اجنس" ضعيف إلا أن التقليد يقول إنها استشهدت تحت حكم (دقلديانوس) حوالى سنة ٣٠٤ م وسرعان ما أصبحت "اجنس" قديسة مشهورة فى روما وفى كل مكان. وفى حوالى ٣٥٠ م فإن (قسطنطينة Constantena ابنة (قسطنطين) قد شيدت كنيسة لتكريمها فى روما فى أوائل القرن الخامس قامت بعدة (أعمال) فى حياتها، ولكنها غير موثوق بصحتها، ومع ذلك ففى قصة "اجنس" نرى كيف ألهب الخيال المسيحى، وكيف استُخدمت أفضل المواهب الأدبية لكل العصور فى تمجيد موضوع يشك العلماء فى دقته التاريخية، وأول المختارات مأخوذة من بحث **(الأمبروز Ambrose عن العذارى)**، فقد كتب (أمبروز) هذا الكتاب فى ٣٧٧م لأخته (مارسيلينا Marcellina التى كانت قد أخذت على نفسها العهد بالبتولية، وفى هذا الكتاب ينتهز الفرصة ليعيد سرد قصة "اجنس".

أولاً، ٢، ٥[٨]إنه لمن محاسن الصدف أنه بما أن اليوم هو عيد ميلاد عذراء، فإنى سوف أتكلم

---

(٨) Text: PL 16 189.

عن العذارى، تبدأ مقدمة البحث بهذا الإطراء، إنه عيد ميلاد عذراء: دعنا نحاكى أمانتها، إنه عيد ميلاد شهيدة، دعنا نضحى بالفريسة. إنه عيد ميلاد القديسة "اجنس": دع الرجال يتعجبون، دع الأبناء لا يفقدون الأمل، دع المتزوجين يندهشون، دع غير المتزوجين يحاولون محاكاتها. ما الذى يمكن أن نقوله ويكون جديراً بها والتى كان مجرد اسمها لايخلو من المديح المتألق؟ فمن ناحية التقوى تفوقت على سنها، ومن ناحية الفضيلة كانت أسمى من الطبيعة، ويبدو لى أنها لم تكن تحمل اسماً بشرياً بل اسماً يحمل نبوة عن استشهادها، والتى أظهرت به ما كانت عليه[٩].

أولاً،٦،٢ ومع ذلك فلدىّ وسيلة تعيننى، إن اسم (العذراء) يعنى الحياء، إنى سوف أمتدح الشهيدة، وسوف أهتف للعذراء، فليس من المناسب البحث عن مديح بل أنه حق من حقوقها، فلتتوارى العبقرية ولتصمت البلاغة، إن كلمة واحدة تصلح للثناء. أيها الكبار والشبان والأولاد انشدوا بهذه الكلمة، فليس من هو أجدر منها بالثناء غير ذاك الذى يقدم له الجميع الحمد. فبقدر عدد أفراد الجنس البشرى، هناك المنادون العامون الذين عندما يتكلمون يحيون ذكرى الشهيدة.

أولاً، ٧،٢ قيل إنها استشهدت عندما كان سنها ١٢ سنة، وليس هناك ما هو أكثر فظاعة من تلك القسوة التى لم ترحم هذه السن الصغيرة، بقدر ما كان لقوة الإيمان العظيم فى هذه السن من شهود ، هل كان هناك فى هذا الجسد الصغير مكان لجرح؟ ومع ذلك فتلك التى لم يكن بجسدها مكان لسيف لكن كان به شئ آخر استطاعت به أن تهزم السيف، واليوم فإن البنات فى سنها لا يستطعن تحمل النظرات القاسية لوالديهم، وهن على استعداد للبكاء لوخز الإبر كما لوكانت جروحاً، ولكن هذه البنت لم تجبن أمام يدى الجلادين الملوثة بالدماء، ولم يهزها صوت السلاسل الثقيلة وهى تُجر على الأرض، لقد قدمت جسدها كله لسيف الجندى الغاضب. لم تكن تدرك معنى الموت حتى تلك اللحظة، ولكنها كانت على أهبة الاستعداد له، أو إذا كانت قد حملت إلى المذبح غصباً عنها، إلا أنها كانت على استعداد أن تمد يديها إلى المسيح فى وسط النيران، وترسم علامة الرب المنتصر فوق المذابح الدنسة، أما الآن فإنها قد وضعت رقبتها وكلتا يديها فى القيود الحديدية، ولكن لا يمكن لأى قيد أن يكبل تلك الأطراف الرقيقة.

أولاً،٨،٢ هل هذا نوع جديد من الاستشهاد؟ إن سنها لم يكن مناسباً لهذه العقوبة، ولكنها كانت فى قمة النضج للانتصار، من الصعب أن نجد لها مثيلاً، ولكن من السهل أن تتوج، لقد كانت مؤهلة لإعطاء دروس فى الشجاعة وهى ما تزال فى ميعة الصبا، ولذا فلم تكن كعروس

---

(٩) بهذه التورية اللفظية يشير أمبروز إلى أن الاسم أجنس يعني (حمل).

تسرع لفراش الزوجية، بقدر ما كانت كعذراء تسير بخطوات سريعة وتقترب بابتهاج إلى مكان تنفيذ الحكم، ولم تكن رأسها مزينة بالخصل بل بالمسيح، مفتداة ليس بالزينة بل بالموت، والكل كان يبكي، ولكنها لم تكن تدمع. وقد تعجب الجميع لأنها كانت مسرعة بتبذير حياتها، تلك الحياة التى لم تكن قد رشفت منها بعد، وها هى الآن تقدمها كلها كما لو كانت قد عاشتها كلها، اندهش الكل لأنها كانت شاهدة لله والتى لم تكن حتى هذه اللحظة قادرة على الشهادة بسبب شبابها. وبإيجاز: أقنعتنا هذه الفتاة بأننا يجب أن نصدقها فيما يتعلق بالأمور الإلهية، ومع ذلك لا يجب أن نصدقها فيما يتعلق بأمور البشر، فكل ما يسمو على الطبيعة يأتى من خالق الطبيعة.

أولاً ٩،٢، أى رعب قام الجلاد ببثه ليخيفها، وأى تملق قام به لإغرائها! كم عدد الذين تاقوا للزواج منها! ولكنها أجابت بالقول: «إنها إساءة لعريسى[١٠]. أن أتوقع أن يرضينى إنسان ما، إن الشخص الذى اختارنى أولاً لنفسه سوف يرحب بى، فلماذا التأخير أيها القاتل؟ لتدمر هذا الجسد فأنا لا أريد جسداً تحبه عيون الناس». لقد وقفت وصلّت وأحنت رقبتها، لقد كان فى إمكانك أن تشاهد رعب الجلاد كما لو كان هو نفسه المحكوم عليه بالموت، لقد اهتزت يد القاتل وشحب وجهه كما لو كان يخشى من وقوع كارثة، بينما لم تكن الفتاة تخشى من كارثتها، فأنت ترى فى فريسة واحدة استشهاداً مزدوجاً، فهى شهيدة الحياء والتقوى: لقد ظلت عذراء وكسبت الاستشهاد.

والقطعة الثانية المختارة والمتعلقة "**بأجنس**" تبين كيف أن أسطورة نثرية قد تحولت إلى شعر بلاغى على يدى الشاعر المسيحى (برودنتيوس) فى أوائل القرن الخامس، ففى الفصل الرابع عشر من كتابه **«تيجان الاستشهاد»**[١١] والذى كتب فيه مجموعة من القصائد عن الشهداء، تغنى بالمديح "لأجنس"

تلك الفتاة الباسلة المدعوة بالشهيدة
هى "أجنس" والتى فى بيت رومولوس Romulas[١٢].
ترقد مدفونة فى قبر. وهى ترى
فى الموت أمجاد روما
وبذلك تحفظ شعبها سالماً

---

(١٠) يسوع كالعريس السماوي للعذارى.

(١١) Text CSEL 61,427.

(١٢) المؤسس الأسطوري لمدينة روما.

وهى أيضاً تحمى الحجاج هناك
الذين يصلّون بقلوب طاهرة مخلصة
إن تاج الاستشهاد المزدوج
مخصص لهذه الفتاة الشهيرة
عذراوية بلا أى دنس
ومجد، نتيجة موت قد اختارته
لم تبلغ بعد سن الزواج
يقولون إنها بنت صغيرة
بالصدفة طفلة فى عمر الزهور
ولكنها ذات قلب ملتهب بحب المسيح كقلب رجل
لقد تحدت القوانين الجائرة
فلأجل الأوثان فهى لا
تهجر إيمانها الأقدس
لقد حاولوا خداعها بمختلف الحيل
والآن يحاول القاضى خداعها بتملقاته
ثم تهديدات الجزار الغاضب
ولكنها واقفة على الأرض رابطة الجأش
لقد قدّمت مجاناً للقوة الغاشمة
جسدها سلمته للأيدى القاسية
ولم تهرب من الموت الوشيك الوقوع
ثم قال الطاغية القاسى القلب
«إذ كانت تدفع الثمن بسهولة
وتتحمل الألم الناتج عن ذلك
وإذا كانت لا تقيم وزناً لحياتها
وتهتم بالأحرى بعهد البتولية الثمين
عهد العفاف العذرى
فإنى أصدر أمراً أن ترسلوها
لماخورة عامة ما لم تتوسل إلىّ

وتطلب عفو (مانرفا) Minerva وتنحنى لها
تنحنى أمام مذبح العذراء الإلهية
والتى تستمر فى احتقارها مع أنها عذراء فانية
إن كل شاب سوف يندفع للبحث عن
العبد الجديد المهيأ لرياضته!
تقول "أجنس" كلا! إطلاقاً!
فالمسيح لا ينسى خاصته
حتى يضيع الشرف الذهبى
ولا يتركنا الآن
ويضمن لنا العفة
ولا تسمح بتلويث عطيته
عطيته ذات الطهر المقدس
لك أن تخضب سيفك بالدم
كما تريد- ولكنك لا تستطيع
أن تلوث أطرافى بشهوة الجسد»
تكلمت هكذا ثم بعدئذ أصدر مرسوماً
لتوضع "أجنس" فى ميدان عام
وتراجع الجمهور السوداوى
بوجوه تراجعت بعيداً حتى لا
تنتهك نظراتهم الخليعة قدسية
البقعة المقدسة التى كانت تقف عليها
وبالصدفة، نظر رجل:
ووجّه بصره نحوها بنظرة خليعة وبلا خوف
تأمل فى جسدها المقدس
ولكن انظر هناك شعاع سريع كوميض
من البرق ضرب عينيه فوقع
وغشاوة أعمت عينيه من جراء النور الساطع
فارتعب وارتعش فى الميدان الترابى

فارتعب وارتعش فى الميدان الترابى
ورفاقه يبكون ويرثونه رثاء جنائزياً
وقد أقاموا الرجل النصف المائت وهم يبكون
وقد مشت العذراء منتصرة
تمجد بأغنية مقدسة
الله الآب ومسيحه
فحينما تقع واقعة غير مقدسة
فالبتولية هى المنتصرة
ويصبح الماخور طاهراً نقياً
البعض يتذكر أنه بتوسلاتها
سكبت صلواتها الحارة للمسيح
أن يسترد الشاب المنبطح على الأرض بصره:
فدبّت فيه نسمة الحياة
واستعاد بصره دون نقصان
كانت تلك أولى الخطوات صعوداً
والتى خطتها (اجنس) نحو السماء:
وقد وُهبت لها الخطوة الثانية سريعاً
لأن الغضب تأجج فى صدر العدو الدموى
غضب، جلب معه أنيناً وحشرجة:
«لقد انتهيت قم واستل سيفك
أيها الجندى هناك ونفذ
القوانين الملكية للإمبراطور»
وعندما رأت "أجنس" الرجل الوحشى
واقفاً بسيف مسلول
تفوهت بهذه الكلمات مملوءة فرحاً:
«إنى أبتهج عندما يأتى رجل فظ وأراه
رجل مسلح قاس وعنيف
أكثر من رؤيتى لشاب رقيق

ضعيف ورقيق كله عطور
ليقضى عليَّ بالقضاء على عفافى
هذا هو حبيبى، إنى أعترف
رجل يسرنى أخيراً!
سوف أندفع لمقابلة خطواته
ولذا فإنى لا أؤخر رغباته المحمومة
سوف أحيى نصله الممدود
بضمه إلى صدرى وسوف أسحب
قوة السيف لأعماق حضنى
وكعروس المسيح سوف أطفر فوق(١٣)
ظلمة السماء، وعلى أجنحة الأثير
أيها الملك الأزلى افتح أبواب السماء
المغلقة من قبل أمام أهل الأرض
ونادى أيها المسيح على نفس عذراء
نفس تريد أن تتبعك
والآن هى ذبيحة لله الآب»

وبعد أن تقرر مصيرها، أحنت رأسها
وسجدت للمسيح متضرعة متوسلة
حتى تكون رقبتها التى سوف تسقط قريباً على استعداد
أن تتحمل الجرح الرهيب .
وقد تلقت من بين يدى الجندى
تحقيقاً لرغبتها الكبرى
لأنه بضربة واحدة فصل رأسها

(١٣) تعتبر العذارى عرائس للمسيح وهي نظرة عامة في المسيحية الأولى.

وأطاح الموت السريع بالإحساس بالألم
وبعد أن جردت روحها أخذت تفرّ
وتقفز فى حرية إلى الهواء
بينما الملائكة تتحلق حولها
تطير هى على طول الطريق الرائع
معجبة بالفلك تحت قدميها،
فمن الأعالى ترى الظلام من تحت،
وتبتسم لقرص الشمس الذى يدور
الذى يتحرك ويلامس الأرض كلها
التى نعيش فوقها فى عاصفة مستعرة
والتى تنتزع أباطيلها
تقلبات الحياة
فالملوك والظالمون يحكمون ويتحكمون فى
خيلاء وزهو الأمجاد الزائفة
وقوة القصة وسلطان الذهب
الذى يسعى الكل إليها بجشع مسعور
عن طريق أفعال شريرة بلا عدد
فالمبانى فى طرز بديعة فخمة
وعبث ارتداء الملابس
المحلاة بالجواهر، والزخارف
والغضب والخوف والأشواق والضرر
والآن الحزن المستطيل والفرح القصير
وسمات الجسد الكئيب المتأجج
تلقى بظلالها على الرجاء البشرى

وتصيبه بالأمراض والإحباط
وسحب الإيمان الوثنى القذرة:
تدوسها "أجنس" وتطأها
وبعد أن تقف "أجنس" تدوس بعضها
على رأس التنين الوحشى [١٤]
الذى ينشر سمومه فوق جميع
الأشياء الأرضية ثم يغوص فى قاع الجحيم
والآن يصبح مستأنساً بقدم العذراء وحدها
وكبرياء رأسه النارى تنزل
وبعد أن يهزم لا يجرؤ على رفع رأسه
وفى نفس الوقت يمسك الله التاج المزدوج
ويكلل بها جبين الشهيدة العذراء
واحد كمكافأة ستين ضعفاً
مرسلة من الضياء الأبدى
والثانى يشير للثمار المائة ضعف[١٥]

أيتها العذراء السعيدة، تأملى وابتهجى من جديد
أيتها الساكنة الشهيرة فى الردهات السماوية
أطلى برأسك بتاجك المزدوج
على أدراننا الحقيرة التافهة
أنت وحدك يا أبانا كلنا
يمكن أن تجعل الماخور مكاناً طاهراً

---

(١٤) انظر تكوين ٣:١٥
(١٥) الاستشهاد والبتولية هي الثمار المائة ضعف والستين ضعفاً: وهذا هو التفسير المسيحي الأول لمثل الزارع (مرقس٤:١-٩، متي١٣:١-٩، لوقا٨:٤-٨).

إن بهاء وجهك المشرق

سوف يكفر عن خطاياى

فإن كنت تشبع رغبة قلبى

فكل شىء نقى حتى تتلطف

وتنظر بمحبة أو تتنازل

لتلمسنى بقدمك المبشرة بالخير

وهكذا كشهيدات ومتبتلات في واقع الحياة وفى الأدب، يرى النساء المسيحيات أنفسهن ممجدات، ولكن معرضات للمخاطر أيضاً.

الفصل الثالث
استرداد الفردوس
البتولية نظرياً وعملياً

مع أن الكُتّاب المسيحيين منذ عصور العهد الجديد فصاعداً امتدحوا عيشة التبتل والتقشف، إلا أن القرن الرابع شهد ازدهار حركة التبتل. وتوقف الاستشهاد كطريقة لإعلان تمسك المسيحى بديانته، والأعداد المتزايدة من المسيحيين الأقل غيرة تعدّ أسباباً لانتشار التبتل فى تلك الفترة. بل أن آباء الكنيسة أنفسهم رأوا فى اختيار حياة البتولية نوعاً من الاستشهاد، وحثوا أتباعهم على التسامى بأنفسهم عن المؤمنين المسيحيين العاديين باتباع «طريق الكمال».

ونادى بعض الكُتّاب أيضاً بأن حياة التبتل تعتبر وسيلة بها يستطيع البشر استعادة طهارة الفردوس، تلك الطهارة التى فقدها آدم وحواء عن طريق الخطية الأصلية، وتورط نسلهما فيما بعد فى الزواج والإنجاب، وكان طريق التبتل يلقى استحساناً خاصاً بالنسبة للنساء اللاتى يستطعن عن طريق التخلى عن الخضوع للزوج الذى يكون من نصيب المرأة المتزوجة، وقال الآباء إن النساء المتبتلات لا يتحررن فقط من الكثير من الأعباء المنزلية، ولكنهن يستعدن أيضاً، جزئياً على الأقل، أفراح الفردوس (جنة عدن) .

وإذ نرى الحماس للتبتل لدى الكتّاب المسيحيين، فالمطلوب تقديم تفسير عن سبب، ليس الزواج فقط، بل تعدد الزوجات كذلك فى العهد القديم.

ومن أولى المحاولات لحل هذه المشكلة تلك المحاولة التى قام بها **ميثوديوس Methodius الأسقف الذى استشهد فى ٣١٢ق.م، وكتابه الشهير «الوليمة»** كتب على نمط «حفلة الشراب» لأفلاطون Plato ، والفرق الجوهرى بين الكتابين هو أنه بينما كان ضيوف الغداء فى كتاب أفلاطون يتناقشون فى أصل الحب، فإن (ميثوديوس) يتخيل عشر عذارى فى «الوليمة» يتغنين بأمجاد البتولية المسيحية، (وماركيلا Marcella) إحدى المتحدثات تشرح هنا التطور التاريخى لمثال التبتل فى الحياة البشرية.

أولاً، ٢، ١٦، ١٨ [١] حقاً إنه لمن سخاء الله وفضله العظيم أن أرسل إلى البشر بذور

---

(١) Text: GCS 27.9

التبتل من السماء، ولهذا السبب لم يعلن التبتل للأجيال الأولى لأن الجنس البشرى كان ما يزال صغيراً فى العدد، وكان لابد من زيادة عدد البشر أولاً ثم كمالهم، ولهذا السبب لم ير القدماء أى عيب فى أن يتخذوا الأخوات كزوجات حتى جاء الوقت الذى بيّن فيه الموقف، وحرّم هذه الممارسات التى كانت تبدو صحيحة سليمة أولاً، معلناً بوضوح أنها خطية قائلاً «ملعون» الرجل الذى «يكشف عورة أخته» (لاويين١٨:٩)، لقد قدم الله العون لجنسنا فى الوقت المناسب، وبطريقة تناسب العصر تماماً، كما يساعد الآباء أبناءهم. لأن الآباء لا يعملون كمدرسين لأبنائهم منذ مولدهم ولكنهم يسمحون لأبنائهم بالمرح كالعجول الصغيرة أثناء سنواتها الأولى، وعندما يصل الأبناء للسن التى يبدأون فيها الكلام مع بعضهم البعض، فالآباء يرسلونهم للمدرسين الذين يعلمونهم حتى يتخلوا عن سن الحداثة، وتنضج عقولهم تماماً كما تنبت لهم شوارب، وبعد ذلك يرسلهم الآباء لتعلم دروس أكثر تقدماً ثم إلى دروس أصعب وهكذا. إننا يجب أن نركز على هذه النقطة: إن أبانا جميعاً قد تعامل مع من أتوا قبلنا أيضاً بنفس الطريقة، لأن العالم حينما لم يكن مزدحماً بالبشر كان كطفل صغير، يحتاج لأن يمتلىء بالبهجة حتى يصل إلى سن النضج، ومع ذلك ففى عصور متأخرة لم يسمح الله للبشر أن يظلوا على هذه العادات عند الانتقال من مرحلة إلى أخرى، لقد رأى كيف يمكنهم التقدم فى طريق أقرب إلى السماء بالمضى من مرحلة لأخرى، حتى وصلوا إلى أسمى وأفضل دروس البتولية، وصاروا كاملين. وكخطوة أولى كان عليهم أن ينأوا بأنفسهم عن الزواج بين الإخوة والأخوات، وأن يتخذوا لهم زوجات من خارج العائلة، وبعد ذلك كان عليهم ألا ينغمسوا فى زيجات عديدة فيما بعد كما تفعل الحيوانات، كما لو كان الإنجاب هو الهدف الذى ولدنا من أجله. ثم كان عليهم بعد ذلك البعد عن ممارسة الزنا، وبعد ذلك ينتقلون إلى مرحلة ضبط النفس والتعفف عن ممارسة الجنس لبعض الوقت، ومنها ينتقلون لمرحلة البتولية حتى إذا تعلموا كيف يحتقرون الجسد يمكنهم بعدها أن يرسوا سفنهم على شاطىء عدم الفساد.

أولاً،٥،٢٥- ٢٦ فما الذى قام به الرب الذى هو الحق والنور (يوحنا١٤:٨، ٦:١٢) عندما جاء إلى العالم؟ لقد حفظ الجسد الذى اتخذه بتولياً وغير فاسد. وهكذا نحن أيضاً إذا أردنا أن نكون على صورة الله (تكوين١:٢٦) أن نعمل جادين لنكرم بتولية المسيح، لأن الصيرورة على «صورة الله» هى الهروب من الفساد، وعندما تجسد الكلمة كان رئيس الأطهار ورئيس الرعاة، ورئيس أنبياء الكنيسة كما يوضح يوحنا فى سفر الرؤيا (١٤:١-٤).. والذى يبين فيه

أن الرب يقود فريق الأطهار ..

ولكن هذا التفسير **«التاريخى»** لم يكن سوى مظهر واحد من مظاهر الدفاع المسيحى عن **البتولية**، إذ أن (**غريغوريوس النيصى**[٢] Gregory of nyssa) أحد اللاهوتيين البارزين فى القرن الرابع والذى تظهر كتاباته فكراً راجحاً، ركز على الأساس اللاهوتى للبتولية والتشبيهات المتعلقة بها وبحثه على البتولية والذى يرجع تاريخه من ٣٦٠ أو ٣٧٠ ب.م، يقول إن الطهارة البشرية جُعلت على نمط العلاقات القائمة بين الأب والابن والروح القدس فى اللاهوت، فكما أن اللاهوت غير متغير فإن اتخاذ طريق التبتل هنا على الأرض يجعل الإنسان مشاركاً فى السمة السماوية «لعدم الفساد» أى عدم القدرة على التغير أو الذبول. وبالإضافة لذلك فقد أكد غريغوريوس على المعلومة القائلة بأن الطهارة هى الحالة الأصلية للجنس البشرى كدفاع عن الاتجاه السائد فى عصره، بينما الزواج يورط البشر فى تسلسل غير متناه من حلقات الميلاد والوفاة، فيقول غريغوريوس إن البتولية تمكننا من كسر حلقة هذه السلسلة لنرتبط بالحقائق السماوية التى لا تفنى.

٢ ، ١:[٣] نحتاج للكثير من الذكاء حتى نفهم سمو هذه النعمة، نعمة الارتباط بالآب عديم الفساد ، وأنه حقاً يبدو أن هناك تناقضاً عندما نكتشف البتولية فى أب له ابن ولده بلا شهوة، والبتولية ترى أيضاً فى الإله الابن الوحيد أى الابن قائد جوقة عدم الفساد ، من حيث أنه قد نبع مع الطهارة وعدم الألم عند ولادته. وهنا أيضاً قد نرى نفس التناقض: فعن طريق العذراوية يولد الابن، وبنفس الطريقة يمكن التفكير فى الطهارة الطبيعية وعدم الفساد الذى يتسم به الروح القدس، لأنك لا تفعل شيئاً سوى أن تدعو البتولية باسم آخر عندما تتحدث عن النقاء وعدم الفساد ، فالبتولية هى رخصة المواطنة فى الطبيعة السماوية لأن عدم قابليتها للألم تصحب القوى العليا ، ولا يمكن فصلها عن الحقائق الإلهية دون تناقض فى شىء، لأن كل الأشياء التى تميل بالطبيعة والاختيار للفضيلة تحمل ذاتها كلية فى طهارة عدم الفساد ، وكل الأشياء المرفوضة توجد على الجانب الآخر، وتدعى أيضاً بما هى عليه بسبب عدم طهارتها. إذن ما هى الكلمات التى تكفى لوصف هذه النعمة؟ أو كيف لا يمكن أن نخشى أنه فى مدح البتولية بحماس، لا ينتهك إنسان عظمة مجدها مما يقلل أمام سامعيه من المجد الذى ارتبطوا به أولاً؟

---

(٢) المصادر المسيحية ٢٦٢،١١٩

(٣) Text:Sc 119,262

٣،٢. فقوة البتولية إذن فى أنها تسكن فى السموات مع أبى الأرواح، إنها فى خدمة القوى السماوية، وهى توائم نفسها مع خلاص البشر، وبقوتها، يأتى الله لأرضنا ليشاركنا فى الحياة البشرية [٤] بينما تعطى البشر أجنحة حتى إنه فى البتولية تكون لنا رغبة فى الأشياء السماوية، فكأن البتولية نوع من الرابطة فى علاقات البشر مع الله، وبتوسطها تؤدى لتناغم الأشياء التى هى بالطبيعة غير متوافقة مع بعضها البعض.

فأى كلمات إذن يمكن أن نجدها لترتقى وتصلح لوصف هذا الإعجاز..؟

٤,٧. كيف يمكن لشخص مفتون بشىء فى الحياة الحاضرة أن يمتلك هذا الشىء الذى يحبه حتى نهاية العمر؟ فمن بين الأشياء التى نولع بها، هل يوجد شىء يبقى دون تغيير؟ ما هو ريعان الشباب؟ ما هو امتلاك القوة والجمال؟ ما هى الثروة والمجد والقوة؟ ألا تزدهر هذه الأشياء لمدة وجيزة، ثم تختفى فتتحول إلى نقيضها؟ ومن منا الذى أمضى حياته كلها شاباً؟ ولمن واتت القوة حتى النهاية؟وأى زهرة من زهور الجمال لم تعمل الطبيعة على ذبولها لتصبح أكثر ذبولاً من الزهور التى تظهر فى فصل الربيع؟ إن ما ينبت فى الفصل الذى نحن فيه يظهر ثم يذبل بعد وقت قصير، ثم ينمو من جديد، ويذبل ثانية، ثم يحرق ثم يظهر ثانية فى عام جديد بجماله المعتاد. ولكن الزهور البشرية على النقيض من ذلك لا تظهر إلا فى ريعان الشباب، ثم تقصف الطبيعة عمرها، ثم تذبل فى شتاء العمر، وهذا ما يحدث لكل هذه الأشياء، فهى تخدع حواس الجسد لفترة، ثم تمضى حتى تختفى فى بحر النسيان.

٤,٨. فبما أن هذا التغيير الحتمى الذى يحدث فى الطبيعة محزن تماماً للشخص المرتبط عاطفياً بهذه الأشياء، فهناك ملجأ واحد للهروب من هذه الشرور: ألاّ ترتبط أرواحنا بأى شىء قابل للتغيير، فيمكن أن تنأى بنفسك عن أى ارتباط بحياة الشهوة والحياة الجسدية، بل يمكن أيضاً ألا ترتبط بالتعاطف مع جسدك حتى لا تخضع للحياة حسب الجسد التى تصاحب الحياة فى الجسد، ولكن هذا يتضمن المعيشة للروح وحدها ومحاكاة طريقة الحياة للقوى الروحية بقدر الإمكان، والذين لا يزوجون ولا يتزوجون (مرقس ١٢:٢٥، متى٢٢: ٣٠،لوقا ٢٠:٣٥)، وعملها ومجهودها وإنجازها الناجح يكون فى تأمل الآب عديم الفساد واتخاذ شكلها عن طريق محاكاة النموذج الأصلى للجمال بقدر ما يمكن.

٤,٩. كما يُعلِّم الكتاب نحن نقول: إن البتولية قد أعطيت للجنس البشرى «كمعين»

---

(٤) في تجسد يسوع قد ولد من عذراء .

(انظر تكوين ٢:١٨) كشريك فى الفكر والرغبة الجادة. وكما فى المهن المختلفة، هناك مهارات معينة تبتدع لتنفيذ كل الأشياء المطلوب تنفيذها، فهكذا يبدو لى أن ممارسة البتولية فن خاص، قوة من نوع إلهى معلمة أولئك الذين يعيشون فى الجسد أن يصبحوا شركاء الطبيعة الإلهية.

١،١٣ لذلك فإذا كنا نريد أن ننطلق من هنا ونكون مع المسيح (فيلبى١:٢٣)، فمن المناسب لنا أن نبدأ من جديد من آخر نقطة يبدأ منها الانطلاق، تماماً كأولئك الذين يعيشون بعيداً عن أهلهم عندما يبدأون رحلة العودة إلى المكان الذى جاءوا منه، فإنهم أولاً يتركون وراءهم آخر مكان كانوا فيه حين قرروا الانطلاق. وهكذا أيضاً فالزواج هو آخر نقطة للانفصال عن الحياة فى الفردوس، ويفرض المنطق على أولئك الذين يريدون أن ينطلقوا نحو المسيح أن يتركوا خلفهم الزواج كالمحطة الأخيرة فى رحلتهم، وبعد ذلك ينسحبون من البؤس الأرضى الذى وصل إليه حال الجنس البشرى بعد الخطية، ثم بعد ذلك أن يخلعوا أردية الجسد «الأقمصة من جلد» (تكوين٣:٢١). أى أنهم يجب أن يخلعوا «اهتمام الجسد» (رومية ٨:٦)...

١،١٤. مثل هذه الحياة البتولية يجب تفضيلها على الأقل من جانب العقلانيين حيث إنها أقوى من قوة الموت لأن الإنجاب الجسدى- وليت هذا الكلام لا يضايق أحداً- أقرب إلى الموت منه إلى الحياة للبشر. ويستمد الفساد جذوره من التوالد، والذين يتوقفون عن الإنجاب عن طريق البتولية يضعون قيوداً على الموت فى أنفسهم مانعين إياه من أن يستشرى أكثر من ذلك بسببهم، ويضعون أنفسهم حائلاً بين الحياة والموت إذا جاز القول، وبذلك يوقفون تقدم الموت، فإذا لم يكن الموت قادراً على التغلب على البتولية بل يقف عند حده ويزاح عن موقعه، فهذا بيان عملى أن البتولية أقوى من الموت.

وأيضاً يحق لنا أن ندعو الجسد «غير فاسد» عندما لا يشترك فى خدمة حياة الفساد، وعندما يرفض أن يصبح أداة فى سلسلة الفناء. فبهذه الطريقة تنكسر حلقة الفساد والموت الدائم، ذلك التسلسل الذى ظل عاملاً منذ الإنسان الأول، وطوال العصور السابقة حتى حياة ذلك الشخص الذى عاش طاهراً أى يسوع.ففى الحقيقة لا يمكن للموت أن يقف موقف المتفرج بينما يستمر التوالد البشرى نشطاً عن طريق الزواج، فالموت وجد حداً لنشاطه فى البتولية، والتى فشل فى التغلب عليها، بعد أن شق طريقه فى الأجيال السابقة، واستمر قدماً يعمل إلى الأبد فى كل الذين يولدون. وكما هو الحال مع مريم- أم الله- «قد ملك الموت من

آدم» إليها (رومية ٥:١٤) وعندما اقترب منها تم سحقه عندما حاول النيل من ثمرة بتوليتها كما لو كان ناطحاً لصخرة ليوهنها، وهكذا فى كل نفس، يمكن لقوة الموت أن تنسحق بطريقة ما وتدمر، عندما تحتقر النفس عن طريق البتولية حياة الجسد، فإن قوة الموت تفقد قدرتها على إعمال شوكتها (كورنثوس الأولى ١٥:٥٥). فعندما لا توضع المواد القابلة للاحتراق، مثل الخشب والقش بجانب النار، فإنها لن تحترق، فليس من طبيعة النار أن تفعل مفعولها بدون أن يكون هناك مواد تغذيها. وهكذا فقوة الموت لا تعمل دون أن يكون هناك مواد تغذيها.

إذا كان الزواج لا يقدم الوقود اللازم، فالناس الذين يجب أن يموتوا هم الذين أدينوا وحُكم عليهم بالموت.

وكتب (يوحنا فم الذهب John Chrysostom عن «البتولية» بعد عشرين سنة من كتاب غريغوريوس، وبالإضافة لاستعارة بعض نظريات (غريغوريوس) فإن (فم الذهب) أخذ على عاتقه الرد على المنادين بالزواج، الذين قالوا إن الله أمرنا أن «أثمروا واكثروا» (تكوين١:٢٨) وأنه بدون التوالد فإن الجنس البشرى ينقرض، وفى الرد على هذه الاعتراضات فإن فم الذهب قد أيد الرأى الشاذ الذى لم يقل به آباء الكنيسة كأوغسطينوس، بأن الله كان يمكنه أن يضاعف عدد الجنس البشرى بدون التكاثر الجنسى، وبالإضافة لذلك فإن (فم الذهب) يقول إنها دائماً إرادة الله، وليس النشاط الجنسى البشرى هو الذى يخلق شعباً جديداً، وهو يقول أيضاً إن للبتولية مزايا عملية، فالعذراء تهرب من المشاغل والأحزان التى تشغل المرأة المتزوجة وتقلقها على عائلتها.

٣،١٤. لأنه بعد أن أكمل العالم كله وأعد كل شىء لاستخدامنا ومتعتنا، خلق الله الإنسان، الذى خلق له العالم أيضاً، وعندما خلق الإنسان عاش فى الفردوس، ولم يكن هناك سبباً للزواج، وعندما احتاج لمعين (تكوين٢:١٨) قدم له معيناً، وحتى مع ذلك لم يكن الزواج يبدو ضرورياً، لم يظهر فى الصورة بعد، بل أن آدم وحواء ظلا بمنأى عن الزواج يعيشان فى الفردوس (جنة عدن) الحياة التى كان يمكن أن يعيشانها فى السماء مستمتعين بصلتهما بالله، ولم يكن يدور بخلدهما الرغبة فى الاتصال الجنسى أو الحمل أو آلام العمل أو ولادة الأطفال، وكل أنواع الفساد، وكما يجرى النهر الصافى من منبع نقى كذلك فى ذلك المكان كانت البتولية تزين حياتهما.

٥،١٤. فى ذلك الوقت لم تكن هناك مدن أو وظائف أو بيوت، وطبعاً نحن نهتم بهذه الأشياء لدرجة غير عادية، ولكن تلك الأشياء وقتئذ لم تكن موجودة. وفى نفس الوقت لم يكن هناك شىء يجعل آدم وحواء أن يبتعدا عن أو ينسحبا من هذه الحياة المباركة، فهى حياة أفضل بكثير من الحياة الحاضرة، ولكن عندما تجاهلا الله وتحولا إلى تراب ورماد (تكوين٣:١٩،١٨:٢٧) دمرا أيضاً جمال البتولية مع القضاء على هذه الحياة المباركة، ومع الحياة مع الله، لذلك أيضاً تخلت عنهما البتولية وانسحبت من حياتهما [٥].

فطالما كانا منتصرين على إبليس، وكانا موضع احترام ملكهما، كانت البتولية سائدة تزينهما أكثر من الأوسمة والنياشين، كما تزين الملابس الذهبية الملوك. ولكن عندما أُسرا خُلع عنهما لباسهما الملوكى وتخليا عن زينتهما السماوية، وتلقيا بدلاً من ذلك فساد الموت واللعنة والألم وحياة الشقاء (تكوين٣:١٦-١٩). ثم دخل أيضاً الزواج، ثوب المشقة والفناء [٦].

٦،١٤. يقول بولس «وأما المتزوج فيهتم فى ما للعالم كيف يرضى امرأته» (كورنثوس الأولى ٧:٣٣). هل ترى من أين استمد الزواج أصله، ولماذا كان يبدو ضرورياً بسبب عدم الطاعة واللعنة والموت، لأنه حيث الموت يكون الزواج، فإن لم يدخل الواحد لا يتواجد الآخر. والبتولية على النقيض لا يعقبها الموت، ولكنها مفيدة دائماً، وهى وجميلة دائماً ومباركة، قبل الموت وبعده، قبل الزواج وبعده، وإلا فقل لى من أى نوع من الزواج وُلد آدم ؟ وأى نوع من التعب كان يقاسى منه عند خلق حواء؟ إنك لا تعرف الإجابة، إذن فلماذا تخشى، دون داع، وترتعب لئلا يحمل توقّف الزواج توقّف الجنس البشرى؟ هناك ملايين الملائكة التى تخدم الله، وآلاف آلاف رؤساء الملائكة تقف حوله، ولم يوجد أى منهم بالتوالد، لم يتواجد أى منهم بالميلاد أو التعب والألم والحمل! أفلا يكون بالأحرى أن يخلق الله بشراً بدون زواج تماماً كما خلق أبوينا الأولين بدون زواج اللذين تسلسل منهما كل البشر؟

١،١٥. وحتى الآن فقوة الزواج ليست السبب فى وجوده فى جنسنا البشرى، بل بالأحرى كلمة الرب التى قيلت فى البداية «أثمروا واكثروا واملأوا الأرض» (تكوين١:٢٨). فقل لى

---

(٥) صدى للفكرة القديمة لرحيل المهابة والاحترام وتدهور البر في نهاية العصر الذهبي، انظر على سبيل المثال ما قاله هيسود Hesiod في «الأعمال والأيام» ٢- ١٩٧ - . . ٢.

(٦) يفسر يوحنا فم الذهب «الأقمصة من الجلد» (تكوين٣:٢١) بأنها تعني الزواج.

هل الزواج أفاد إبراهيم حتى صار له أولاد ؟ ألم يصرخ قائلاً بعد سنين عديدة من الزواج قائلاً «أيها السيد الرب ماذا تعطينى وأنا ماض عقيماً (تكوين١٥:٢٢)، وهكذا فكما كان منذ البدء أعطى الله أصل وأساس شعوب كثيرة من الأجساد الميتة لإبراهيم وسارة، هكذا كان أيضاً منذ البدء، فلو أطاع آدم وحواء وصاياه وتغلبا على متعة الأكل من الشجرة، ما كان الله قد أعيته الحيل لزيادة الجنس البشرى، لأن الزواج بدون إرادة الله لا يمكن أن يكون سبباً فى إيجاد كائنات حية كثيرة، وما كانت البتولية هى السبب فى القضاء على السكان لو أن الله أراد أن يكون هناك أناس كثيرون، ولكن الله أراد أن يتم الأمر بهذه الطريقة، كما يقول الكتاب بسببنا وعصياننا.

فى البتولية يصعب بل يستحيل مقابلة مشاكل الزواج. بينما فى الزواج يصعب عدم وجود مشاكل، وإذا كانت الأحداث والمصائب غير المواتية تحدث فى الكثير من الزيجات السعيدة فما الذى يمكن أن يقال بشأن أولئك الذين لا تعد زيجاتهم كذلك؟ إن المرأة لا تخشى موتاً واحداً فقط (بعد الزواج)، مع أنها هى نفسها سوف تموت مرة واحدة وإلى الأبد، وهى لا تقلق على نفس واحدة فقط، مع أنها لا تمتلك إلا نفساً واحدة، بل أنها ترتعب فيما يتعلق بزوجها، وأطفالها، وعائلاتهم ، النساء والأطفال، وكما يمتد الجذر ويتفرع لفروع كثيرة، هكذا يكون قلقها أكثر مما ينبغى لها. وفى حالة كل واحد من أقاربها، فقد يعانى أحدهم من خسارة أو من مرض جسدى أو حادث مؤسف. فالضرورة تجعلها باكية ومنتحبة بقدر لا يقل عن الضحايا أنفسهم، ولو مات كل واحد قبلها فحزنها لا يكون محتملاً بينما لو ظلوا على قيد الحياة ومات الآخرون ميتة مفاجئة فإنها لا تجد فى هذه الحالة من يواسيها.

٢،٥٦. بالنسبة للخوف الدائم على الأحياء والذى يهز أعماقها، فهو ليس بأقل من الحزن الذى يعتصر قلبها على المتوفين. وإذا كان لابد لى أن أقول شيئاً مذهلاً، فإنه أصعب من أن يحتمل، لأن عامل الزمن يخفف من حدة الكآبة على الموتى، ولكن القلق على الأحياء يزداد حدة ويأتى بنتيجة واحدة هى الموت، وإذا لم تكن معاناتنا كافية فأى نوع من الحياة نعيشها عندما تكون مضطرين أن نحزن لمصائب الآخرين؟ وكثير من النساء ولدن من أبوين مشهورين ونشأن فى بحبوحة العيش تم زواجهن من بعض الرجال ذوى النفوذ ثم فجأة وقبل أن يشعرن بالسعادة لهذه الأشياء، يحدث خطر كالعاصفة أو الإعصار يعصف بهن، وهن أيضاً قد يشاركن فى أهوال تحطم السفن واللاتى تمتعن منها قبل الزواج بآلاف الطيبات، فإنهن قد

يواجهن خلال الزواج الطامة الكبرى. ولكن قد يقول أحد المعترضين «إن هذه الأشياء ليس من المحتمل حدوثها فى كل الزيجات ولا تحدث بالضرورة، وهى ليست مختلفة عن أى شخص آخر»، وهنا أريد أن أركز على ما أهدف إليه ثانية: إن نفس الشىء يحدث سواء كنت من بين أولئك الذين تأتيهم التجربة فجأة ، أو ضمن أولئك الذين يتفادونها. ولكنك تحزن عليها من خلال توقع حدوثها. ولكن كل عذراء، على النقيض من ذلك، تسمو على التجربة نفسها وعلى توقع حدوثها فى نفس الوقت. إن آباء الكنيسة بحماسهم للبتولية يمكن أن يوجه إليهم النقد للحط من قدر الزواج، وتبنيهم لفكرة هرطوقية تتعلق بالشر الكامن فى الاتصال الجنسى. ومع أن التهديد الغنوسى لم يعد مسيطراً على الإدراك المسيحى، إلا أن الكتّاب المسيحيين كان عليهم أن يدافعوا على حثهم على البتولية ضد الاتهامات بالهرطقة، (فجيروم Gerome وهو مسيحى من أواخر القرن الرابع عاش فى روما ثم فى أحد أديرة بيت لحم كان ضمن هؤلاء الكتّاب، قال أحد خصومه (جوفنيان Jovinian) إن آراء (جيروم) وثيقة الصلة بآراء الهراطقة، وقد كتب (جوفنيان) كتاباً شهيراً دافع فيه عن الزواج، وقال إنه لا فرق بين العذارى والأرامل والمتزوجات طالما اشتركن كلهن فى معمودية مسيحية واحدة: فلا فضل خاص يمكن زعمه للتبتل. فى سنة ٣٩٣ **رد (جيروم) على ذلك بما أسماه «الرد على جوفنيان»** وهو كتاب ملىء بالتهكم واحتقار الزواج لدرجة جعلت أصدقاءه يحاولون أن يمنعوا توزيع الكتاب، ومع أن (جيروم) أثار الشك فى أن (جوفنيان) أراد ببساطة أن يحط من قدر البتولية بهذا التمجيد المتحمس للزواج إلا أنه كان عليه أن يحمى نفسه من الاتهام بالهرطقة، كما نجد إيضاحاً فى هذه الأقوال المختارة.

أولاً ٣،. [٧] إننا بالحق لا نتبع تعاليم (ماركيون ومانى)، ولا نحط من قدر الزواج، ولا نحكم على أى اتصال جنسى بأنه نجس، ولم ننخدع بخطأ (تاتيان Tatian رئيس (الانكراتيتس Encratites)[٨] والذى يدين ويرفض ليس الزواج فقط، بل الطعام أيضاً الذى خلقه الله لأجلنا ونحن نعلم أنه فى منزل كبير توجد زهريات ليس من الذهب والفضة فقط، بل أيضاً من الخشب والصلصال، وأنه على أساس المسيح الذى بناه المهندس المعمارى بولس، يبنى البعض بذهب أو فضة أو أحجار كريمة، بينما يبنى الآخرون بقش أو خشب، ونحن لا

(٧) Text: Pl 23.223

(٨) طائفة مسيحية شديدة التطرف في التبتل ازدهرت في أواخر القرن الثاني.

نجهل أن «الزواج مكرم والمضجع غير نجس» (عبرانيين ١٣:٤)، ونقرأ الأمر الإلهى «أثمروا واكثروا واملأوا الأرض» (تكوين١:٢٨)، ولكن تماماً كما نقبل الزواج، فنحن نفضل البتولية الناشئة من الزواج. والآن فهل الفضة ترفض أن تكون فضة ما دام الذهب أغلى منها؟ أم هل هى إهانة للشجرة وللقمح، لو فضلنا الثمرة على الجذر، فالأوراق والسنبلة على الساق، والخبز على القمح؟ فكما أن الثمرة من الشجرة، والبذور من القش هكذا فالبتولية من الزواج.

ومع أن ثمار المئة ضعف والستين ضعفاً والثلاثين ضعفاً تنتج من أرض واحدة، ومن يد زارع واحد إلا أنها تختلف كثيراً فى العدد. فالثلاثون ضعفاً تشير للزواج والستون ضعفاً للأرامل..والمئة ضعف . .تعبر عن تاج البتولية[٩].

يبنى **(جوفنيان)** دفاعه جزئياً على أساس أمثلة الكتاب المقدس عن الناس الذين تزوجوا. فيرد عليه **(جيروم)** :

أولاً،١٦. علينا نحن أيضاً أن نجارى استفساره، ونبين أن العفة دائماً كانت مفضلة على الزواج، ويجب أن ننبر على أن آدم وحواء كانا طاهرين فى الفردوس (جنة عدن) قبل الخطية، وأنهما بعد ارتكاب الخطية وخارج الفردوس تزوجا فى الحال. والمسيح فى الجسد كان بتولاً، وتزوج مرة واحدة زواجاً روحياً بالكنيسة لأن له كنيسة واحدة يقول عنها نفس الرسول بولس:«أيها الأزواج أحبوا نساءكم كما أحب المسيح الكنيسة» (كولوسى٣:١٩، أفسس٥:٢٥)...

إن (صورة) الخالق ليست موجودة فى قيد الزواج، وعندما يمحى فارق الجنس ونخلع (الإنسان العتيق) ونلبس الجديد (كولوسى٣:٩-١٠)فإننا نولد فى المسيح من جديد، البتول والذى وُلد من عذراء ووُلد من جديد عن طريق بتول آخر [١٠] فالزواج يملأ الأرض، ولكن البتولية تملأ الفردوس.

أولاً،٣٣. يقول (جوفنيان): «فلنفرض أن حالتىّ الزواج والبتولية مختلفتان، فماذا يكون الرد على هذه النقطة؟ إذا عُمّدت عذراء وأرملة وظلا هكذا، فما الفرق بينهما؟ وما قلناه عن بطرس ويوحنا وحنّة ومريم قد يفيد فى هذا النقاش الحالى، لأنه إذا لم يكن هناك فرق بين عذراء قد عُمدت وأرملة قد عُمدت (حيث أن المعمودية تخلق إنساناً جديداً) فعلى نفس هذا

(٩) تفسير لمثل الزارع (مرقس٩:٧-٩، متى ١٣:١-٩، لوقا٨:٤-٨).

(١٠) ربما تكون هذه إشارة لمعمودية يوحنا المعمدان ليسوع.

الأساس فإن العاهرات إذا عمّدن يصبحن مساويات للعذارى. لأنه إذا كان الزواج السابق لا يضر الأرملة إذا عمدت، فنفس الشيء ينطبق على الزانيات، فعلى الرغم من ملذاتهن السابقة وتعريض أجسادهن للرغبات الحسية الشهوانية، فإذا قبلن المعمودية فيتبع ذلك (طبقاً لرأى جوفنيان) أنهن ينلن مكافآت البتولية. فإن تتحد مع الله بعقل نقى دون تذكر ما ينجس الفكر شيء، وأن تفعل ذلك مع تذكر العلاقات الجنسية التى كان لا يمكن تجنبها مع رجل، وأن تستعيد فى الذاكرة ما لم تعد تستطيع فعله فى الجسد فهذا شيء آخر..إنى لا أنكر أن الأرامل اللاتى يبقين بعد ترملهن بلا زواج مباركات، ولا أقلل من شأن النساء اللاتى يبقين مع أزواجهن دون اتصال جنسى، ومع هذا فكما أن لهؤلاء النساء مكافأة أسمى من الله عن النساء المتزوجات اللاتى يستجبن لمتطلبات الزواج، فهكذا أيضاً ندعهن إذن بعقل مفتوح أن يعترفن بأن البتولية أفضل من حالتهن، لأنهن إذا ثرن ضد النساء المتزوجات بعد الحصول على جرعات متأخرة من العفة الزوجية، فلماذا لا يعترفن بأنهن فى مرتبة أدنى من مرتبة التبتل الدائم؟

أولاً،٣٦. ولكنك قد تقول «لو كان كل الناس بتولاً فكيف يمكن للجنس البشرى أن يستمر؟» وسأعرض عليكم أشياء مشابهة للتأمل، لو كل السيدات كن أرامل، أو ظللن ممتنعات عن الاتصال الجنسى فى الزواج. كيف يمكن للجنس البشرى أن يتكاثر؟ بمثل هذا المنطق سوف لا يكون هناك شيئ على الإطلاق لو بطل شيء ما. فعلى سبيل المثال لو أصبح الجميع فلاسفة سوف لا يكون هناك فلاحون؟ ولماذا أتحدث فقط عن الفلاحين، لن يكون هناك خطباء أو محامون أو مدرسون لباقى الوظائف، ولو كان الجميع ضباطاً فمن يكون الجنود؟ ولو كانت كل أعضاء الجسم رأساً فمن الذى يقوم بعمل سائر الأعضاء الأخرى؟

هل أنت تخشى أنه إذا تحول الكل إلى البتولية، لتوقفت البغايا عن العمل، ولما كانت هناك زانيات، وأنه لن يكون هناك لقطاء فى المدن؟ ولو أريق دم الزناة والزوانى، وأدينت جرائم الزنى ألا تظل الشهوة متأججة وسط من بيدهم زمام الأمور، ومن يعتلون كراسى القضاء؟. لا تخشى أن يصير الكل بتولاً: فالبتولية شيء صعب، وهو نادر لأنه صعب«لأن كثيرين يدعون وقليلين ينتخبون» (متى٢٢:١٤). فالبتولية فى نظر البعض هى طريق الأقلية رغم أن المكافأة عظيمة لمن يثبت. ولو أن الكل كان قادراً عليها لما كان السيد قد قال ..من استطاع أن يقبل فليقبل (تس١٩:١٢). ولما كان الرسول قد تردد فى توصيته «وأما العذارى فليس عندى أمر من الرب فيهن» (كورنثوس الأولى٧:٢٥).

وقد تسأل «لماذا خُلقت الأعضاء التناسلية، ولماذا خلقنا الخالق الحكيم بمثل هذا التكوين حتى يشتاق كل جنس منا للآخر، ويشعر بالمتعة فى الاتصال الطبيعى؟»، تضعنا الإجابة على هذا التساؤل بين نارين[11] كصخرتى البحر الاسود: نار الضرورة، ونار الحياء، وكل واحدة فى ناحية ونحن نخشى من تحطيم السفينة، سواء بسبب خجلنا أو بسبب قضيتنا، فإذا أجبنا على هذه النقطة، فإننا نحمر خجلاً، ولكن إذا نجح الحياء فى إسكاتنا فإننا نتنازل عن موقفنا، ونعطى الفرصة لهجوم غريمنا، ومع ذلك فمن الأفضل كما يقولون أن نغمض أعيننا ونقاتل على طريقة (انداباتا Andabatae[12]) من أن نصد هجوم السهام المصوبة بدرع الحق.

إنى أقول حقاً إن الجزء الخلفى من الجسم، والممر الذى تخرج منه إفرازات البطن بعيد عن العينين وموضوع فى ظهورنا، وهكذا أيضاً بالنسبة لما تحت البطن، الأجزاء المخصصة لفصل السوائل التى تروى الأوعية الداخلية للجسم: كلها قد صنعها الله، ولكن نفس تكوين هذه الأعضاء، والأعضاء التناسلية تلك التى تميزنا عن النساء، ووعاء الرحم المصمم لاستقبال واحتضان الجنين، تعلن اختلاف الجنس، فأجيب على النقطة باختصار:

دعنا لا نكف عن الشهوة لئلا نحمل أعضاء من هذا النوع عبثاً، إلا أنه لماذا يمتنع الزوج عن العلاقات الجنسية مع زوجته؟ ولماذا تظل الأرملة طاهرة إذا كنا مولودين لهذا الغرض حتى نعيش على شاكلة الحيوان؟ أو ما الذى يضيرنى إذا نام رجل آخر مع زوجتى؟ لأنه كما أن وظيفة الأسنان هى المضغ لدفع ما هُضم إلى المعدة، وليست جريمة أن يعطى رجل لزوجتى طعاماً، هكذا إذا كانت وظيفة الأعضاء التناسلية بطبيعتها أن تستعمل دائماً، فعندما أكون منهكاً فليقم رجل آخر بهذه المهمة، وإذا كان الأمر هكذا، فلتطفىء زوجتى شهوتها كما اتفق! ومع ذلك فما الذى يقصده الرسول عندما يحثنا على ضبط النفس إذا كان ضبط النفس ضد الطبيعة؟ وما الذى يقصده الرب نفسه الذى يعلم عن الأنواع المختلفة من الخصيان؟ (متى١٩: ١٢).بالتأكيد فالرسول الذى يحثنا على أن نكون مثله بلا زواج (كورنثوس الأولى٧: ٧) يجب أن يُطاع بالتأكيد. ويوجد من يسأله: فلماذا الأعضاء التناسلية يا بولس؟ ولماذا أنت مختلف عن جنس الإناث بلحيتك وشعرك وخصائصك الجسمية الأخرى؟ لماذا لا ينهد لك ثديان، ولماذا ليس لك أرداف عريضة وصدر ليس عريضاً؟ ولماذا لك صوت أجش،

---

(١١) صخرتان يصطدمان معاً في مدخل البحر الأسود كان المغامرون يضطرون للمرور بينهما.

(١٢) مصارعون كانوا يصارعون وهم مغمضو الأعين.

وحديثك أكثر حدة وحواجب أغزر شعراً. إن كل الخصائص الذكرية التى فيك عبث إذا لم تستغلها فى عناق النساء!. إنى مجبر على التكلم هكذا بسخف، ولكنك تدفعنى لكى أجرؤ على هذه الأقوال: إن ربنا ومخلصنا الذى مع أنه «كان فى صورة الله أخلى نفسه آخذاً هيئة العبد، لكى يكون مطيعاً للآب حتى الموت، موت الصليب» (فيلبى٢:٦-٨). فما الضرورة إذن أن يولد بتلك الأعضاء التى لن يستخدمها؟ بل أنه فى الحقيقة قد اختتن لبيان جنسه (لوقا ٢:٢١).. «فى القيامة لا يزوجون ولا يتزوجون بل يكونون كملائكة الله» (متى٢٢:٣٠). إن حالة البتولية تبدأ هنا على الأرض، فما الذى سوف يكون عليه الآخرون بعد ذلك فى السماء. فإذا كان الوعد لنا أننا سوف نكون كالملائكة (ومع ذلك فليس للملائكة جنس معين) فإما أن نكون بلا جنس كالملائكة أو بكل تأكيد، كما هو واضح، قد نُقام بجنسنا ولكننا لن نمارس الوظيفة الجنسية.

فى رسالته الشهيرة رقم ٢٢ إلى (استوكيوم Eustochium) وهى صديقته الارستقراطية الرومانية وابنتها (باولا Paula، يظهر (جيروم) فضيلة البتولية على الزواج، فقد اختارت (استوكيوم) منذ شبابها المبكر حياة البتولية الدائمة، ويبرز (جيروم) فى رسالة التهنئة لها، والتى يرجع تاريخها لسنة ٣٨٤ النقاط التالية:

٢٠.[١٣] إنى أمتدح حفلات الزفاف لأنه ينتج لى عذارى وبتولية، إنى أجمع الورد من الأشواك، الذهب من الأرض، واللؤلؤ من الصدف.

«هل يحرث الحارث كل يوم» (إشعياء ٢٨:٢٤) ألا يستمتع أيضاً بثمرة تعبه؟ إن الزيجات مكرمة لأن ما يولد نتيجة للزواج يصير محبوباً فلماذا أيتها الأم تحملين ضغينة لابنتك؟ لقد رضعت لبنك، وخرجت من رحمك، وتربت فى حجرك، وقد حفظتيها سالمة برعايتك اليقظة. فهل يسيئك أنها لا تريد أن تكون زوجة جندى لا بل ملك؟ لقد كرّمتك إكراماً عظيماً: لقد بدأت فى أن تصبحى حماة الله...

٢١. (ويفسر جيروم الأفكار المختلفة عن البركة الموجودة فى العهدين القديم والجديد): فى ناموس العهد القديم كانت هناك بركة أخرى «طوبى للرجل الذى له زرع فى صهيون وعائلة فى أورشليم» (إشعياء ٣١:٩ الترجمة السبعينية).

(١٣) Text: CSEL 54,170

وملعون العاقر التى لا تلد «بنوك مثل غروس الزيتون حول مائدتك» (مزمور١٢٨:٣)، وهناك أيضاً وعد بالخيرات «لا يكون هناك ضعيف من أسباطك» (مزمور ١٠٤:٣٧ و٧ الفولجاتا) ولكن الآن يقال «لا يقل الخصى ها أنا شجرة يابسة. إنى أعطيهم فى بيتى وفى أسوارى نصيباً واسماً أفضل من البنين والبنات. أعطيهم اسماً أبدياً لا ينقطع» (إشعياء ٥٦:٣-٥)، الآن الفقراء مطوبون ولعازر مفضل على الرجل الغنى اللابس البز والأرجوان (قارن لو١٦:١٩-٣١). لقد كان العالم خالياً، وبغير أن نستطرد فى تفسيرات رمزية فالبركة الوحيدة كانت هى بركة البنين ...لذلك قلنا، إن فضيلة ضبط النفس وجدت فقط بين الرجال، ومضت حواء وهى تلد دائماً فى ألم. ومع ذلك فبعد أن حملت العذراء فى رحمها وولدت لنا ابناً قيل عنه «وتكون الرياسة على كتفه» (إشعياء ٩:٦) الإله القوى والأب الأبدى فقد رحلت اللعنة. لقد جاء الموت عن طريق حواء، والحياة عن طريق مريم، ولهذا السبب أيضاً فإن البركة البتولية تحل بقوة على النساء، لأنها بدأت بالمرأة، وبعد أن جاء ابن الله إلى الأرض، أسسس لنفسه عائلة جديدة، حتى إن ذاك الذى كانت تعبده الملائكة فى السماء تكون له أيضاً ملائكة على الأرض...

إن ترتيب الأحوال المعيشية للنساء اللاتى أخذن على أنفسهن عهد التبتل المسيحى كانت تمثل مشكلة للكنيسة، فقبل أوائل القرن الرابع نشأت مجتمعات الإناث المتبتلات فى مصر على نمط الأديرة التى أسسها (باخوميوس Pachomius) للرجال، والذى بدأ يتحول من الرهبنة الانعزالية فى الصحراء للرهبان نحو ممارسة أديرة الشركة، والكتاب القبطى «حياة باخوميوس» يبين أن بطله بنى أول دير للنساء لأخته مريم بعد مدة وجيزة من دير الرجال الذى كان قد أسسه، ومنه نفهم أنه فى البداية كانت القواعد المتبعة فى دير الرجال هى نفسها كانت متبعة لدى الراهبات من النساء، ورهبان الصحراء هؤلاء فى أوائل القرن الرابع كان لهم تأثير كبير على تطور نموذج الرهبنة فى المسيحية السائدة فى كل من روما واليونان، وفى تأبين جيروم لصديقته (مارسيلا Marcella) على سبيل المثال يذكر أن دافعها الأساسى لحياة الرهبنة قد جاء من سماعها القصص عن رهبان الصحراء.

(وبالاديوس Palladius) وهو كاتب من القرن الخامس قد وصف حياة الرهبان المسيحيين المشهورين فى كتابه **«التاريخ اللوزياكى Lausiac History»** وهو يلقى الضوء هنا على حياة مجتمع الراهبات المسيحيات الذى أسسه (باخوميوس) فى (طبانسين Tabennisi).

٣٣. (١٤) وبخلاف هؤلاء الرجال كان هناك أيضاً دير لحوالى أربعمائة امرأة، كان لهن نفس الترتيبات ونفس طريقة الحياة باستثناء العبادة. وكان دير النساء عبر النهر، أما الرجال فلهم دير آخر فى الجانب المقابل.

وعندما كانت تموت واحدة من العذارى كانت العذارى الأخريات يعملن الاستعدادات لدفنها، فكنّ يحملن جسدها، ويضعنه على ضفة النهر، فكان الإخوة من الرجال يعبرون النهر فى قارب، ويحضرونها إلى الجانب الآخر من النهر وهم يحملون أغصان الزيتون والنخيل وينشدون المزامير ثم يدفنون الجثة فى المقبرة المشتركة، وكان من غير المسموح لأحد، سوى الكاهن والشماس، بالعبور إلى دير النساء، ولا يحدث هذا إلا أيام الآحاد. وإليك ما حدث فى هذا الدير المخصص للنساء:

فقد جاء ترزى (خياط) من العالم الخارجى، وكان يبحث عن عمل، ثم عبر النهر جهلاً بالقواعد، وجاءت واحدة من الأخوات الصغيرات السن (لأن المكان كان عبارة عن صحراء) واستمعت إلى ما حدث له وردت عليه بالقول « لدينا خياطون»، وحدث أن رأتها واحدة من بنات الدير بعد مرور بعض الوقت، حدث شجار بينهما، فاتهمت الأخيرة بنية شريرة وهى ممتلئة غضباً- وزوراً وشكتها إلى بقية الأخوات، واشترك بعض منهن فى هذا الاتهام، فحزنت الأخت المتهمة من جراء تحمل هذا التشهير (لأنها لم تكن تنوى فعل أى شىء من نوع الفعل الذى اتهمت به) ولأنها لم تستطع تحمل ذلك، فقد رمت نفسها سراً فى النهر وماتت. أما الأخت التى شهرت بها وهى عالمة أنها اتهمتها زوراً بالشر، وأنها مسئولة عن هذا الذنب، لم تستطع أن تتحمل الحادثة وخنقت نفسها، فقام الأخوات الأخريات بإبلاغ الموضوع إلى الكاهن، وعندما جاء أمر بعدم تقديم ذبيحة لأى منهما، وقام بعزل أولئك الأخوات اللاتى يرفضن العيش فى سلام، واللاتى صدّقن القصة حتى بعد أن علمن أن الاتهام كان تشهيراً قام الكاهن بحرمانهن لمدة سبع سنوات.

وفى أواخر القرن الرابع، عندما غزت روح الرهبنة روما، نبذت العديدات من النساء الرومانيات الأرستقراطيات حياتهن العالمية، وتركن ممتلكاتهن ورحلن إلى الأرض المقدسة حيث أسسن أديرة لكل من الرجال والنساء بالقرب من البقاع المقدسة عند المسيحيين.

(١٤) Text: The Lausiac History of Palladius, ed.c. Buter Cambridge, 1898, rP Hildesheim.1967,96.

(وميلانيا Melania) الشيخة والتى سترد قصتها فى الفصل الخامس أنشأت ديراً للنساء فى أورشليم فى الربع الأخير من القرن الرابع، وأسست (باولا Poula) صديقة (جيروم) ديراً آخر للنساء فى بيت لحم فى أواخر القرن الرابع، وتحوى **رسالة (جيروم) رقم ١٠٨** تذكاراً (لباولا) ، ويصف فيها (جيروم) تنظيم الدير وروتين الحياة فيه.

٢. [١٥] سوف أتحدث عن نظام ديرها، وكيف استفادت من ضبط النفس الذى مارسته القديسات. لقد زرعت الجسديات حتى تحصد الروحيات (قارن كورنثوس الأولى٩: ١١)، لقد قدمت الأرضيات حتى تنال السماويات، ونبذت الأشياء القصيرة الأمد حتى تستبدلها بالأشياء الدائمة. فبعد أن أسست ديراً للرجال تركت الرياسة فيه لهم، ووزعت الراهبات التى جمعتهم من أقاليم مختلفة (عدد منهن من الطبقات العليا والوسطى والدنيا) على ثلاثة أقسام وأديرة، وعند العمل أو تجهيز الوجبات كنّ ينفصلن عن بعضهن البعض ويجتمعن معاً لإنشاد المزامير وللصلوات، وبعد إنشاد ترنيمة هللويا، التى كانت تجمعهن معاً، لم يكن يُسمح لأحد بالانسحاب سوى، (باولا) الأولى أو ضمن الأوائل، كانت معتادة على انتظار الأخريات اللاتى يأتين للاجتماع، وتدفعهن لأداء عملهن ليس عن طريق التخويف، ولكن بحياتها والمثال الذى تقدمه.

وفى الصباح الباكر وفى الساعات الثالثة والسادسة والتاسعة وفى المساء وفى نصف الليل، كن ينشدن سفر المزامير بانتظام، ولم يكن يسمح لأحد من الأخوات أن تجهل سفر المزامير وكنّ يتعلمن شيئاً من الكتاب المقدس يومياً.

ويذهبن إلى الكنيسة في يوم الأحد فقط وكانت الكنيسة قريبة من الدير، وكان لكل فريق أم ترأسه، ومن هناك يرجعن بنفس الطريقة لكى تؤدى كل واحدة عملها المحدد، وكن يعملن الملابس سواء لأنفسهن أو لأخريات، ولو كانت إحداهن رفيعة النسب لم يكن يسمح لها أن تتخذ لها خادمة من بيتها، لئلا عن طريق الأحاديث المتواصلة بينهما تثار وتتجدد الأخطاء القديمة بتذكر الأفعال السابقة ومرح الطفولة، وكنّ يلبسن زياً موحداً ويستخدمن الكتان فقط لتجفيف أيديهن، وكنّ ينفصلن تماماً عن الرجال لدرجة أن باولا فصلتهن عن الخصيان حتى لا تعطى الفرصة للألسنة لتلوك سيرتهن، وكانت على استعداد لتوبيخ القديسات على عيوبهن،

---

(١٥) Text: CSEL 55.334.

فإذا وجدت (باولا) واحدة من الأخوات تبطيء أكثر من اللازم في حضورها للاجتماع لإنشاد المزامير أو تبطيء في أداء العمل كانت تقترب منها بعدة طرق، فإذا كانت الأخت حادة الطبع تقابلها بالإغراءات، ولو كانت غير مطيعة تقابلها بالتوبيخ، وهكذا كانت تحاكى القول الرسولي: «ماذا تريدون. أبعصا آتى إليكم أم بالمحبة وروح الوداعة» (كورنثوس الأولى ٤:٢١). ولم تكن تسمح لأحد أن يمتلك شيئاً بخلاف القوت والكسوة، كما قال الرسول «إن كان لنا القوت والكسوة فلنكتف بهما» (تيموثاوس الأولى ٦:٨)- لئلا تنشأ عادة تملك شيء يعطى فرصة أكثر للجشع الذى لا يشبعه أية كمية من المال، وكلما تملك أكثر كلما طلب المزيد، ولا يقلل من حدته الرخاء أو الفقر، وعندما كانت الأخوات تتشاجرن مع بعضهن كانت تجمعهن معاً بأرق الكلمات، وحتى عندما كانت الأخوات صغيرات السن تقهرن الشهوات الجسدية، كانت تسحقها بمضاعفة الصيام مفضلة أن يعانين من آلام المعدة عن آلام الروح، ولو رأت (باولا) أختاً مزينة بأكثر مما يجب، كانت توبخها بتقطيب الجبين ووجه حزين قائلة لها: «إن الجسد النظيف واللباس النظيف يوحى بنفس غير نظيفة، والكلمة المعيبة أو الملتوية لا يصح أن تصدر من فم راهبة، وبهذه العلاقات يظهر الفكر الخليع، وبأخطاء الإنسان الداخلية تظهر أخطاء الإنسان الخارجية». وعندما كانت (باولا) تلاحظ أختاً ثرثارة ومهذارة وجريئة أكثر من اللازم، وتسعد بالخصومات بعد أن تكون قد بينت لها أخطاءها دون جدوى، كانت تصنفها ضمن المراكز الدنيا خارج اجتماع الأخوات، وتجعلها تصلى عند أبواب حجرة الطعام، وتأخذ طعامها وحدها، حتى يدفعها الخجل لتصحح من سلوكها حيث إنها لم تنصلح بالاحتجاج على سلوكها. وكانت تكره السرقة كما لو كان تدنيساً لحرمة المعابد، وكانت تقول: «إن من ينظر إليه باستخفاف أو كأنه لا شيء يعتبر في الدير خطأ خطيراً». ويعوزنى الكثير لأتحدث عن شفقتها وعنايتها بالمرضى، وكيف كانت ترعاهم وتعتنى بهم بحساسية مفرطة. عندما كان يمرض الآخرون، كانت تمدهم بكل شيء بوفرة، وحتى اللحم كانت توفره لهم ليأكلوا، ولكن عندما كانت هي نفسها تمرض لم تكن تهتم بل كان الأمر يختلف في هذه الحالة: فقد كانت تستبدل الشفقة والعطف على الآخرين بالقسوة على نفسها.

لم يخبرنا (جيروم) عن أية قاعدة معيّنة كانت سارية في دير (باولا)، بالرغم من وجود بعض القواعد التنظيمية والانضباطية بالتأكيد. وأول قصة مكتوبة عن مثل هذه القواعد في أديرة الإناث يكتبها أوغسطينوس، فقد أسس ديراً للنساء بعد عودته من إيطاليا إلى شمال

أفريقيا وعهد إلى أخته بإدارته، وقد واجهت خليفتها كرئيسة للدير بعض المشكلات التنظيمية التى تزامنت مع (**رسالة أوغسطينوس رقم ٢١١**) فى ٤٢٣م، ومن بين القواعد التنظيمية التى وضعها للراهبات فى الدير ما يأتى:

٥.[(١٦)] هذه هى القواعد التى نضعها للاتّباع فى الدير: أولاً لأنكن فى مجتمع واحد يجب أن تكون لكنّ صلة قوية بهذا البيت، وتكنّ «بقلب واحد ونفس واحدة» (أعمال٤:٣٢). ولا يجب أن يكون هناك شيء ملك خاص بل ليكن كل شيء مشتركاً. يجب السماح للرئيس بتوزيع الطعام والأغطية لكل واحدة منكن، ولكن ليس نفس الشيء لكل واحدة، لأنكن غير متساويات فى القوة، ولكن لكل واحدة كما يكون لها احتياج، لأنكنّ هكذا تقرأن فى أعمال الرسل أنه «كان عندهم كل شيء مشتركاً، وكان يوزع على كل أحد كما يكون له احتياج» (أعمال ٤:٣٢،٣٥)، وأولئك الذين كان عندهن شيء فى العالم عندما يدخلن الدير فليجعلنه مشتركاً عن طيب خاطر، ومع ذلك فاللاتى لم يكنّ عندهن مثل هذه الأشياء، فلا يبحثن فى الدير عما كان ينقصهن فى الخارج. ومع هذا فإذا كن مرضى فليمنحن كل احتياجهن، حتى وإن حال فقرهن فى العالم الخارجى دون الحصول على احتياجهن، ولكن لا يصح أن يعتقدن أنهن الآن محظوظات لأنهن يحصلن على طعام وملابس من النوع الذى لم يكن متاحاً لهن فى الخارج.

٦. ولا يرفعن رؤوسهن فى كبرياء، لأنهن يتصلن بسيدات ما كن يجرؤن على الاقتراب منهن خارج الدير، ولكن ليرفعن قلوبهن ولا يفتشن عن الأشياء العالمية لئلا تبدأ الأديرة فى السعى لفائدة الأغنياء وليس الفقراء. إذا كانت الأديرة تحط من شأن الأغنياء، وتبث الكبرياء فى نفوس الفقراء، ومن الناحية الأخرى فاللاتى يبدو أنهن شيء فى هذا العالم فلا يعبرن عن استيائهن من أخواتهن اللاتى أتين لهذه الشركة المقدسة من الفقر، بل ليفتخرن بصحبتهن لأخواتهن الفقيرات بدلاً من افتخارهن بوالديهن الأغنياء، ولا يتكبرن إذا ساهمن بشيء من ثروتهن، بل ليكون مشتركاً لئلا يتباهين بثروتهن، لأنهن شاركن بها فى الدير أكثر مما لو كن استمتعن بها فى العالم. لأنه بالحقيقة كل نوع من الشرور يستغل الأفعال الشريرة لتحقيق غايته، ولكن الكبرياء بالحق تشق طريقها نحو الأعمال الصالحة حتى إنها تؤدى عبثاً، فما

---

(١٦) Text:CSEL 57..359

الفائدة من التفريط فى ما يمتلكه المرء بإعطائه للفقراء، ليصبح بعد ذلك هو نفسه فقيراً إذا كانت النفس التعيسة تصبح أكثر انتفاخاً وكبرياء باستخفافها بالثروة مما لو كانت تمتلكها؟ وهكذا يجب على الجميع أن يعيش فى وفاق وتناغم ممجدين الله فى بعضهم البعض لأنكم هياكل له (كورنثوس الأولى٣:١٦،كورنثوس الثانية ٦:١٦).

٨. سيطرن على أجسادكن بالصوم والامتناع عن الطعام والشراب، إلى الحد الذى تسمح فيه صحتكن بذلك، ومع ذلك فإذا لم تستطع أخت أن تصوم فلا ينبغى عليها أن تتناول أى طعام خلاف الوجبات المسموح بها إلا إذا كانت مريضة، ومنذ وقت اقترابكن من المائدة حتى موعد نهوضكن، استمعن إلى ما يقرأ عليكن كما هى العادة المتبعة، دون تشويش أو مجادلة حتى لا تلتهم أفواهكن الطعام فقط بل أيضاً تستمع آذانكن لكلمة الله.

١٠. لا يصح أن تكون ملابسكن منافية للذوق السليم، ولا أن تجاهدن لإرضاء أحد بملابسكن بل بسلوككن، لا تستعملن أغطية للرأس تكون شفافة لدرجة تسمح بإظهار شعر رأسكن تحتها، ولا تدعن أى جزء من شعركن يكون غير مغطى، ولا تخرجن إلى الخارج بشعر أشعث بإهمال أو مصفف بعناية زائدة عن الحد. وعندما تخرجن امشين مع بعض، وعندما تصلن للمكان المقصود قفن معاً. وفى مشيتكن أو وقوفكن وفى ملابسكن وفى كل حركاتكن لا تدعن شيئاً يثير شهوة أى أحد بل بالأحرى فليكن كل شىء مناسباً لطهارتكن..

١٢. ولترعى شئون ملابسكن امرأة أو اثنتين أو أى عدد حسب الحاجة، للعناية بها حتى لا تتلفها العث، وكما تطعمن من مخزن واحد هكذا يجب أن تكتسين من خزانة واحدة، وإذا كان ممكناً لا تضعن اهتمامكن فى نوع الملابس المناسبة للفصل، وسواء إن أخذت كل واحدة الثوب الذى وضعته أم ثوب آخر قد لبسته أخت أخرى، طالما أن الجميع قد حصلن على احتياجهن....وهكذا يتبع أيضاً أن ما يقدمه أى رجل أو امرأة لأولئك اللاتى يعشن فى الدير سواء كانت بناتهن أو من يرتبطون بهن بأية رابطة أخرى، وسواء يقدمن ملابس أو أى شىء آخر يبدو ضرورياً فلتكن الهدية علنية، ولتؤخذ تحت إشراف الرئيسة، حتى عندما تكون مشتركة للجميع يمكن أن تقدمها لمن تحتاجها، فإذا أخفت واحدة ما قدم لها فلتدان بحكم السرقة.

١٣. وطبقاً لقرار الرئيسة فلتغسلن ملابسكن، إما بمعرفتكن أو عن طريق إحدى العاملات لأن أية رغبة زائدة لملابس نظيفة قد تجلب النجاسة الداخلية لأنفسكن. وحتى اغتسال الجسد

واستعمال الحمامات لا يجب أن يتم بحكم العادة، بل يكون مسموحاً به في الفسحة المعتادة من الزمن-أي مرة كل شهر. ومع ذلك ففي حالة المرض عندما تحتم الضرورة اغتسال الجسد فيجب ألا يتأخر كثيراً جداً، وليتم طبقاً لنصيحة الطبيب دون تذمر. وحتى إذا لم ترد الأخت مثل هذا الحمام فلتفعل ما يجب عمله لأجل صحتها بأمر الرئيسة. ومع ذلك فإذا أرادته- وربما لا يكون من المفيد لها أن تفعل، فلا يجب الانصياع لرغبتها لأننا نعتقد أحياناً أن ما يسرنا مفيد، على الرغم من أنه يسبب لنا ضرراً ...وبالإضافة لذلك فالقائمات على شئون المخزن أو الملابس أو الكتب عليهن خدمة أخواتهن دون دمدمة أو تذمر، ولتطلب الكتب في ساعة معينة كل يوم، واللاتي يطلبنها بخلاف ذلك الوقت فلا تعطى لهن. ومع ذلك ففيما يختص بالملابس والأحذية فإن كانت هذه الأشياء ضرورية لمن هن في حاجة لها، فاللاتي في عهدتهن هذه الأشياء المبادرة بإعطائها.

١٥. ويجب إطاعة الرئيسة كأم مكرّمة، لأن في إكرامها إكراماً لله أيضاً، وبالمثل أيضاً إكرام الكاهن الذي يرعى شئونكن جميعاً، وهكذا يجب إطاعة هذه القواعد بواسطتها، وإذا لم يتم مراعاة شيء ما فعليها ألا تغض الطرف عنه بإهمال، بل عليها العناية به وتصحيحه، ومن واجب الرئيسة أساساً أن ما لا يدخل في نطاق اختصاصاتها عليها أن تبلغه للكاهن الذي يرشدكن..

والقواعد التي وضعها أوغسطينوس اتبعها المسيحيون فيما بعد لتطوير القواعد الجديدة للأديرة لكل من الرجال والنساء، وفي الحقبات الأولى من القرن السادس وضع الأسقف (**قيصروس من آرلز** Caesarius of Arlos) هذه القواعد للراهبات في دير كان قد أنشأه وأهداه ليوحنا المعمدان. وباتباع نمط مألوف الآن فقد آلت قيادة الدير الجديد لأخته قيصرية. وكتاب قيصروس (قاعدة العذارى القديسات) يعتمد اعتماداً كلياً على قاعدة أوغسطينوس، ويبين أن النساء قد أصبحن أكثر «تعلقاً» بأديرتهن. والمثال الذي يقدمه هو التأمل وليس الخدمة النشطة، وقبل موت قيصروس في حوالي ٥٤٢م. كان بالدير أكثر من مائتي سيدة، وبعض القواعد التي وضعها لنساء الدير كانت كما يلي:

٢.[١٧] ولأنه توجد أشياء كثيرة في أديرة النساء تخالف الترتيبات المعمول بها للرهبان

(١٧) Text: Regula Sanctarum Virginum, ed.G Morin (Bonn,1933),5.

فقد اخترنا قليلاً من نقاط كثيرة يمكن بموجبها أن يعيش الأعضاء القدامى مع الأعضاء الأصغر بموجب قاعدة، حتى يهدفن أن يتممن روحياً ما يرونه مناسباً لجنسهن.

هذه الأشياء تناسب نفوسكن المقدسة: إذا تركت فتاة والديها وأرادت أن تترك العالم وتدخل الحظيرة الروحية، حتى تستطيع بعون الله أن تهرب من بين أنياب الذئاب الروحية، فعليها ألا تخرج من الدير حتى وقت وفاتها، حتى وإن كانت فى كنيسة لا يجب أن تخرج من بابها.

٤. ولذلك فالتى تدخل بإرشاد الله حياة الرهبنة لا يسمح لها باستلام زيها الدينى فوراً، بل بعد اختبار إرادتها واجتيازها عدة اختبارات، بل تكون تحت إشراف إحدى كبار السن لمدة عام كامل، ولتظل مرتدية الملابس التى جاءت بها. أما فيما يختص بتغيير ملابسها أو الحصول على سرير فى عنبر النوم، فإنها تكون تحت إشراف هذه الأخت الكبيرة السن، وعندما ترى شخصيتها أو تكريسها،فإنها تجهد نفسها حتى تنظم كل ما يتعلق بها بسرعة أو ببطء.

٥. وبالإضافة لذلك فاللاتى يأتين إلى الدير كأرامل، أو اللاتى تركن أزواجهن أو غيّرن ملابسهن، لا يرحب بهن ما لم ينقلن كل ملكيتهن لمن يخترن، سواء بصك أو عن طريق الهبة أو بالبيع، حتى لا يحتفظن بشىء فى حوزتهن، وحتى يبدو أنهن قد تخلين عن ملكيتهن أو أنهن يحتفظن بها على أساس قول الرب «إن أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبع أملاكك»(مرقس. ١٠:٢١،متى١٩:٢١،لوقا١٨:٢٢).

«كل واحد منكم لايترك جميع أمواله لا يقدر أن يكون لى تلميذاً» (لوقا١٤:٣٣)، ولهذا السبب أتحدث إليكن يا بناتى العزيزات لأن النساء المكرسات واللاتى لديهن أملاكاً لا يمكن أن يصلن للكمال، وعلى هذا الأساس فحتى اللاتى دخلن الحياة الدينية دون أن تكون لهن رغبة لتنفيذ هذه القاعدة لا يسمح لهن باستلام الزى الدينى حتى يتحررن من كل معوقات هذا العالم.

٦. وأولئك اللاتى لا يستطعن وضع مواردهن تحت سيطرتهن، لأن والديهن على قيد الحياة أو اللاتى لا زلن قاصرات، مطلوب منهن التصرف فيها عندما تؤول إليهن من والديهن، أو عندما يصلن للسن القانونى. لذلك نحن نفرض ذلك عليكن خوفاً من مثال حنانيا وسفيرة، اللذان عندما قالا إنهما وضعا كل شىء عند أقدام الرسل جاءا بجزء فقط واحتفظا بجزء لأنفسهما (أعمال٥:١-١١)، وهذا عمل غير قانونى وغير مفيد.

٧. لا يسمح لإحداهن أن تحتفظ بخادمتها لكى تخدمها ولا حتى رئيسة الدير، ولكن إذا كانت النساء بحاجة لمن يخدمهن فليحصلن عليها من النساء صغيرات السن. وإذا كان ممكناً فلا يسمح للبنات الصغيرات بدخول الدير، ما لم يبلغن السادسة أو السابعة من العمر، وقد تعلّمن الحروف، بشرط الطاعة (أو يسمح لهن فقط بصعوبة) وبنات طبقة النبلاء أوعامة الشعب لا يسمح لهن بالدخول، سواء لتربيتهن أو لتعليمهن تعليماً عالياً.

٢٧. ولأن الأم رئيسة الدير يجب أن ترعى شئون الدير حتى تهتم بخلاص النفوس، ويجب أن تفكر على الدوام فى موارد الدير، وعن الحاجة للطعام الجسدى، وأن تكون قريبة لتتمكن من تحية الناس بحرارة، وأن ترد على الخطابات المخلصة، وأن تهتم بالصوف الذى تُصنع منه ملابس الأخوات، وأن يوضع تحت تصرفها كرئيسة للدير أو للمشرفة على شئون الغزل، وهكذا فباجتهادهن، فإن أية كمية من الملابس يمكن إعدادها بإخلاص وبحماس وبمحبة الله، حتى إنه كما يكون للأخوات أى احتياج فإنها توزع الملابس عليهن ببصيرة مقدسة.

٣٦. وقبل كل شيء وصوناً لسمعتكن لا تسمحن لأى رجل بالدخول إلى الجزء الخاص بالدير أو الكنائس المتصلة بالدير سوى الأساقفة والكاهن والشماس ومساعد الشماس، أو الشخصين اللذين يقرآن الكتاب المقدس أثناء القداس، اللذان يسمح سنهما وسلوكهما بتزكيتهما، ويحتجن إليهما لقراءة القداس. وعند الحاجة لإصلاح أو إنشاء سقوف أو أبواب أو نوافذ أو إصلاح شيء من هذا القبيل، فمثل هؤلاء العمال والخدم يمكن أن يدخلوا مع رجل الأمن إذا دعت الضرورة، ولكن بإذن الأم رئيسة الدير. ورجل الأمن نفسه غير مسموح له بدخول أى جزء من أجزاء الدير الداخلية سوى لهذه الخدمات التى ذكرناها من قبل -مع التدقيق الشديد- ولا يمكن دخولهم إلا بمصاحبة رئيسة الدير، أو أحد الشهود الذين يمكن الاعتماد عليهم حتى تتاح الخصوصية للنساء القديسات، لأن هذا ضرورى لهن.

٣٧. وبالمثل فالنساء المتزوجات أو الفتيات أو بقية النساء اللاتى فى ملابس علمانية ممنوعات من دخول الدير.

إن الحياة فى الأديرة المنظمة أصبحت النموذج المفضل لدى النساء والرجال الذين كانوا يرغبون فى أن ينخرطوا فى سلك التبتل المسيحى، ومع ذلك فمنذ أن كانت المسيحية فى المهد، وقبل قيام رهبنة الشركة فى القرن الرابع، كان الأمر الشائع أن يتم التكريس للتبتل بالإقامة فى منزل واحد يضم الرجال والنساء. ولكن الكنيسة نظرت إلى هذه الممارسة التى

كانت تسمى (الزواج الروحى) نظرة غضب، وحاولت القضاء على هذه الظاهرة، ولكن دون جدوى، وقد أثارت العديد من المشاكل فى عصر فم الذهب، ففى أواخر القرن الرابع أو أوائل القرن الخامس كتب فم الذهب بحثين عن هذا الموضوع، واحد منهما موجه للرجال والآخر للنساء، وقال «إن الزواج الروحى» كان يعرّض ممارسيه للإغراء الجنسى، وأتاح الفرصة للذين من خارج الكنيسة للتشهير. وفى بحثه للنساء عن **«ضرورة حفظ البتولية»** يصوّر فم الذهب بوضوح موقفاً خيالياً ممكن أن ينشأ لو عاش رجل وامرأة معاً فى «زواج روحى».

. ١.[١٨] بما أنهم لا يخشون العين التى لا تغفل بل يخشون عيون البشر التى تسبب لهم المزيد من القلق، فدعنا نكشف أمرهم بتعريض تلك الأمور التى تخفيها الجدران والظلال، إلى ضوء النهار، أو دعنا بالأحرى إذا كان هذا مما يروقك، أن نفحص أولاً عن كثب ما يجرى داخل المنزل. ولنفترض أنهما يعيشان منفصلين فى حجرات متباعدة، لأنه لا أعتقد أن هناك رجلاً حتى إذا اختار أن يتصرف تصرفاً معيباً، يذهب به الشطط أن يجعل من نفسه عبرة للآخرين ويشين نفسه بالنوم فى نفس الحجرة مع عذراء. دع الجدران تفصلهما كل عن الآخر..وماذا بعد؟ إن هذا الشيء المسلم به ليس كافياً لعدم الشك فى سلوكهما! ومع ذلك فلنترك الشك فى الوقت الحاضر، ولا حتى لو عاش مع الرجل ألف عذراء، ولكن فلنفحص فى نفس الوقت الجانب الآخر من العار.

فمن باب المصادفة أن يقوم كلاهما من فراشهما فى وقت واحد ليس للصلوات والابتهالات الليلية (لأنه لا يتوقع من هذه النفوس أن تبدى الوقار الدينى، ويمر كل واحد منهما بجانب الآخر ثم يتحدثان كل منهما للآخر بالليل.فهل يمكن أن يكون هناك شئ أكثر من ذلك؟ ولوحدث أن المرأة مرضت فجأة فالجدران عندئذ لا تصلح كساتر بينهما، فالرجل يقوم قبل الآخرين ليجلس بجوار العذراء المريضة مستغلاً مرضها كحجة، وبما أنه غالباً ما يتم الاستغناء عن الخادمات لتكاسلهن فى العمل، فإنه يجلس بجوارها ليهتم بقضاء حاجاتها، تلك الحاجات التى لا تصلح سوى السيدات لأدائها، وهى أيضاً لا تخجل من ذلك بل تشعر بالفخر، والرجل لا يحمر خجلاً بل يفرح بشدة، وكلما كانت الخدمة التى يقوم بها مخجلة كلما ازداد فرحه. إن هذه الأعمال ينطبق عليها قول الرسول «مجدهم فى خزيهم» (فيلبى٣:١٩). وعندما تقوم

(١٨) Text Saint Jean Chrysostome: Les Cohabtations Suspectes, Comment Observer la Verginit' ed Jean Dumortier cporis, (1955).

الفتيات الأخريات يكون الخزى أعظم لأنهن يجرين لوجوده برأس مكشوف وأذرع عارية، غير مرتديات شيئاً سوى سترة طويلة شفافة، وذلك بسبب إيقاظهن فى الليل ونهوضهن مذعورات، أو فلنتصور الرجل وهو ينتقل من مكان لآخر مسرعاً وسطهن، بينما المطلوب منهن القيام بكل الأعمال. أى شيء يجلب العار أكثر من ذلك؟ وحتى لو كانت ممرضة تقوم على خدمة المريضة، فالرجل لا يخجل ويمتلىء غروراً عندما تصل الفتيات البكر من خارج البيت، لأنه يركز على شيء واحد فقط وهو كيف يستعرض خدمته للسيدة المريضة، وهو غير مدرك أنه كلما أظهر اهتماماً أكثر كلما أساء لنفسه ولها. فلا عجب إذن ألا يحمر خجلاً أمام الممرضة. لأنه فى أحيان كثيرة حتى فى أثناء الليل لا يتردد هؤلاء الرجال فى القيام بأعمال الخادمات، وهم يجرون لمقر الممرضة، ولكن بعد أن تصل فإنهن يطردونه، حتى وإن كان لا يخجل فإنه يمضى على مضض. وفى اللحظة التالية تسمح له بالدخول ليجلس بجوارها، وحتى لو اخترع الواحد ألف طريقة لإشعاره بالخزى فما الذى يمكن أن يخترعه يكون أكثر إثارة للخزى من الأشياء التى يخترعها هؤلاء الرجال؟

١١.[١٩] وعندما يطلع النهار ويقوم الاثنان من الفراش، فلك أن تتخيل! انتبه! إنها لا يمكن أن تضع قدمها فى الحجرة الخارجية بغير أن تصاب بالهلع، لأنها غالباً عندما تدخل فإنها تجازف بالاندفاع نحو جسد رجل عار، وهو نفسه يتوقع ذلك، أحياناً يدخل بعد أن يعلن عن قدومه مقدماً، ومع ذلك أحياناً يدخل بلا حذر فيصبح سبباً لأضحوكة عالية. لا أريد أن أضيف شيئاً لذلك، فهذه الأشياء حتى وإن كانت تافهة فإنها يمكن أن تكون أساساً لشهوانية مثيرة للكثير من القيل والقال. هذه الأحداث وأسوأ منها تحدث فى هذا البيت.

ولكن عندما يعود للمنزل بعد رجوعه من السوق تفاجأ أيضاً بشيء غير مألوف. فبما أنه داخل إلى بيته الخاص، فهو ليس مضطراً أن يعلن عن قدومه، فيجد العذراء جالسة مع النساء وهو فى حالة من الخجل، وهى غالباً ما تتعرض لنفس الشعور، فالنساء يعتبرن أنه من العار استقبال سيدات أخريات، وكذلك بالنسبة للرجال فلا يصح لهم استقبال رجال آخرين، ولكنهم لا يرفضون أن يعيشوا مع بعضهم البعض، مع أنهم يرفضون حق الآخرين فى استقبال ضيوف من نفس الجنس. أى شيء أردأ من ذلك؟ فما هو أردأ من أن تجد الرجل يجلس بجانب امرأة تنسج وتمسك بالمغزل؟

---

(١٩) Text: CSEL 70.141

لماذا يتحدث أي واحد عن ثورات الغضب والمعارك؟ لأنه حتى برغم الصداقة الوثيقة بينهما فمن المحتمل حدوث مثل هذه الأمور، وقد سمعت أنا نفسى أن بعضاً منهم يستسلم للجسد، لأنه حيث لا توجد محبة روحية، فهذه هي النتيجة الحتمية لذلك، ولذلك تحدث كوارث مستمرة وفساد وتصبح العذراوات فاسدات وطائشات، حتى وإن ظل جسدهن دون ضير فإن مباد ءهن الأخلاقية تصاب بالتلف، فعندما تتعلم العذراء أن تناقش بعض الأمور بصراحة مع رجل، وأن تجلس إلى جواره وأن تنظر إليه، وتضحك في حضوره، وتشين نفسها بعدة طرق أخرى، دون أن تعتقد أن ذلك شيء مرعب، فإن حجاب العذراوية يصاب بالعطب وتداس الزهرة بالأقدام، ومن ثم فلا يخجلن من شيء ولا شيء يتجنبنه، بل على العكس يصبحن محصنات ضد الزواج وباعة متجولات فى تجارة زائفة رديئة النوع، إنهن يقمن بإعاقة نساء كثيرات يردن أن يصبحن جزءاً من نظام الأرامل متصورات أنهن قد وجدن تبريراً لأخطائهن الخاصة.

وبما أنهن يصبحن محتقرات من الجميع، حيث إنه حتى النساء المتزوجات لا يخجلن من هؤلاء العذارى حيث إن النساء المتزوجات منطقيات مع أنفسهن من جميع النواحى عن هؤلاء العذارى، لأنه من الأفضل بكثير أن تدخل فى علاقة زوجية مرةً واحدة أو حتى مرتين من أن تتصرف هكذا بطريقة غير لائقة مما يدفع الجميع لكى يتهمهن بالدعارة والفجور.

إن التمجيد المسيحى للتبتل حمل معه أيضاً هجوماً قوياً على الزواج الثانى لأن ترتليانوس الذى كتب حوالى ٢٠٠ ب. م قال: إن الزواج الثانى هو ببساطة استسلام للشهوة، وغير جدير بالمسيحيين الذين يجب أن يفكروا فى ملكوت السموات القريب واحتمال استشهادهم، وفى كتابه **"حضّ على العفة"** يكتب **ترتليانوس هذه الكلمات اللاذعة فى موضوع الزواج الثانى:**

٩. لو فهمنا ما قصده بولس تماماً فإن الزواج الثانى* ما هو إلا نوع من الزنا، لأنه حين يقول «أما المتزوج فيهتم فى ما للعالم كيف يرضى امرأته" (كورنثوس الأولى ٧:٣٢-٣٤)- فهو لا يقصد ذلك كأنه شيء أخلاقى، لأنه لا يمكن أن يهاجم اهتماماً شريفاً، إنه يريد أن تفهم كلماته على أنها تعنى أن المتزوجين معنيين باللباس والزينة وجذب الالتفات للجمال فى محاولة لجذب الأنظار، لأنه من ذكاء الشهوة الجسدية أن تُسر عن طريق الجمال والملابس، والشهوة فى الحقيقة هى سبب الزنى، ألا يوجد مظهر من مظاهر الزنى فى الزواج حيث إنه متضمن فيه حيث أن نفس الأفعال تحدث فى الاثنين؟ والرب نفسه قال "من نظر إلى امرأة

* لا يمكن قبول هذا الرأي بأن الزواج الثاني- بعد وفاة الزوج أو الزوجة يعتبر زنا ولم تقبل الكنيسة هذا الرأي ونجد في مكان آخر من هذا الكتاب أن الزواج الثاني أعتُبر خطية كسر نذر لو تم نذر ضبط النفس بعد وفاة الزوج في حالة الترمل.

ليشتهيها فقد زنى بها فى قلبه" (متى ٥:٢٨). فهل الرجل الذى ينظر إليها بقصد الزواج يفعل هكذا بشهوة أقل أو أكثر؟ وماذا لو تزوجها؟ إنه ما كان ليفعل ذلك ما لم يكن يرغب أن يتزوجها، وقد نظر إليها بنية شهوانية، إلا إذا كان من الممكن أن تتخذ زوجة لم يسبق لك أن رأيتها أو اشتهيتها! بالطبع هناك اختلاف كبير إن كان الزوج هو الذى يشتهى زوجته الخاصة به، أو الرجل غير المتزوج هو الذى يشتهى امرأة أخرى (هذا بخلاف أنه بالنسبة للرجل غير المتزوج فكل امرأة هى امرأة "أخرى" طالما هى زوجة رجل آخر)- فهو لا يصبح زوجاً بطريقة تختلف عن أن يصبح زانياً!

ولكن يعترض البعض قائلاً "ولكن القوانين تفرق بين الزواج والزنى" نعم، فما يميز بينهما هو وجود الشرعية أو عدم وجودها، وليس بسبب طبيعة الفعل ذاته. فما الذى يحدث بين الرجال والنساء عندما يتزوجون أو يزنون؟ إن ما يحدث هو الاتحاد الجسدى الذى ينتج شهوة ساواها الرب بالزنى.

وقد يسأل أحدهم: "هل أنت بذلك تهدم أساس الزواج بامرأة واحدة أيضاً؟" نعم، ولكن ليس دون سبب وجيه، لأنه حتى هذه الزيجات أساسها نفس هذا الخزى وهو الزنا، ولذلك "حسن للرجل أن لا يمس امرأة" (كورنثوس الأولى ٧:١)، ولهذا السبب فإن قداسة العذراء فى غاية الأهمية، لأنها بعيدة عن كل ما يمت للزنا بصلة، وبما أن هذه النقاط يمكن أن تثار للحضّ على العفة وضبط النفس حتى فى حالات الزواج مرة واحدة فكم بالأحرى تحفزنا لكى نرفض الزواج الثانى؟ فلتشعر بأنك فى مركز أفضل إذا أتاح لك الله فرصة الزواج مرة واحدة وإلى الأبد! وأنت مدين بالشكر إذا علمت أنه لم يدعك تتورط مرة أخرى، وإلا فإنك تسىء لنفسك بالانغماس حيث أنك تستعمل الزواج بدون اعتدال، وكلمة (اعتدال) يُفهم منها أنها تأتى من كلمة (modus) أى مقياس أو حد معين، أفلا يكفيك أن تسقط من قمة مرتبة البتولية الطاهرة إلى مرتبة أدنى بالزواج؟. إنك بلا شك سوف تنحدر إلى هوة سحيقة بالزواج الثالث أو الرابع، أو ربما أكثر بعد أن رفضت كبح جماح نفسك بالزواج الثانى (بعد الزواج الأول) لأن الرجل الذى لم يمتنع عن الاتجاه للزواج الثانى كان على استعداد لزيجات أكثر. لذلك دعنا نتزوج كل يوم حتى يأتينا اليوم الأخير كسدوم وعمورة (تكوين ١٩:٢٤-٢٥)، ففى ذلك اليوم عندما يتم النطق بكلمة (ويل) على الحبالى والمرضعات (مرقس ١٣:١٧، متى ٢٤:١٩، لوقا ٢١:٢٣) سوف يتم حدوث ذلك، أى أن "الويل" قيل عن المتزوجين وغير

الطاهرين، لأن الزواج يعطى دوراً للأرحام والأثداء والرضع! ومتى سيتوقف الزواج؟ أعتقد أن ذلك سوف يكون بعد انتهاء الحياة!

٢ . ١ ، إنى أعلم ما هى الحجج والمبررات التى تسوقها للتخفيف من حدة شهوة الجسد التى لا تشبع، فهناك مبررات الحاجة للعون:

إدارة البيت، وأهل البيت، وصناديق الذخائر والنفائس والمفاتيح والقيام على حراسة هذه الأشياء، وعمل الملابس وتدبير الطعام والمشاركة فى حمل الهموم والمشاغل. هل يمكن لأحد أن يقول حقاً إن الثراء والرخاء موجود فقط فى منازل المتزوجين، وأن ممتلكات النساك والمتبتلين وأملاك الخصيان وثروات الجنود الذين يسافرون بدون زوجاتهم قد قضى عليها؟ ألسنا فى الحقيقة جنوداً؟ إننا فى الحقيقة نعمل تحت نظام أكثر صرامة حيث إننا نخدم قائداً عظيماً هكذا، وألسنا عابرى سبيل فى هذا العالم؟ ولكن لماذا أنتم أيها المسيحيون مطبوعون على الاعتقاد أننا لا يمكن أن نسافر دون زوجة؟

والآن قد تكون محتاجاً لشريك لا غنى عنه للقيام بالأعباء المنزلية، إذن فخذ لك واحدة، اتخذ لك زوجة روحية من بين الأرامل، جميلة بإيمانها، نصيبها من إرث زوجها هو الفقر، مزينة بوقار السن، فهذا زواج حسن! وحتى لو كان لك عدة زوجات من هذا النوع فهو أمر مرضى لله!

ولكن المسيحيين يفكرون فى الذرية، مسيحيون لا يعترفون بالغد! خادم الله الذى لم يرث شيئاً من العالم يريد ورثة! ولهذا السبب حقاً يكرر الزواج، لأنه لم ينجب أطفالاً من الزوجة الأولى، وهكذا سوف يحصل على هذا الامتياز الأول، إنه يريد أن يعيش مدة أطول من ذلك الرسول الذى يريد أن ينطلق ليكون عند الرب (فيلبى ١:٢٣)! بالتأكيد فهذا الرجل سوف لا يرهقه نير الاضطهاد، وطيد العزم فى الاستشهاد، على أتم الاستعداد ليشرك الآخرين فى أملاكه، معتدلاً فى تملك الأشياء، وأخيراً سوف يموت متحرراً من الهم.. ربما يترك أولاداً لتقديم الذبائح الجنائزية تكريماً له!

بالتأكيد مثل هذه الأشياء لا تنطبق على أناس ذوى عقليات مختلفة عن ذلك. فهل مثل هؤلاء ينزعجون خوفاً من القضاء على المدن لعدم وجود نسل؟ أو لئلا لا يوجد من يمارس الحقوق القانونية؟ أو تفشل التجارة؟ أو تهجر المعابد؟ أو لا يوجد من يصيح قائلاً "فليُلقى المسيحيون للأسود"؟ هل هذا هو ما يريدون سماعه أولئك الذين يبحثون عن ذرية. إن المشاكل

التى يسببها الأطفال خاصة فى عصرنا يجب أن تكون دافعاً قوياً للترمل، فالرجال تجبرهم القوانين على إنجاب الأطفال، لأنه لا يوجد إنسان عاقل يريد أبناء باختياره! إذن ماذا ستفعل إذا حملت زوجتك دون إرادتك؟ هل ستنهى حملها باستعمال العقاقير؟ أعتقد أنه غير مسموح لنا بقتل الجنين قبل الميلاد تماماً كما هو ممنوع قتله بعد الميلاد. ولكن ربما فى وقت حمل زوجتك وجدت عندك الجرأة لتطلب علاجاً من الله لمثل هذا الهم، مع أنك رفضت عون الله عندما كانت الفرصة متاحة لك؟ إنى أتخيل أنك تبحث عن امرأة عاقر، أو وصلت لسن متقدم، إنه ذكاء منك ومسلك ممتاز لمسيحى. ألأننا لا نؤمن أنه إذا أراد الله، فالمرأة العاقر أو المسنة يمكن أن تنجب أطفالاً؟ من المحتمل أن يحدث هذا عندما يتحدى الإنسان الله بالافتراض المسبق ببعد نظرنا وحسن تدبرنا للأمور. نعرف رجلاً تزوج وهو واحد من الإخوة للمرة الثانية بامرأة عاقر على أساس أن عنده ابنة، ثم أصبح أباً للمرة الثانية، تماماً كما أصبح زوجاً للمرة الثانية!

كذلك حاول ترتليانوس مرة أخرى أن ينبر على ضرورة عدم الزواج للمرة الثانية فى بحثه عن "**الزواج بامرأة واحدة**"، وحاول هنا أن يخجل سامعيه بإبراز حقيقة أنه حتى النساء الوثنيات العفيفات كان تصرفهن أفضل فى موضوع الزواج الواحد مما فعلت النساء المسيحيات.

١٧. قد يكون الوثنيون قضاة لنا، «إن ملكة قرطاجة سوف تقوم فى الدين لتحاكم المسيحيين، فإذا كانت لاجئة وحدها فى أرض غريبة، وفى نفس وقت تأسيس مثل هذه الدولة القوية، ومع أنه كان ينبغى لها بإرادتها الحرة أن تتزوج ملكاً. ومع ذلك ولئلا تتزوج للمرة الثانية اختارت على النقيض من ذلك أن تتحرق من أن تتزوج»[٢٠] والأم الرومانية يمكن أن تدرج معها برغم أنها قد اعتدى عليها ليلاً من قبل رجل آخر، إلا أنها غسلت البقعة الملوثة فى جسدها بدمها، لتحل الزواج برجل واحد فى شخصها[٢١]. وهناك أيضاً هؤلاء النسوة اللاتى فضّلن الموت من أجل أزواجهن بدلاً من الزواج بعد موت الزوج.

بل أن الزواج بامرأة واحدة فقط والترمل، كان من ممارسات عبّاد الأوثان، فلا أحد سوى

(٢٠)ديدو Dido ملكة قرطاجة. ففي رواية فرجيل Aeneid رفضت ملكاً من شمال أفريقيا كشخص يناسبها بعد قتل زوجها. فعمل ترتليان تعديلاً في القصة: ديدو أرادت حقاً أن تتزوج اينياسAeneas ولكنه هجرها، ويتلاعب ترتليان بالألفاظ مستخدماً كلمات بولس «التزوج أفضل من التحرق» (كورنثوس الأولي ٧:٩) في إشارته لانتحار ديدو بتقديم نفسها ذبيحة (بالتضحية بنفسها).

(٢١) لوكريتيا Lucretia والتي حكي روايتها (قد تكون أسطورية) ليفي واوفيد Livy Ovid .

المرأة التى تتزوج مرة واحدة فقط يمكنها أن تضع إكليل الزهور على رأس فورتونا موليبريس Foruna Muliebris[٢٢]. أو بالمثل على رأس الأم ماتيوتا Mother Matuta والـ pntefex Maximus بونتيفكس ماكسيموس وزوجته فلامن Flamen يتزوجان مرة واحدة فقط[٢٣].

وكاهنات سيريس Ceres حتى فى حياة أزواجهن وبموافقتهم (يترملن)عن طريق الانفصال الودى. وهناك أيضاً من يحكمون علينا بالإدانة فيما يختص بالامتناع المطلق عن الممارسات الجنسية مثل: عذراوات Vesta وعذراوات چونا Achaian Juna وديانا السكيثية وأخيراً عذراوات أبولو ythian - Apollo، وحتى كهنة ذلك العجل المصرى[٢٤] سوف يدينون المسيحيين لضعفهم فى شئون ضبط وكبح الشهوة. احمر خجلاً أيها الجسد الذى «قد لبس المسيح» (رومية١٣:١٤)، يكفيك الزواج مرة واحدة، ليكفيك الزواج بامرأة واحدة، وهذه هى الحالة التى خلقت عليها منذ البدء، والتى أذكرك بها فى النهاية، عد حتى إلى آدم الأول إذا لم تستطع أن تعود إلى آدم الأخير أى المسيح. لقد أكل آدم من الشجرة مرة واحدة وإلى الأبد، واشتهى مرة واحدة وإلى الأبد، وغطى عورته مرة واحدة وإلى الأبد، وخجل وخزى أمام الله مرة واحدة وإلى الأبد، واختبأ فى خزى مرة واحدة وإلى الأبد، وطرد من فردوس القداسة مرة واحدة وإلى الأبد، وتزوج مرة واحدة وإلى الأبد. فإن كنت فيه فأمامك النموذج الذى قدّمه، ولو انتقلت إلى نموذج المسيح، يجب أن تكون أفضل من ذلك. أرنا آدم الثالث الذى تزوج مرتين، ويمكنك بعدئذ أن تفعل ما لا تستطيع أن تفعله، فأمامك نموذجان فقط لآدم يمكن اتباعهما.

وأخيراً يكتب **يوحنا فم الذهب فى بحثه «عن عدم الزواج مرة أخرى»** والذى ربما كُتب فى عام ٣٨٠م، معبراً عن دهشته للنساء اللاتى قد اختبرن متاعب الزواج مرة، ثم يرون أن يغامرن بالزواج مرة أخرى، وعدد المزايا العملية للبقاء فى حالة الترمل.*

١. [٢٥].. ليس من المستغرب على النساء اللاتى لم يجربن فى علاقتهن بالرجال آلام

(٢٢) Fortuna Muliebris إلهة رومانية مرتبطة بالإخصاب والنساء و Mothaer Matuta كانت إلهة النمو الرومانية.

(٢٣) بونتيفكس ماكسيموس كان رئيس كهنة روما والفلامن دياليس Flamnedialis كان رئيس كهنة جوبيتر Jupiter.

(٢٤) الإله المصري أبيس وله شهرة في روما.

* نظراً لفرط تفضيل حياة البتولية على الزواج في القرون الأولى. لذلك كان التفضيل لحياة الترمل على الزواج الثاني هي من سمات الكنيسة الأولى. ولكن لا يمكن القول إن الزواج الثاني بعد وفاة الشريك الآخر فيه أي خطأ وقد أجازة القديس بولس الرسول وسمحت به الكنيسة أيضاً.

(٢٥) Text:SC 138. 160

الوضع وكل الأشياء الأخرى المتعلقة بمشاكل المنزل وتكوين الأسرة أن يبحثن عن أزواج. «إن عذاب المعركة حلو بالنسبة للمجندين حديثاً»، ولكن فيما يتعلق بالنساء اللاتى عانين شروراً عديدة، واللاتى اقتنعن من خلال الأحداث التى رأينها بأعينهن أن تلك الإناث اللاتى حررهن الموت من مصاعب العالم محظوظات، هؤلاء النسوة طلبن اللعنة للخاطبات ولأنفسهن بسبب اليوم الذى دخلن فيه قفص الزواج. ومما يبدو مذهلاً ومحيراً لى تماماً أن تكرر هؤلاء النساء نفس الأحداث ثانية. إنى أتساءل لماذا بعد أن تم إنقاذ هؤلاء النسوة من هذه الأشياء يسعين وراءها مرة ثانية، كما لو كانت شيئاً مرغوباً فيه بينما المفروض أنه فى مثل هذا الموقف يعتبرنها شيئاً يجب الهروب منه؟ وبعد أن أعدت التفكير فى هذا الموضوع مراراً وتكراراً، وبصعوبة بالغة، وجدت أنى اكتشفت السبب فى هذا السلوك، أو فلنقل إنه لا يوجد سبب واحد فقط أو سببان بل عدة أسباب. فمن ناحية نسيان بعض النساء بمرور الوقت ما حدث فى الماضى، وإذ يفكرن فقط فى الأشياء الحاضرة، فإنهن يحاولن أن يتزوجن للهروب من شرور الترمل، ومع ذلك فإنهن يجدن مصاعب أكثر فى الزواج الثانى من الزواج الأول لدرجة أنهن يتفوهن بنفس الشكاوى التى عبّرن عنها من قبل. وأخريات وهن مفتونات بالأشياء العالمية ومتعلقات بمجد الحياة الحاضرة يعتبرن الترمل حالة مخجلة، لذلك يخترن معاناة الزواج للبحث عن مجد زائل وغرور باطل. وهناك أيضاً الأرامل اللاتى لا تنطبق عليهن هاتان الحالتان، ولكن يحكمهن عدم الانضباط الجنسى وحده، فهن يرجعن من جديد لحالتهن السابقة، ويحاولن إخفاء دوافعهن الحقيقية تحت مسميات الذرائع والحجج السابقة.

ليس لدىّ الوقاحة للوم هؤلاء النساء وإدانتهن لزواجهن الثانى، ولا أنصح أى واحد آخر أن يفعل هذا حيث أن مثل هذا التصرف كان يبدو غير مناسب للرسول بولس أو بالأحرى للروح القدس عندما قال «المرأة مرتبطة بالناموس مادام رجلها حياً. ولكن إن مات رجلها فهى حرة لكى تتزوج بمن تريد فى الرب فقط» (كورنثوس الأولى ٧:٣٩). وبعد أن وافق على أن الأرملة لها أن تتزوج ثانية إن أرادت قال أيضاً:«ولكنها أكثر غبطة إن لبثت هكذا». ولئلا يظن أحد أن الأمر مجرد استحسان بشرى أضاف بولس: «وأظن أنى أنا أيضاً عندى روح الله» (كورنثوس الأولى٧: ٤٠) مبيناً أن الروح القدس كتب هذه الكلمات ..

توضح هذه المقارنة أن الزواج الثانى ليس فى قائمة الشرور بل نعتبره شرعياً واختيارياً، وبالأحرى نكرّم بل نغبّط الحالة الأسمى من ذلك. لماذا نفعل ذلك؟ لأن المرأة التى لها زوج

واحد ليست كالمرأة التى لها زوجين، لأن المرأة التى تقنع بزوج واحد تظهر أنها كان يمكن ألا تختاره فى البداية لو كانت تعرف حقاً خبرة الزواج. ولكن تلك التى تقود زوجاً ثانياً إلى فراش الزوجية الأول تقدم دليلاً قوياً على حبها الشديد للعالم والأشياء الأرضية، والمرأة الأولى حين كانت تعيش مع زوجها لم يكن يثيرها أى رجل آخر، ولكن الثانية حتى وإن لم ترتكب الخطية فعلاً مع الآخرين عندما كانت تعيش مع زوجها إلا أنها أعجبت بأناس كثيرين غير زوجها ...

٥.. قل لى ما فائدة اختيار العبودية على الحرية؟ ما فائدة المال الوفير إذا لم تكن تستطيع أن تستخدمه فى الأشياء التى ترغبها؟ أليس من الأفضل بكثير أن تمتلك أشياء قليلة ولكنها تحت سيطرتك من أن يكون لك كل شىء فى العالم، وتكون أنت نفسك خاضعاً مع هذه الأشياء لشخص آخر؟ لأنى أتحدث الآن عن الهموم والإهانات والشتائم، والأحقاد والشكوك، وآلام العمل وكل المشاكل الأخرى. وبمناقشة هذه الأمور مع عذراء، يكون من المعقول التحدث عنها، لأنها غير مجربة وتجهل هذه الأمور، ولكن المرء يضايق الأرملة بالتحدث عن هذه المصاعب: لقد تعلمت إلى حد كبير من هذه الخبرات لدرجة أنه من نوافل القول أن تحاول أن تعلمها لها عن طريق المناقشة. ومع ذلك فجيد أن نضيف شيئاً جديداً: فالمرأة التى كانت عذراء عندما تزوجت سوف تكون قريبة من زوجها فى صراحة وحرية أكثر من المرأة التى تتزوج وهى أرملة لأنه حتى إذا قبل رجل أرملة كزوجته فليس كما لو كان أخذها كعذراء، لأن رغباته الغزلية تكون أكثر عنفاً واهتياجاً مع عذراء أكثر مما تكون عليه مع أرملة. وهذه نقطة أعتقد أنها واضحة لكل واحد. فالزوج لا يحتضن أو يحب أرملة بكل قلبه لأنها قد مارسته مع رجل آخر.

وهكذا فبالاحتكام إلى كل من المصادر الإلهية للبتولية، والمزايا العملية التى يمكن أن يقدمها للنساء، عرض آباء الكنيسة قضيتهم: إن ما فقدته حواء عن طريق السقوط يمكن للنساء المسيحيات أن يستعدنه بتبنيهن لحياة البتولية.

الفصل الرابع
النساء فى دائرة أوسع

إن القول الذى يتردد دائماً بأن مجيء المسيحية أفاد النساء عامة، لا يمكن الاعتقاد به من واقع الدليل المستمد من ذلك العصر، لأن النساء الراغبات فى الوفاء بمتطلبات البتولية المسيحية فتحت أمامهن مجالات جديدة، ولكن غالبية النساء كن مقيدات ليس فقط بالأدوار التقليدية المخصصة لهن بل أن أنشطتهن كان يحدّ منها بالتجاء الآباء للكتاب المقدس.

فأحد النواهى الرئيسية فى العهد الجديد يتعلق بالنساء كمعلمات، فالرسالة الأولى إلى تيموثاوس ٢:١١-١٥ وضعت الأساس للاهوتيين فيما بعد فيما يتعلق بهذه النقطة: النساء كن ممنوعات من التعليم، وهناك مبدأ لاهوتى أعطى لهذا المنع، **وتعليق فم الذهب** على هذه الأعداد موجود فى **عظته رقم ٩ على تيموثاوس الأولى.**

أولاً...[١]«ولكن لست آذن للمرأة أن تعلّم» (لست آذن) يقول بولس ما أهمية هذا القول هنا؟ فى الحقيقة إن له دلالة كبرى، فقد كان الرسول يتحدث عن السكوت والاحتشام والورع، وقال «لا أريدكن أن تتكلمن»، ولأنه أراد أن يغلق الباب أمام أى نقاش أو حجة أضاف «لست آذن لهن أن يعلّمن" بل ليلتحقن بقائمة المتعلمات. وهكذا فإنهن يظهرن خضوعهن بصمتهن، لأن جنسهن يميل للثرثرة، ولذلك فهو يحاصرهن من كل جانب، فهو يقول «لأن آدم جبل أولاً ثم حواء وآدم لم يغو لكن المرأة أغويت فحصلت فى التعدى»، فما علاقة هذه الأشياء بالزمن الحاضر؟ بالحق يقول بولس: إن جنس الرجال نال شرفاً أعظم لأنه جُبل أولاً، وفى موضع آخر يبين أن الرجال كانوا أعظم، ولذا فهو يقول: «لأن الرجل لم يخلق من أجل المرأة بل المرأة من أجل الرجل» (كورنثوس الأولى ١١:٩). لماذا يقول ذلك؟ إنه يريد أن يكون الرجل متفوقاً فى كل شيء. فليتفوق أولاً من هذه النواحى، من نظام الخلق، ثم من الحادثة التى اتضحت بعد ذلك بفترة وجيزة، لقد علّمت الرجل مرة واحدة، وقلبت كل شيء، وجعلته قابلاً للعصيان، ولذلك فقد أخضعها الله لأنها استخدمت حقها فى المساواة بالرجل استخداماً سيئاً "وإلى رجلك يكون اشتياقك»[٢].(تكوين٣:١٦)، وقبل هذه الحادثة لم تكن تلك

---

(١) Text: PG 62.544.

(٢) «وهو يسود عليك».

الكلمات قد قيلت، ولكن كيف لم يُغو آدم؟ هل لم يخطىء آدم لأنه لم يغو؟ انتبه جيداً. قالت المرأة: «الحية غرتنى فأكلت» (تكوين٣:١٣)، ولكن آدم لم يقل «المرأة غرتنى» بل قال «المرأة هى أعطتنى فأكلت» (تكوين٣:١٢). فأن يغريك إنسان بشرى مثلك شىء، وأن يغريك حيوان فى مرتبة أدنى ومسخّر لخدمتك شىء آخر، فهذا هو الإغراء، ولذلك فبالمقارنة مع المرأة يقول: إن الرجل «لم يغو» لأن حواء أغويت من قِبل كائن خاضع لها ومسخر لخدمتها بينما آدم خدعته امرأته، وأيضاً لم يقل عن آدم: إنه «رأى الشجرة جيدة للأكل» ولكن ذلك قيل عن المرأة، «وأكلت وأعطت رجلها» (تكوين٣:٦). ولذا فقد أخطأ ليس لأن الشهوة أعمت عينيه بل لمجرد إغراء زوجته.

لقد علّمت المرأة مرة واحدة وإلى الأبد وقلبت كل شىء، ولذلك يقول« لست آذن للمرأة أن تعلّم»، ما هو موقف بقية النساء بعد صدور هذا الحكم على واحدة منهن؟ من المؤكد أنه حكم يشمل النساء الأخريات، لأن جنس النساء ضعيف ومختال، وهذا يقال عن كل الجنس، لأنه لم يقل «حواء أغويت» بل «المرأة» أى الاسم الشائع للجنس، وليس اسمها بالذات. فماذا إذن؟ هل أخطأ كل جنس النساء عن طريقها؟ كما قال عن آدم« لكن قد ملك الموت من آدم إلى موسى وذلك على الذين لم يخطئوا على شبه تعدى آدم الذى هو مثال الآتى» (رومية٥:١٤). وهكذا هنا أيضاً، لقد أخطأ جنس الإناث وليس الذكور. فماذا إذن؟ ألا يحصل النساء على الخلاص؟ نعم بكل تأكيد، وكيف يكون ذلك؟ عن طريق إنجاب الأطفال.

ومع ذلك فما ورد فى تيموثاوس الأولى ٢:١٢ يبدو أنه يتعارض مع الفقرات الكتابية الأخرى مثل ما جاء فى أعمال ١٨:٢٤-٢٨ عن قصة الأم المسيحية بريسكلا وتعليمها لأبولس المتجدد حديثاً من جنس الرجال. وقد حاول **فم الذهب** أن يشرح لماذا يعتبر تعليم بريسكلا جديراً بالمديح، بينما تعليم الإناث عموماً ليس كذلك.والفقرة التالية من **عظته سلموا على بريسكلا وأكيلا** فى تعليقه على رومية (١٦:٣).

أولاً ٣.[٣] يجدر بنا أن نبحث عن السبب الذى جعل بولس وهو يحييها أن يضع اسم بريسكلا قبل اسم زوجها، لأنه لم يقل «سلموا على «أكيلا وبريسكلا» بل «بريسكلا وأكيلا»، فهو لم يفعل ذلك مصادفة لأنه يبدو لى أنه علم أنها كانت أكثر تقوى من زوجها. وهذا التفسير ليس تخميناً بل يمكن معرفته من أعمال الرسل ، لقد كان أبولس رجلاً فصيحاً مقتدراً فى الكتب، ولكنه لم يكن يعرف سوى معمودية يوحنا ، فأخذته هذه المرأة وعلّمته فيما

---

(٣) Text. PG 51, 191

يختص بطريق الله وجعلته معلماً كاملاً (أعمال ١٨: ٢٤- ٢٨). إن النساء اللاتى عشن فى عصر الرسل لم يشتركن فى عمل الأشياء التى يفعلها النساء اليوم أى فى ارتداء أفخر الثياب، وتجميل وجوههن بالأصباغ ومساحيق للعينين، وحث أزواجهن على شراء الملابس الغالية الثمن، والتى تفوق أثمانها ما لدى جاراتها أو زميلاتها، والبغال البيضاء ذات اللجم المذهبة، وخدمة الخصيان، والعدد الكبير من الخادمات وكل ما يمكن أن تتخيله من أشياء سخيفة.

إن نساء العصور القديمة قد نبذن كل هذه الأشياء، ورفضن الغرور العالمى، وكنّ يطلبن شيئاً واحداً فقط وهو أن يصبحن مرافقات للرسل، والمشاركة فى أنشطتهم، ولذا لم تكن بريسكلا هى المرأة الوحيدة من هذا النوع، بل كلهن كنّ كذلك. ففيما يختص بامرأة تدعى برسيس قال بولس: «برسيس التى تعبت كثيراً فى الرب»(رومية١٦: ١٢) [٤] وهو يعجب أيضاً لتعب مريم وتريفينا (رومية ١٦: ٦و ١٢) لأنهما عملتا مع الرسل وجردتا نفسيهما من كل شيء لأجل الحصول على الجعالة. فلماذا إذن عندما يكتب لتيموثاوس يقول «لست آذن للمرأة أن تعلّم ولا تتسلط على الرجل» (١تيموثاوس ٢: ١٢)؟ **هذا هو الحال إذا كان الرجل وقوراً ومؤمناً وحكيماً، ولكن إذا كان الرجل غير مؤمن وخاطىء، فبولس لا يحرمها من سلطة المعلّم.** على أى حال فهو يكتب إلى أهل كورنثوس: «والمرأة التى لها رجل غير مؤمن فلا تتركه لأنه كيف تعلمين أيتها المرأة هل تخلصين الرجل»؟ (١كورنثوس٧: ١٣-١٦)، ولكن كيف يمكن للمرأة المؤمنة أن تخلص الزوج غير المؤمن؟ بالطبع من خلال تعليمها وإرشادها وقيادته فى الإيمان كما فعلت بريسكلا مع أبولس. وبالاختصار حين يقول بولس « لست آذن للمرأة أن تعلّم» فهو يتحدث عن التعليم العام الذى يتضمن الحديث أمام الشعب، وعن التعليم الذى يلائم الكهنوت، ولكنه لا يدين تعليمها وإعطائها للنصيحة كعمل فردى، لأنه إذا كان يدين ذلك ما كان قد امتدح بريسكلا لأجل أعمالها.

واستطاع فم الذهب أيضاً أن يوصى النساء بإعطاء **«تعليم خاص»** داخل منزلها كوسيلة تخجل الرجال، ولتقويم الأزواج الضالين. وكمثال لتعليم النساء لأزواجهن نجده فى **عظته رقم ٧**، والتى ينتقد فيها الرجال الذين يتوافدون على المسرح لمشاهدة العاهرات وهن يتحممن عرايا

---

(٤) Text PG 57.80

فى صهاريج من الماء.

٦..[٥] ولكن لئلا نلقى باللائمة فقط، تعالوا نخترع وسيلة لتقويم هؤلاء الرجال. فما هى الوسيلة إذن؟ أريد أن أسلمكم لزوجاتكم حتى يعلموكم، فطبقاً لقانون بولس ينبغى أن تكونوا أنتم المعلمين، ولكن بما أن النظام قد قُلب رأساً على عقب، وأصبح الجسد فوق والرأس أسفل[٥]. فدعنا نتجه اتجاهاً آخر، فإن كنت تخجل أن تكون المرأة معلمة لك، عليك بالهروب من الخطية، وبسرعة يمكنك أن تعتلى العرش الذى أعطاه الله لك. ولكن طالما أنت تخطىء، فالكتاب المقدس يرسلك لا إلى امرأة فقط، بل أيضاً إلى الحيوانات غير العاقلة من الأنواع الدنيا، وليس من المخجل أيضاً أن يرسلك أنت الذى كرمك الله بالعقل، إلى النملة لتصبح لها تلميذاً (أمثال٦:٦). فى الواقع ليس هذا اتهام موجه للكتاب المقدس بل لأولئك الذين تخلوا عن أصلهم النبيل. إذن فلنفعل ذلك ! فسوف نرسلك الآن إلى أكاديمية الحيوانات لنريك كم عدد الطيور والأسماك والدواب ذات الأربع، والحيوانات الزاحفة التى تبدو أكثر منك لياقة وتعففاً..

لماذا كان الآباء على حذر من النساء كمعلمات؟ من الإجابات المقدمة على هذا السؤال أن النساء عندهن ميل للهرطقة، وقد يتسببن فى ضلال الآخرين بتعليمهن الهرطقة، وهناك طوائف غنوسية عديدة سمحت للنساء بالقيام بدور المعلمات، وطائفة المونتانيين Monta nists والتى كان لها بريق خاص فى القرن الثانى، كان لها نبيتان مشهورتان. مثل هذه الأمثلة كانت تعد تحذيرات ضد تعليم النساء. وفى الفقرة التالية من كتاب **«تفنيد كل الهرطقات»** يخبرنا الكاتب المسيحى **هيبوليتس** Hippolytus فى القرن الثالث، عن الكرامة الممنوحة لهاتين النبيتين فى طائفة المونتانيين.

ثامناً.١٩[٦] لقد تم إغراؤهم بواسطة النساء، إمرأة تدعى بريسكلا وأخرى تدعى ماكسيملا Maximilla وقد اعتبرتا نبيين وقالوا عنهما إن المعزّى، الروح القدس، قد جاء إليهما ومن قبلهما آمنوا بالمثل بشخص يدعى مونتانوس Montanus وقالوا إنه نبى.

.. وهم يقدسون هاتين المرأتين أكثر من الرسل، وكل موهبة روحية لدرجة أن منهم من تجرأ

---

(٥) لأن الرجل هو رأس المرأة. (انظر ١كورنثوس ١١:٣).

(٦) Text:GCs 26,238.

على القول بأنه يوجد شيء فيهما أكثر مما في المسيح. هؤلاء الناس يعترفون، كما تفعل الكنيسة، بأن الله هو أب للكون وخالق لكل شيء، ويعترفون بكل شيء شهد به الإنجيل عن المسيح، ولكنهم يضيفون طقوساً جديدة تتمثل في أنواع من الصيام والأعياد وتناول أطعمة جافة والفجل، بزعم أنهم تعلموا ذلك من هاتين المرأتين.

– **وفي الرسالة رقم ١٣٣** والتي يرجع تاريخها لسنة ٤١٥ ب.م، يصف **جيروم** ميل النساء البغيض للهرطقة، وهو يخص بالذكر قادة الطوائف الغنوسية الأولى وهراطقة القرن الرابع .

٤..[٧] وبما أن الأمور تسير هكذا فما الذي يتوقعونه من نساء بائسات «محملات خطايا محمولات بكل ريح تعليم يتعلمن في كل حين ولايستطعن أن يقبلن إلى معرفة الحق أبداً» (قارن أفسس٤:١٤، ٢تيموثاوس ٣:٦-٧)؟ وما الذي يتوقعونه من أولئك الرجال المرافقين لهؤلاء النساء، والذين لهم آذان مستحكة، والذين لا يعرفون كيف ينصتون أو كيف يتكلمون؟ إنهم يقبّلون الطين القديم كما لو كان حديثاً، وكما عبر عن ذلك حزقيال إنهم يبنون حائطاً، وها هم يملطونه بالطفال، فعندما يكون مطر جارف، فإن الحائط يسقط ويفنى (قارن حزقيال ١٣:١-١٦) فسيمون ماجوس Simon Magus أسس طائفته بمساعدة (هيلينا) Helena إحدى العاهرات، ونيكولاوس Neicolaus الأنطاكي، مخترع كل الأباطيل قاد جمعاً من النساء، وماركيون Marcion أرسل امرأة أمامه إلى روما لإعداد أذهان الشعب حتى يسهل خداعهم. وابيليس Apelles كانت فلومينا Philumena شريكته في تعاليمه، ومونتانوس Mon-tanus المداح لروح نجس، أفسد بالذهب أولاً ثم نجّس بعد ذلك بالهرطقة كنائس كثيرة بمساعدة بريسكا Prisca وماكسيملا Maximilla وهما كانتا سيدتان ثريتان من سلالة نبيلة، وأترك الأمثلة القديمة لأنتقل إلى الأمثلة الأقرب إلى عصرنا.

قام آريوسArius بخداع أخت الامبراطور لكي يستطيع السيطرة على العالم، ودوناتوس Donatus قام باستخدام ثروة لوسيلا Lucilla بتلويث كل بائسي أفريقيا بمعتقدات نتنة. وفي أسبانيا قامت أجابيAgape امرأة كفيفة البصر، والتي كانت زوجة لأحد الرجال، بقيادة رجل أعمى يدعى البيديوس Elpidius نحو خندق، وكان خليفته بريسكليان Priscillian من أشد المتحمسين للمجوس الزرادشتيين، وكان هو نفسه من قبل مجوسياً، وأصبح أسقفاً وانضمت إليه (جالا) التي خلفتها أخت ليس بالمولد بل بالاسم فقط والتي اتجهت إلى هرطقة أخرى شديدة الصلة بتلك الهرطقة. فالآن يعمل سر الإثم، إن كلا الجنسين يندفعان في طريق خاطيء

---

(٧) Text CSEL 56,247

معاً حتى إننا نجد أنفسنا نردد هذا القول النبوى «حجلة تحضن ما لم تبض محصّل الغنى بغير حق. فى نصف أيامه يتركه وفى آخرته يكون أحمق» (إرميا ١٧:١١).

ومع ذلك فقد كان معروفاً عن جيروم أنه كان يمتدح النساء اللاتى كن يهاجمن الهرطقات، حتى وإن تم هذا الهجوم فى الساحة العامة. وقد قادت صديقته مارسيلا على سبيل المثال هجوماً حوالى ٤٠٠ب.م ضد إحياء تعليم أوريجانوس فى روما، ولأنه كان موافقاً على موقفها، وكان يكره الدارسين المسئولين عن ترجمة وتطوير كتاب أوريجانوس، لم يجد جيروم شيئاً غير لائق فى نقدها الجهرى لمذهب أوريجانوس.

وفى الرسالة رقم ١٢٧ امتدحها كما يلى:

.١٠.[٨] لقد كانت فى الصفوف الأولى التى تدين الهرطقة، لقد جاءت بشهود كان هؤلاء الهراطقة يعلمونهم، ثم بعد ذلك أفلتوا من سلطانهم وتحرروا من أخطائهم الهرطوقية، وقد أظهرت كيف خدع الكثيرون منهم، وقد ردت عليهم بشدة بسبب الكتاب الذى يتميز بعدم التقوى **«المبادىء الأولى»** والذى كان يعلّم به بعد تصحيحه على يد العقرب [٩]. وقد طلبت من الهراطقة فى رسائل عديدة أن يدافعوا عن أنفسهم، ولكنهم فضلوا الإدانة فى غيبتهم على إثبات بطلان آرائهم فى حضورهم. وكانت مارسيلا سبب هذا الانتصار المجيد، فقد كانت بداية وسبب هذه البركات، والتى تعلمون أنى لا أكتب عنها سوى الحقيقة..

كون جميع النساء المسيحيات يعانين من «عقول ضعيفة»، كما اقترح الآباء أحياناً، قول غير صحيح، وهذا ثابت من الأنشطة المدرسية التى اشترك فيها بعضهن، لقد كان التعليم فى العالم اللاتينى مؤخراً يرتبط بالطبقة الاجتماعية، وكانت الفتيات الأرستقراطيات يتلقين نفس التعليم الأدبى العام الذى يتلقاه إخوتهم الذكور، حتى وإن لم يحصلن على تدريب رسمى عالٍ فى القانون والفلسفة والموضوعات المتخصصة الأخرى، توحى العديد من النصوص المسيحية الأولى بأن بعض الإناث كن يجدن الكثير من المتعة فى دراسة الكتاب المقدس واللاهوت. وهاكم تعليق **جيروم** على رغبة (باولا) القوية لدراسة العهد القديم فى **رسالة رقم ١٠٨** والمكتوبة ٤٠٤ م بعد وفاتها بوقت وجيز:

.٢٦.[١٠] سوف أصف ما بدأت أن أقرره: لم أجد موهبة أشد قابلية للتعلم أكثر من

---

(٨) Text: CSEL 56,153

(٩) هو روفينوس Rufinus من اكويليا Aqileia والذي كان قد ترجم العديد من كتب أوريجانوس إلى اللاتيينية، أتهم بتلطيف حدة المبادىء الهرطوقية للنص اليوناني الأصلي لأوريجانوس المباديء الأولى».

(١٠) Text CSEL 55.344

موهبتها، لقد كانت بطيئة فى التكلم، مسرعة فى الاستماع، متذكرة هذا المبدأ «انصت واسمع يا إسرائيل» (تثنية ٢٧:٩)، لقد حفظت الكتب المقدسة وأحبت التاريخ الذى فيها، وقالت إنه أساس الحق، ولكنها فضلاً عن ذلك اتبعت الفهم الروحى للكتاب، وبهذا الحجر الشامخ حفظت صرح حياتها الروحية، وأخيراً دفعتنى هى وابنتها أن يقرآ العهدين القديم والجديد مع الاستفادة بمناقشاتي، وقد رفضت الطلب تواضعاً، ولكن بسبب إصرارها وتوسلاتها العديدة وافقت حتى أعلمها ما كنت قد تعلمته ليس بنفسى- لأن الغرور أسوأ مدرس- ولكن من رجال الكنيسة البارزين. وإذا وجدت نفسى متحيزاً أمام أية فقرة وها أنا أعترف صراحة أنى كنت جاهلاً، لم تكن تريد أن تقتنع بإجابتى ولكن عن طريق الأسئلة المتجددة كانت تجبرنى على أن أقول أى المعانى المحتملة كان الأقرب إلى الاحتمال، وسوف أقول هنا شيئاً. قد يبدو غير معقول بالنسبة للخبثاء الحقودين: فمنذ شبابى تعلمت اللغة العبرية إلى حد ما عن طريق الكثيرين ممن بذلوا الجهد والعرق وأنا أدرسها دون كلل حتى إن كنت لا أتركها فهى لا تتركنى، وعندما أرادت (باولا) أن تتعلمها تتبعت البرنامج لدرجة أنها أنشدت سفر المزامير باللغة العبرية، وكان لقاؤها لا يحمل أى بصمات للطبيعة المتميزة للغة اللاتينية، ونحن نلاحظ فى ابنتها القديسة يوستوكيوم Eustochuim حتى اليوم، نفس المقدرة...

ميلانيا Melenia الشيخة يمكن أن تحصل على جائزة كونها أفضل امرأة مسيحية نعرفها نالت قسطاً وافراً من التعليم، ويعتقد العلماء الآن إن الفصل التالى من **(التاريخ اللوزياكى) لبلاديوس** يشير لميلانيا الشيخة.

٥٥..[١١] لقد كانت متعلمة جداً ومحبة للأدب، لقد واصلت الليل بالنهار فى الاضطلاع على كل كتابات المعلقين القدامى، منها ثلاثة ملايين سطر لأوريجانوس و.... ٢٥ سطر لغيرغوريوس وستيفن وبيريوس وباسيليوس، وعدد آخر من الرجال المتميزين، وهى لم تكتف بمجرد إلقاء نظرة عليها، بل بذلت الجهد حتى قرأت كل كتاب سبع أو ثمان مرات، ولذلك فقد استطاعت أن تتحرر من «مخالفات العلم الكاذب الاسم» (تيموثاوس الأولى٦:.٢) وأن تهرب معرضة عن تأثير الكتب الباطلة، وبذلك تصبح طائراً روحياً، تطير إلى المسيح حاملة رجاء وطيداً.

---

(١١) Text: Lausiac History of Palladius, ed:C.Butler Cambridge 1898, P Hildesheim1967.149.

ولسوء الحظ ليست لدينا مادة باقية من المسيحية الأولى تم كتابتها بواسطة النساء، ولذا فمن الشيق أن نجد تراثاً من الأدب المسيحى القديم عبارة عن قصيدة شعرية كتبت حوالى ٣٦٠ب.م بقلم المعلمة الأرستقراطية الرومانية **فالتونيا بيتيتيا بروبا** Faltonia Betitia proba. عن خلق العالم وحياة يسوع، وأكثر ما يميز قصيدة (بروبا) هو الشكل: فهو أثر أدبى مؤلف من مختارات أخرى، وهو عبارة عن قصيدة [١٢] تتكون فى مجملها من أبيات، وتصف أبيات من الشعر القديم، وهى هنا **شعر فرجيل** Virgil، ومع أننا لا يمكن أن ندون هنا كل مراجع (فرجيل) للسطور التالية من قصيدة بروبا إلا أن القصيدة مؤلفة فعلاً من سطور مستعارة من الإلياذة ونشيد الرعاة وقصائد الزراعة باستثناء الأسماء الكتابية، وحقيقة أن (بروبا) استطاعت أن تقوم بمثل هذه المغامرة يبين أنها لابد قد حفظت أعمال فرجيل عن ظهر قلب.

وتكتب (بروبا) هنا عن خلق آدم وحواء:

لقد جذب قطعة الطين السميك وأعطاها شكلاً
بعجينة من الأرض الخصبة فوراً
وتربتها دبت فيها الحياة منذ أوائل شهور السنة
والآن- هكذا فجأة- ظهرت الصورة
مثلاً للقداسة! ظهر شكل الإنسان الجديد
جميل أولاً بما لا يقارن
مشابهاً لله فى المحيا والأكتاف
الإنسان الذى عقله وذهنه يؤثر فيه
إله عظيم يبعثه لإتمام جلائل الأعمال
ويتم البحث عن شبيه للإنسان ولكن
لم يجرؤ أن يقترب أحد من الإنسان من حشد كبير
لم يجرؤ أحد أن يدعى معيناً فى مملكته الجديدة
ولكن دون تأخير فى الحال أعطى الله
راحة تامة سرت فى أوصال وأطراف الرجل

---

(١٢) Text:Csel 16,576

وجعلت عينيه تغلق فى نوم بهيج
والآن فى وسط ليل تكسو الظلال
فالخالق القدير كشف الأضلاع والأحشاء
ونزع أحد هذه الأضلاع من مكانها
من المفاصل المخبأة جيداً فى جنب آدم الفتى
وفجأة جاء بهدية رائعة-
دليلاً دافعاً- يسطع فى النور الباهر
امرأة، عذراء هى، لا مثيل لها
فى الشكل وفى ثديين جميلين هى الآن على أتم الاستعداد
لزوج، على استعداد للزواج
إن هزات متتابعة توقظه من النوم
ويدعو عظامه وأطرافه زوجة له
وهو مبهور بالإرادة الإلهية أخذ ووضع
يديها فى يديه وأطبق ذراعه حولها

(وتصف "بروبا" ميلاد المسيح ومذبحة الأبرياء:)
جاء اليوم الموعود، اليوم الذى فيه أولاً
أظهر وجهه القدوس ذلك الذى أسس
جنساً تقياً أرسله للسادة
والفضيلة متحدة بالله جاءت فى شخصه
وظهرت صورة الآب فى شخصه
وفى الحال فى الفضاء السماوى الساكن
وثريات النور الباهر تتابع
ظهر نجم يتحرك- عرفه النبلاء
كإله وجاءوا إليه بكل هدية
فى اتضاع، وعبدوا نجمه المقدس

بكل حب وإعزاز، وكان الإيمان واضحاً
والاسم الباهر الذى يليق بأصله السماوى
لقد عرفوا بأنفسهم ذلك المحيا
للإله الذى يخطف الأبصار بعلامات النعمة الإلهية
وسرعان ما طار الخبر حتى وصل سريعاً
لقد أعطى القادمون للملك كل ما عندهم
والقصة أشعلت غضبه وألهبت قلبه
وبرأى واضح سرى إلى أسماع أمه
فقد كانت تدرك كل ذلك
فالأحداث، وقد تم التنبؤ بها أخبرت عن خططه
وإدراك الشر اليائس قدوم العاصفة
وهى أولاً قد علمت ما الذى سوف يحدث
لقد أوحت أن يربى الطفل
فى السر بينما كان اهتمام الملك
غير حاسم بينما كان عقله يغلى
ساخناً بالغضب ولكن الحاكم فى اهتياج شديد
أصدر الأمر بالقضاء على المولود وكل
أفراد جنسه فليحرقوا
وبلهيب يعتمل بداخله أمر الرجال
بالقتل وإبلاغه بالحقائق
ففعلوا كما قيل لهم وأسرعوا على عجل
وأثاروا الرعب فى المدينة، وملأوها
بالخوف والصراخ والنحيب
وأنفاس الأطفال فى الأذرع تتصاعد
وجثث الأبناء ترقد متناثرة أمام أعين
والديهم ملقاة عند الباب ولكن الأم

لديها سبب كاف لأن تقفز في رعب
عند سماع هذه الأنات الكئيبة تنقل طفلها
على صدرها وهى تهرب من الجمهور الغاضب
وتشق طريقها نحو المذاود المليئة،
وهنا تحت السقف المائل المنخفض
تبدأ فى إرضاع طفلها من ثدييها
لبناً ينساب إلى شفتيه الرقيقتين، هنا ياطفل
مهدك. سوف يكون أول مهد تنساب منه
الأزاهر الوفيرة لأجلك فقط
مختلطة بالخبز الوفير المبهج
سوف تزدهر الأرض وشيئاً فشيئاً سوف يكثر
الفول المصرى مع النبات الشائك [١٣]

مع أن الرسائل والبحوث عن كيفية تربية الأبناء كانت شائعة، إلا أن جيروم وحده يبرز آباء الكنيسة من أجل ما كتبه عن تعليم البنات.

فى الرسالة ١٢٨، ينصح **جيروم** الأب بشأن تنشئة ابنته الطفلة، ومقدمته المذكورة هنا اعتراف مثير عن صعوبة كتابة بحوث تعليمية للأطفال الصغار. وهو يدين فى هذا البحث كما فى مواضع أخرى بالفضل لكونيتيليان Quintilian.

أولاً.. [١٤] إنه لمن الأعمال الصعبة أن تكتب لبنت صغيرة لا تفهم ما تقوله، وأنت لا تعرف ما تفكر فيه، وتأخذ على نفسك عهداً بالمخاطرة بمعرفة نزعاتها وميولها: وأن تتبع قول خطيب مفوّه مشهور، فالوعود أكثر جاذبية لها من الواقع[١٥]. لأنه كيف تناشد بنت بضبط النفس، وهى تريد كعكاً على سبيل المثال، بنت تتمتم بكلمات غير مفهومة على حجر أمها، وتعتبر العسل أحلى من الكلمات؟ هل سوف تنصت لأقوال الرسول الحكيمة بينما تسر أكثر بقصص

(١٣) السطور الأخيرة مأخوذة من نشيد الرعاة الرابع لفرجيل ويضيف: الطفل العجيب الذي سوف يظهر قريباً، وقد قال المسيحيون إن الطفل هو يسوع.

(١٤) Text: CSEL 56.156.

(١٥) شيشرون. مقتطف رقم ٥ من الكومنولث.

العجائز؟ هل ستدرك أقوال الأنبياء الغامضة بينما هى تنزعج لمجرد عبوس المرضة؟ وهل ستفهم جلال الإنجيل الذى يطغى بريقه على كل كائن فانٍ؟ هل أحضها على الخضوع لوالديها تلك التى تضرب أمها التى تبتسم بيدها الصغيرة؟ لهذه الأسباب فإن (باكتيولا Pactula) سوف تستلم هذا الخطاب، ولكنها سوف تقرأه فيما بعد، وفى نفس الوقت دعها تتعلم الحروف الهجائية، وتكوّن الكلمات وتتعلم أسماء الأشياء وتربط الكلمات لتصيغ عبارات، وحتى تمارس هذه الأشياء بصوت مسموع عدها بمكافأة من الكعك والعسل أو أى شىء حلو الطعم، فهى سوف تسرع لو كانت تتوقع أن تأخذ زهوراً فيحاء، أو جواهر لامعة أو لعباً جذابة، وفى نفس الوقت عليها أن تحاول أن تغزل حتى لو كانت تقطّع الخيوط، حتى لا تقطّعها فى مرحلة قادمة، وبعد عملها اجعلها تلعب قليلاً، وتتدلى من رقبة أمها، وتنتزع القبلات من أقاربها، ودعها تنشد المزامير كمكافأة حتى تحب ما تضطر لتكراره، وحتى لا يكون بمثابة عمل بل متعة، ولا يمثل عملاً إجبارياً بل شيئاً مرغوباً.

وشىء مماثل لذلك هو **رسالة جيروم ١٠٧** الموجهة لابنة زوج باولا، لايتا Laeta. وهو يقترح عليها هى وزوجها توكسوتيوس Toxotius كيف يربون ابنتهما (المسماة باسم جدتها) والتى نذرت للتبتل. ومما هو جدير بالملاحظة، هى نصيحته بأن البنات يجب أن يتعلمن اللغة اليونانية كالأولاد، وأن بعض الهدايا القليلة والمنافسة بين الصديقات يمكن أن يحفزهن على التعليم.

٤.[١٦] هكذا يجب أن يكون تعليم النفس التى سوف تصبح هيكلاً للرب، فعليها أن تتعلم، أن تسمع ولا تتكلم إلا ما فيه خوف الله، وهى لا يجب أن تفهم الكلمات البذيئة، ولا يجب أن تعرف الأغانى العالمية، وفى نفس الوقت فلسانها الرقيق يجب أن يعتاد على المزامير الحلوة، ويجب أن تبتعد عن الأولاد الشهوانيين، وحتى خادماتها والسيدات اللاتى ينتظرنها يجب أن يكنّ بمنأى عن العلاقات العالمية، لئلا عندما يتعلمن شيئاً شريراً فقد يعلمنه بشر أكثر. وأصنع لها حروفاً من خشب الصناديق أو العاج، ودع كل باسمه الصحيح، ودعها تلعب بها حتى يكون لعبها نوعاً من التعلم أيضاً، ودعها تحفظ الحروف بالترتيب فى ذهنها، حتى يمكنها أن تتذكر أسماء الحروف وترددها مع النغم، ثم غيّر من ترتيب الحروف واخلطها معاً حتى تصبح الحروف الأخيرة فى الوسط والحروف الوسطى فى البداية : وبهذه الطريقة لا تعرفها بالأصوات فقط، ولكن بالشكل أيضاً. وعندما تبدأ فى جر القلم على الشمع بيد مهتزة، فإما

(١٦) Text CSEL 55. 293

أن ترشد يديها الرقيقتين بوضع يدك فوق يدها، أو انقش الحروف الهجائية على لوح لتكون داخل الهوامش المعدة لها ولا تخرج عنها.

أعطها مكافآت على الهجاء، وبعض الهدايا الصغيرة التى تفرح الذين فى سنها، ودع أصدقاءها يتعلمن معها، والتى يمكن أن تحسدهن عندما ينلن مديحاً فتشعر بشىء من الوخز، ولا يصح تعنيفها إذا كانت أبطأ فى الفهم، ولكن يجب تحفيز موهبتها بالمديح. دعها تبتهج عندما تتفوق على الأخريات وتشعر بالأسى عندما يتفوقن عليها، وأهم من هذا كله فلتحذر لئلا تكره دراساتها وتسرى المرارة التى تسللت إليها فى هذه السن الصغيرة حين تكبر، ونفس الأسماء التى تعودت عن طريقها تركيب الكلمات بالتدريج، لا يجب أن تكون عشوائية بل مختارة عن عمد وتزاد باستمرار، على سبيل المثال أسماء الأنبياء والرسل أو قائمة الآباء، الذين جاءوا من آدم كما فى إنجيل متى ولوقا، حتى عندما تنتقل إلى دروس أكبر تكون ذاكرتها معدة للمستقبل.

اختر مدرساً ذا سن مناسب وحياة لا تشوبها شائبة، وتعليم مناسب، ولا أعتقد أن أى رجل متعلم يتضجر من أن يفعل لقريبة أو لعذراء من أصل نبيل ما فعله أرسطو لابن فيليب [١٧] حتى إنه لكى يعلمه بدايات الآداب تنازل إلى المركز المتواضع لمدرس يدرس التعليم الأساسى، فلا يجب احتقار مثل هذه الأشياء باعتبارها شيئاً تافهاً، فى حين أنه بدونها لا يمكن تحقيق الأشياء العظمى. إن مجرد صوت فيل أو مبادىء التعلم والتى تصدر من فم إنسان متعلّم، تختلف عن تلك التى تصدر من فم ريفى ساذج، ويجب أيضاً أن تحذر من تملق النساء للفتاة لئلا تعتاد على التكلم بسرعة أو التلاعب بالذهب والملابس الأرجوانية، فالأول يؤدى إلى إتلاف حديثها، والثانى إلى إتلاف شخصيتها. لا تسمح لها بأن تتعلم فى نعومة أظفارها ما تضطر لمحاولة نسيانه حين تكبر.. (وعندما تكبر "باولا" يتطور تعليمها):

٩.. دعها تردد أمامك مقداراً معيناً من الكتب المقدسة، ودعها تحفظ عن ظهر قلب عدداً من الآيات باليونانية، ولكن ليعقب ذلك فوراً تعلّم اللاتينية، لأنه إذا لم يتخذ الفم الصغير وضعاً معيناً منذ البداية، فاللسان يصبح معوجاً باللكنة الأجنبية، وتصبح اللغة الأصلية فى مرتبة أدنى بسبب العيوب الدخيلة. لتتخذك كمدرس لها. لتعجب طفولتها البريئة بك، لا تسمح لها بأن ترى فيك أو فى أبيها شيئاً إذا ما فعلته فإنها تخطىء، وليتذكر كليكما أنكما

(١٧) علم أرسطو الإسكندر الأكبر عندما كان صغيراً.

والدان لعذراء، وعلّماها عن طريق القدوة أكثر مما بالكلام. إن الزهور تذبل سريعاً، كالبنفسج والسوسن والزعفران عندما تهبّ عليها الرياح اللافحة، لا تدعها تخرج لمواجهة الجمهور دون رفقتك لها، ولا تدعها تزور كنائس الشهداء أو الكنائس عموماً دون أمها. لا تدع شاباً يتبادل معها النكات ، ولتحتفل العذراء الصغيرة بليالى الأعياد والخدمات الجادة طوال الليل بطريقة لا تنفصل فيها عن جوار أمها قيد أنملة ..

١٢.. دعها تحب مخطوطات الكتب المقدسة أكثر من حبها للجواهر أو الحرير، ولتضع ثقتها لا فى الملابس المطرزة بالذهب، ولا فى الرقوق البالية ولا فى الصور المرصعة، بل فى الترتيب الصحيح والسليم، لتتعلم أولاً سفر المزامير، ولتتسلى بتلك الأناشيد، ولتتعلم أمثال سليمان مدى الحياة. ولتتعلم من سفر الجامعة أن تعتاد على أن تطأ بقدمها أشياء العالم، ولتتبع أمثلة الفضيلة والصبر فى أيوب، ولتواظب على قراءة الأناجيل فلا تتركها أبداً، ولتتشرب سفر أعمال الرسل والرسائل بكل قلبها وبإرادتها الحرة. وعندما تثرى حصيلتها بهذه الكنوز دعها تحفظ عن ظهر قلب الأنبياء والأسفار السبعة الأولى من التوراة وأسفار الملوك وأخبار الأيام وعزرا وأستير. وبعد ذلك يمكن أخيراً وبلا خوف أن تتعلم نشيد الأنشاد لأنه إذا قرأته منذ البداية قد يصيبها الأذى، لأنها لا تدرك أن هذه الألفاظ المادية تخفى وراءها أغنية عرس لزواج روحى. ولتتجنب كل كتابات الأبوكريفا، وإذا أرادت أن تقرأها ليس من أجل أن تعاليمها الحقيقية، بل بدافع الاحترام للمعجزات المتضمنة فيها، فلتعلم أن كتابات الأبوكريفا لم يكتبها هؤلاء الناس الذين نسبت إليهم، وأنها تحوى الكثير من الهفوات، وحتى تكون على بينة وهى تفتش عن الدرر فى الوحل.

ولتحتفظ دائماً بأعمال كبريانوس Cyprian [١٨] فى يدها، ولتقرأ رسائل أثناسيوس Athanasius[١٩] وكتب هيلارى[٢٠] دون أن تعثر، ولتسر بتلك الكلمات ومواهب الرجال الذين يرفعون راية الإيمان عالية فى كتبهم، وإذا قرأت كتب الآخرين فليكن بهدف الحكم عليها وليس اتباعها.

يقول جيروم إن أفضل طريقة تتلقى بها (باولا) تعليماً صحيحاً يكون بإرسال (لايتا)

---

(١٨) أسقف قرطاج في منتصف القرن الثالث.

(١٩) أسقف الأسكندرية في القرن الرابع.

(٢٠) أسقف بويتيرز Poitiers في القرن الرابع.

وتوكسوتيوس للطفلة إلى بيت لحم، إلى جدتها وجيروم ، ويقارن دوره فى تعليم (باولا) بدور أرسطو فى تعليم الإسكندر الأكبر.

١٣.. إذا أرسلت (باولا) فإنى أعدك أن أكون لها معلماً ومربياً، وسوف أحملها على كتفى بالرغم من كبر سنى، وسوف أعدِّل من كلماتها التى تخرج بتلعثم أفضل بكثير مما فعل الفيلسوف العالمى: فالذى سوف أقوم بتعليمها ليس ملكاً مقدونياً مات فى بابل بالسم[٢١] بل خادمة .

وإذا كانت النساء قد حرمن من القيام بدور التعليم مهما كنّ على درجة كبيرة من التعليم والمواهب فقد استبعدن أيضاً من تولى المناصب الكهنوتية، وقال آباء الكنيسة إن ممارسات الطوائف الهرطوقية فى هذا الصدد أساءت للمسيحية المستقيمة الرأى، ولا يصح أن تلجأ النساء المسيحيات للنموذج الذى تركته (تكلا Thecla) كمبرر لقيام المرأة بفريضة المعمودية. يهاجم **ترتليانوس** فى بحثه عن **«المعمودية»** بعنف الاستناد إلى حادث عرضى فى (أعمال بولس و«تكلا») ليكون مبرراً مشروعاً للنساء كى يسمح لهن بالقيام بالمعمودية.

١٧..[٢٢] فى الحقيقة ففيما يختص «بأعمال بولس» المنسوبة إليه خطأ، يلجأون لنموذج «تكلا» باعتبارها أعطت النساء الحق فى التعليم والمعمودية. فليعلموا أن كاهناً فى آسيا كتب هذه الوثيقة، كما لو كان يعتقد أنه بذلك يمجد بولس بمجهوده الخاص، وعندما أدين واعترف أنه فعل ذلك بدافع حبه لبولس، فقد مركزه الكهنوتى، لأنه كيف يمكن أن تصدق أن بولس أعطى المرأة حق التعليم والمعمودية بينما هو ذاته حرم المرأة من أن تعلم؟ فقال: «لتصمت نساؤكم فى الكنائس.. وليسألن رجالهن فى البيت» (كورنثوس الأولى١٤: ٣٤-٣٥).

ويوحنا فم الذهب أيضاً وبخ النساء اللاتى أردن تولى دوراً كهنوتياً فى بحثه عن **«الكهنوت»**.

ثانياً ٢.[٢٣] تلك الواجبات التى ذكرتها من قبل يمكن أن تنفذ بسهولة من قبل الكثيرين الخاضعين للسلطة، ليس من الرجال فقط بل من النساء أيضاً. ولكن عندما تكون هناك حاجة لشخص ما لكى يقود كنيسة ويعهد إليه العناية بالنفوس، فليفسح جنس الإناث بأكمله الطريق لجسامة المسئولية. وكذلك معظم الرجال...

---

(٢١) الإسكندر الأكبر مات في بابل في ٣٢٣ ق.م ويعتقد أنه مات مسموماً.

(٢٢) انظر ما قبله.

(٢٣) Text: PG 48.633

ثالثاً ٩. إن القانون الإلهى قد أغلق الباب فى وجه النساء لتولى مناصب الخدمة الكنسية، ولكنهن يستخدمن القوة للدخول عنوة، وحيث إنهن لا يستطعن تحقيق الفوز بأنفسهن، فإنهن يعملن كل شيء عن طريق مساعدة الآخرين، لقد سلّحن أنفسهن بنفوذ كبير لدرجة أنهن يسمحن لبعض الرجال بتولى المناصب الكهنوتية، ويحرمن البعض الآخر من توليها حسبما يردن. فكل شيء مقلوب رأساً على عقب، حتى نرى تحقيق المثل القائل: «المحكومون يقودون الحكام» وياليتهم كانوا رجالاً، ولكن أولئك غير المسموح لهن بالتعليم، ولماذا أقول «التعليم»؟ لأن القديس بولس لم يأذن لهن بالتحدث (كورنثوس الأولى١٤:٣٤)، لقد سمعت أحدهم يقول: إنهن قد استبحن لأنفسهن حرية الكلام إلى الحد الذى ينتقدن فيه السلطات الكنسية ويوبخنها بعنف أكثر مما يفعل السادة مع عبيدهم.

ومع أن **فم الذهب** فى حقيقة الأمر لم يسمح للنساء بالمطالبة بالمناصب الكهنوتية، إلا أنه كان يدعو باللفظ المرأة **«كاهنة»** إذا اقتادت بنتيها إلى «المعمودية» وذلك بإغراقهما فى وقت الاضطهاد. *وفى عظته عن القديستين (**برنيكى وبروسدوس** Bernice and Prosdoce) يمتدح فم الذهب الأم الشجاعة بهذه الكلمات:

٦.[٢٤] لقد دخلا إلى وسط النهر، وسلّما أنفسهما لتلك التيارات، ودخلت الأم مع ابنتيها. لتسمع الأمهات والعذارى: ولتطع العذارى أمهاتهن، ،ولترفع الأم ابنتيها وتحبهما، لقد دخلت الأم بين ابنتيها واحدة على كل جانب، المرأة المتزوجة بين العذارى، الزواج بين العذراوية، والمسيح وسطهم، وكما أن لجذر الشجرة فرعان ينميان على كلا الجانبين، فهكذا أيضاً تلك المرأة المباركة دخلت مع العذارى واحدة على كلا الجانبين، وسلّمتهما للأمواج، وهكذا أغرقتا، بل أنهما لم تغرقا، بل عمّدتا بمعمودية جديدة، وإذا أردت أن تعرف إن كانت المعمودية التى حدثت وقتئذ كانت حقيقية أم لا، فاستمع كيف كان المسيح يتكلم مع ابنى زبدى: «أما الكأس التى أشربها أنا فتشربانها،، وبالصبغة التى أصطبغ بها أنا تصطبغان» (مرقس ١٠:٣٩). وأى نوع من المعمودية حصل عليها يسوع بعد معمودية يوحنا سوى الموت على الصليب؟ وهكذا كما عمّد يعقوب بمعمودية المسيح، ليس بالصلب، بل بقطع رأسه بالسيف (أعمال١٢:٢)، هكذا أيضاً هاتان الفتاتان، فمع أنهما لم تصلبا بل واجهتا الموت بالماء، فقد

---

* يبدو أن ما حدث هو أن الأم حاولت أن تعمد ابنتيها في النهر كمعمودية ضرورة وقت الاضطهاد ولكن حدث أنهما غرقتا رغماً عن إرادتها. وهنا رأى فم الذهب أن المعمودية مقبولة ومعتمدة!!!

(٢٤) Text PG 50.638

عمدتا بمعمودية المسيح.

والأم هي التي عمدتهما.«ماذا تقول؟ هل المرأة تعمّد؟ نعم مثل هذه المعمودية تقوم بها النساء، وهكذا أيضاً هذه المرأة عمّدت، وصارت كاهنة. لقد جاءت بذبائح روحية، وكان قرارها بديلاً عن وضع الأيدى على رأسها فى هذه الحالة. حقاً لقد كان الأمر معجزة، إنها لم تكن بحاجة لمذبح لتقديم الذبيحة، ولا خشب أو نار أو سيف، لأن النهر صار كل هذه الأشياء معاً، المذبح والخشب والسيف والنار والذبيحة فهى معمودية أفضل بكل المقاييس، وقد قال بولس بهذا الصدد: «صرنا متحدين معه بشبه موته» (رومية٦:٥). وفيما يختص بمعمودية الشهداء فهو لا يقول «شبه موته» بل إننا "متشبهيين بموته» (فيلبى٣: ١٠).

وبالرغم من استبعاد النساء من الكهنوت، إلا أنهن كان يمكنهن الالتحاق بنظام الأرامل لو انطبقت عليهن الشروط. وفى القرن الرابع توجد أدلة على قيام شماسات بالمساعدة فى بعض الوظائف الطقسية تتعلق بالنساء، وبعض المجامع الكنسية فى القرنين الرابع والخامس تشير أيضاً إلى وجود شماسات.:

نيقية ٣٢٥م قانون ١٩ فيما يخص البوليانستس Paoulianists[٢٥] الذين هربوا من هذه الطائفة إلى الكنيسة الجامعة، فقد أصبح فى حكم المقرر أنهم يجب أن يعاد تعميدهم، ولو اعتبر أى واحد منهم فى الماضى من ضمن رجال الدين، وأنه بعيد عن ارتكاب الذنب، ولا يستحق التوبيخ، فليعاد تعميدهم على يد أسقف الكنيسة الجامعة، ولو ثبت بعد الفحص أنهم غير لائقين فليعزلوا من مناصبهم، وليتبّع نفس النظام بالنسبة للشماسات، وكل من كان ينتسب لرتبة كهنوتية، والشماسات هن اللاتى يلبسن ملابس الراهبات، ولكن حيث إنه لم توضع الأيدى عليهن فليحسبن فى عداد العلمانيات بكل تأكيد.

خلقدونية (٤٥١م)* قانون ١٥: تقرر عدم رسامة الشماسات قبل بلوغهن سن الأربعين، بعد فحص دقيق، ولكن بعد أن تلبس الواحدة منهن ملابس الرهبنة، وتستمر فى الخدمة لبعض الوقت، ثم تقدم على الزواج، ففى ذلك إساءة بالغة لنعمة الله، ومثل هذه المرأة تكون محرومة (ملعونة) هي ومن تزوجها.

---

(٢٥) أتباع شيعة في القرن الثالث منشقة عن الكنيسة بزعامة بولس السمسطائي Paul Of Samosata

* مجمع خلقيدونية لا تقبله الكنيسة وهو بداية الانشقاق عن الأرثوذكسية.

إن الأدوار المسموح بها للنساء كأرامل وشماسات- ولكن ليس ككاهنات أو معلمات- تم وصفها بالتفصيل فى (تعاليم الرسل)، وهى وثيقة ترجع للقرن الرابع، وربما كانت من أصل سورى، وهى تحوى العديد من قوانين الكنيسة، ومما هو جدير بالملاحظة أنه طبقاً للتقليد الشرقى المتمثل فى «تعاليم الرسل» فالشماسات تتم رسامتهن، وهو ما لم تأخذ به الكنيسة الغربية، ومع ذلك فنظام الشماسات كان قصير الأمد، فمنذ أوائل العصور الوسطى فصاعداً، يبدو أن دورهن تم تصنيفه تحت نظام الراهبة، والفقرة التالية من «تعاليم الرسل» تقدم دليلاً على النظم المتاحة للنساء فى المسيحية الشرقية.

ثانياً،٦،٢٦[٢٦] ولتكرموا الشماسة كرمز للروح القدس، وهى لا يصح أن تفعل شيئاً أو تقول شيئاً بدون الشماس، كما أن المعزى لا يتصرف أو يتكلم من ذاته بل يمجد المسيح وينتظر إتمام إرادته، وكما أننا لا نؤمن بالمسيح بمعزل عن تعليم الروح هكذا يمنع اقتراب أية امرأة من الشماس أو الأسقف بدون الشماسة ..ولتحسبوا أراملكم وأيتامكم رمزاً للتقدم على المذبح، ولتكرم العذارى كرمز لمذبح البخور وللبخور أيضاً.

ثالثاً،١. ولتكتتب الأرامل عند ما لا يقل عمرهن عن ٦٠ سنة (تيموثاوس الأولى ٥:٩)، حتى إنه بسبب سنهن لا تكون هناك شبهة فى أنهن سوف يقدمن على زواج ثان. ولكن إذا سمحت لإحدى الأرامل الحدثات أن تكتتب كأرملة فإذا تزوجت لأنها لم تستطع أن تتحمل الترمل فى شبابها فإنها سوف تكون سبباً فى أن يتهم الشعب هذا النظام بعدم الاحتشام، وزد على ذلك فهى سوف تدان أمام الله ليس لأنها قيدت نفسها بزواج ثان، بل لأنها لم تحفظ عهدها وبطرت على المسيح (تيموثاوس الأولى٥:١١)، ولذلك فمن الضرورى عندما يتعهد المرء بشىء أن يوفى بما تعهد به لا أن يخلّ به «أن لا تنذر خير من أن تنذر ولا تفى» (جامعة٥:٥)، ولكن إذا كانت إحدى الحدثات تعيش مع زوج لمدة قصيرة ثم فقدته، إما بالموت أو لظرف من أى نوع، وظلت وحدها متمتعة بهبة الترمل، فإنها سوف تنال بركة شبيهة بأرملة صرفة صيدا التى أقام عندها النبى إيليا (ملوك الأول ١٧:٩). إن امرأة كهذه يمكن أن تشبه (بحنة) بنت فنوئيل من سبط أشير، التى لم تترك الهيكل بل استمرت فى صلوات وطلبات ليلاً ونهاراً، وهى أرملة نحو ثمانين سنة، وكانت قد عاشت مع زوج سبع سنين بعد بكوريتها،

---

(٢٦) Text:Didascoliaet Constitutiones Apostolorum. ed, F.X.Funk Paderborn, 1905, 105.

وفرحت بمجىء المسيح ووقفت تسبح الرب وتكلمت عنه مع جميع المنتظرين فداءً فى أورشليم (لوقا ٢: ٣٦، ٣٧). إن مثل هذه المرأة سوف تكرَم، لأنها قد أثبتت شهرتها وسط رجال الأرض، ونالت مديحاً أبدياً من الله فى السماء.

ثالثاً،٢. ومع ذلك لا تكتتب الأرامل الحدثات مع الأرامل لئلا يتزوجن مرة ثانية، ويسببن متاعب بحجة عدم قدرتهن على ضبط أنفسهن، لتساعدهن وتؤيدهن لئلا يقدمن على الزواج ثانية، بحجة أنهن مهجورات ويورطن أنفسهن فى عمل غير لائق، لأنك يجب أن تعرف هذا أن الزواج مرة واحدة طبقاً للناموس شرعى، ومتفق مع الغرض الإلهى، ولكن بعد أن تكون المرأة قد تعهدت بالترمل فإن الزواج الثانى يكون غير شرعى، ليس بسبب الاتحاد الزوجى بل بسبب الكذب. والزيجة الثالثة دليل على عدم العفة. أما الزيجات فيما بعد الثالثة فهى زنا مفضوح وشهوانية واضحة،. لأن الله فى الخلق أعطى امرأة واحدة لرجل واحد، «لأن الاثنين يكوّنان جسداً واحداً» (تكوين٢: ٢٤). ومع ذلك فلتعطى الزوجات الحدثات بعد موت أزواجهن الحق فى زيجة ثانية، لئلا يسقطن فى فخ إبليس، ويقعن فريسة لشهوات تضر بالنفس، وتجلب عليهن العقاب.

ثالثاً،٣. الأرملة الحقيقية هى التى كان لها زوج واحد، ومشهود لها بالأعمال الصالحة من قبل أناس كثيرين، إنها بالحقيقة أرملة مؤمنة تقية طاهرة معتدلة ربت أولادها تربية حسنة وقد أضافت الغرباء (تيموثاوس الأولى ٥: ٣-١٠). وينبغى أيضاً مساعدتها كمكرسة لله...

ثالثاً،٥. لتكن الأرملة رقيقة هادئة عطوفة غير ميالة للغضب أو الخداع أو الثرثرة أو الصياح أو التسرع فى الكلام، أو التحدث بسوء أو تحاول تصيد الأخطاء أو التحدث بلسانين أو فضولية، ولو رأت أو سمعت شيئاً معيباً فكأنها لا رأت ولا سمعت، ولا تدع الأرملة تهتم بشىء سوى الصلاة لأجل الذين يعطون، ولكل الكنيسة. وعندما يسألها أحد شيئاً فلا ترد عليه على الفور سوى فى الأشياء المتعلقة بالإيمان والبر والرجاء فى الله، وترسل أولئك الذين يريدون أن يتعلموا شيئاً عن التقوى للقادة، ولتجاوب فقط للإطاحة بشرور تعدد الآلهة مثبتة تعليم وحدة الله، ولكن ما يتعلق بما هو خلاف هذه التعاليم، فلا يصح أن تجيب عليه لئلاً بتفوهها بأشياء لا تعرف عنها شيئاً فإنها قد تجدف على الكلمة.. لأنه عندما يسمع غير المؤمنين تعليماً خاطئاً عن المسيح (وبخاصة عن تجسده وآلامه)، فإنهم سوف يسخرون منه ويهزأون به كتعليم زائف، بدلاً من تقديم الحمد، وتُسأل المرأة المتقدمة فى السن عن عدم درايتها بالأمور وعن التجديف، وسوف تستحق الويل، لأنه يقول «ويل للشخص الذى يهان

اسمى بسببه بين الأمم» (إشعياء ٥٢: ٥- الترجمة السبعينية).

ثالثاً، ٦. ولذا لا نأذن للنساء أن يعلمن فى الكنيسة، بل فقط أن تصلى وتستمع للذين يعلّمون، وفى الحقيقة فإن معلمنا نفسه، الرب يسوع المسيح الذى أرسل إلينا الاثنى عشر ليعلّموا الشعب والأمم، لم يرسل نساء للتبشير، ومع ذلك فقد كان فى إمكانه أن يرسلهن لأنه توجد أم الرب وأخواته بالإضافة لمريم المجدلية ومريم أم يعقوب، ومرثا ومريم أختا لعازر وسالومى وآخرون، لأنه إذا كان ضرورياً للنساء أن يعلّمن لكان أمر أولاً هؤلاء النساء بالقيام بتعليم الشعب.

ثالثاً،٨. فينبغى على الأرامل إذن أن يُكنَّ جادات مطيعات للأساقفة، والكهنة والشمامسة، ثم يجب على الشماسات أيضاً أن يسلكن بوقار واحترام وخوف تجاههم، دون أن يثرن ضدهم أو يتصرفن ضد الأوامر إلا بموافقة الشماس.

ثالثاً:،٩. أما فيما يختص بأن تقوم المرأة بالتعميد، فنحن نخبركم أنه ليس من الأخطار القليلة أن تحاول النساء القيام بذلك، ولهذا فنحن لا ننصح به، لأنه من الأمور الخطيرة، أو قل غير الشرعية والدنسة لأنه إذا كان «الرجل رأس المرأة» (١كورنثوس ١١: ٣) فقد اختير للكهنوت، وليس من الصواب إهمال نظام الخليقة، وترك الرأس لينحط إلى أدنى مكان فى الجسد، لأن المرأة هى جسد الرجل، لأنها من جنبه وخاضعة له ، وهى أُخذت منه أيضاً لأجل إنجاب الأطفال، قال الله «وهو يسود عليك» (تكوين ٣: ١٦) لأن الرجل هو حاكم المرأة بما أنه هو رأسها. وإذا كنا منذ البدء لم نسمح للنساء أن يعلّمن، فكيف نسمح لهن بأن يصبحن كاهنات مما هو مضاد للطبيعة؟ لأنه من أخطاء ضلال الأمميين أن رسموا نساء كاهنات للآلهات، وليس هذا وارداً فى عهد المسيح. ولو كان من الضرورى على النساء أن يعمّدن لكان الرب بالتأكيد عمّدته أمه، وليس يوحنا، أو عندما أرسلنا لكى نعمّد لكان أرسل معنا نساء أيضاً لهذا الغرض. ولكن الآن لا نجد فى وصية أو فى أى شىء مكتوب شيئاً مثل ذلك حيث إنه قد عرف نظام الطبيعة، وكيفية مواءمة الأشياء لأنه خالق الطبيعة، ومشرّع القوانين.

ثالثاً،١٦. ارسم أيضاً شماسة مؤمنة ومقدسة للخدمات المتعلقة بالنساء، لأنه حينما لا يستطيع الأسقف أن يرسل شماساً لبعض المنازل التى تقطنها النساء بسبب غير المؤمنين، فلك أن ترسل شماسة بسبب شبهات الأشرار، لأننا نحتاج لامرأة شماسة لأعمال عديدة، وأول هذه الأمور هى معمودية النساء، فالشماس سوف يمسح فقط جبهاتهن بالزيت المقدس، وبعد ذلك تقوم الشماسة بمسحهن لأنه لا داع أن يقوم الرجال بالأمور التى ترتبط بالنساء (الصلاة

لرسامة شماسة: يرقد الأسقف على يديه ويقول:).

ثامناً، ٢. «يا الله الأبدى، أبو ربنا يسوع المسيح خالق الرجل والمرأة الذى ملأ بالروح القدس مريم ودبورة وحنة وخلدة [٢٧] اللائى أصبحن جديرات أن يولد ابن الله الوحيد من امرأة، واللائى تم تعيينهن كحارسات للبوابات المقدسة فى خيمة الشهادة، وفى الهيكل [٢٨] والآن انظر إلى خادمتك التى يتم رسامتها كشماسة، وامنحها الروح القدس، وطهرها من دنس الجسد والروح (٢كورنثوس٧:١) حتى تتمم بكفاءة العمل الموكول إليها لمجدك ومدح مسيحك الذى له، وللروح القدس المجد والعبادة إلى الأبد. آمين».

ثامناً ،٢٤،٢. لا تتم رسامة العذراء لأنه ليس لدينا أمر من الرب بذلك، لأن فائدة البتولية ليس التشهير بالزواج، بل لتوفير الوقت للعبادة.

ثامناً ،٢٥،٢. ولا ترسم الأرملة إلا بعد أن يمر زمن طويل بعد فقدها لزوجها وثبت فيه أنها عاشت بلا لوم مع ضبط النفس واعتنت بأهل بيتها على خير ما يرام، كيهوديت وحنة[٢٩] هاتان المرأتان الوقورتان اللتان تم تعيينهما على مرتبة الأرامل، ولكن إذا فقدت زوجها منذ مدة وجيزة، فلا يمكن وضع الثقة فيها بل فلتحكم الأيام عليها، لأن العواطف أيضاً تكبر مع البشر إذا لم يتم التحكم فيها بلجام أفضل.

بعض النساء المسيحيات القلائل المقتدرات، يمكن أن يقمن بأعمال الخير على نطاق أوسع فى العالم الخارجى. **ففى الرسالة ٧٧، يذكر جيروم** كيف أسست صديقته (فابيولا)Fabiola مستشفى فى روما، وجيروم حساس بنوع خاص لنقد الشعب لفابيولا: لقد طلقت زوجها الأول الزانى وتزوجت ثانية بينما الزوج الأول كان على قيد الحياة، وبعد موت زوجها الثانى تابت عن خطاياها، وكرّست مستقبلها لأعمال الخير المسيحية. وقصة جيروم عن إنشائها مستشفى، والعناية بالمرضى والقيام على خدمتهم بيديها يضيء إحدى الطرق التى يمكن بها للمرأة أن تعلن عن اهتمامها المسيحى عن طريق العمل النشط فى العالم الواسع بدلاً من التقوقع والتأمل.

٦.[٣٠] لقد أطلنا الحديث عن توبتها، وغصنا فى مستنقع ضحل -إذا جاز لنا القول- حتى

---

(٢٧) خروج ١٥: ٢٠-٢١، قضاة٥، لوقا٢: ٣٦-٣٨، ملوك الثاني ٢٢: ١٤-٢٠.

(٢٨) خروج ٣٨: ٨، صموئيل الأول ٢: ٢٢.

(٢٩) يهوديت ٨: ٢، لوقا٢: ٣٦-٣٨.

(٣٠) Text CSEL 55.42

ينفتح أمامنا مجال أوسع دون عوائق لمدحها. فماذا فعلت عندما رجعت لتناول العشاء الربانى أمام أعين جميع أعضاء الكنيسة؟ هل من المحتمل فى يوم ما أن تنسى كل شرورها؟ هل أرادت ثانية مجادلة مواجهة أخطار الإبحار بعد تحطم السفينة؟ فى الحقيقة كلا، بل أنها تخلت عن كل شىء، وباعت كل الممتلكات التى كانت بحوزتها (لقد كانت كبيرة وتتناسب مع طبقتها الاجتماعية) وقد شاركت الفقراء فى ثروتها.

لقد أسست مستشفى، قبل كل شىء جمعت فيه المرضى من الشوارع، حيث يمكن أن تشدد أطراف البائسين، التى أنهكها الضعف والمجاعة. فهل أصف الآن المصائب المتنوعة للبشر من أنوف مجدوعة (مشوهة) وأعين مقلوعة وأقدام شبه محروقة وأيدى كالأشباح وبطون منفوخة، وسيقان هزيلة وعظام متورمة للسيقان ولحم متآكل متعفن تتناثر منه الديدان؟ كم من مرة كانت تحمل على أكتافها أولئك الذين استنفد اليرقان والقذارة، قواهم وكم من مرة قامت فيها بتنظيف وغسيل الجروح الدموية المتقيحة، والتى لم يجرؤ إنسان آخر على مجرد النظر إليها؟ كانت تقدم الطعام بيديها، وكانت تنعش بقطرات الماء أولئك الذين لم يكونوا فى الواقع سوى جثث تتنفس. إنى أعرف الكثيرين من الأغنياء والمتدينين الذين بسبب ضعف معدتهم يقومون بأعمال الخير من هذا القبيل بمساعدة الآخرين، ويظهرون الرحمة عن طريق الأموال ولكن ليس بيدهم، بالطبع أنا لا أدينهم ولا أفسر إصابتهم بالغثيان لتلك الأمور على أنه نقص فى الإيمان، ولكن كما أحكم على معدتهم الضعيفة بالإفراط، أمتدح إلى عنان السماء غيرة هذه الشخصية الفريدة. إن الإيمان القوى يستخف بتلك التفاصيل المملة. إنه يعرف أى نوع من التوبيخ ناله فكر الرجل الغنى، الذى كان يلبس الأرجوان والذى لم يفعل شيئاً للعازر (لوقا١٦:١٩-٣١)، ذلك الرجل الذى لا نستطيع النظر إليه، والذى نتقيأ لمنظره، هو مثلنا تماماً ومكوّن من نفس جبلتنا المكوّنة من نفس العناصر، فما يعانيه هو نعانيه نحن، فلنعتبر جروحه جروحنا وعندئذ تتبدد كل قساوة فكرية تجاه مخلوق نظيرنا، وذلك عندما نفكر فى نفوسنا تفكيراً ملؤه الرحمة.

فحتى لو كان عندى مائة لسان أو مائة فم، وصوت من الحديد، ما قدرت على أن أسرد أسماء كل الأمراض [٣١] التى حولّتها (فابيولا) إلى انتعاش يسرى فى أوصال هذه الأعداد الكبيرة من البائسين حتى إن كثيرين من الأصحاء يحسدون الفقراء على ضعفهم. ومع ذلك

---

(٣١) فرجيل Virgil – الانيادة Aenid

فقد تصرفت بتحرر تجاه رجال الدين والرهبان، فأي دير لم تقدم له مساعدة من ثروتها ؟ وأي شخص عار أو ملازم للفراش لم يأخذ ملابس نسجتها (فابيولا) ؟ وأي شخص محتاج لم تعط له تقدمة سريعة؟ لقد تجاوزت شفقتها وعطفها حدود روما الضيقة بالنسبة لها، ولذا سافرت إلى الجزر، وقامت بجولات حول بحر ستروكان Estruscan وإقليم الفولشيان Volscians[٣٢] بهباتها السخية وأيضاً نحو الشواطىء المتعرجة المنعزلة التى يقيم فيها الرهبان على شكل تجمعات، وقد قامت بذلك إما بنفسها أو بواسطة رجال قديسين موثوق فيهم بحمل هباتها إليهم.

وقد فتحت المسيحية عالماً أوسع للنساء عن طريق تشجيعها بالذهاب إلى الأماكن المقدسة، لقد شهد القرن الرابع ازدهار الاهتمام المسيحى بالأماكن المقدسة فى فلسطين والأديرة المصرية، ويرجع الفضل فى ذلك لأم الإمبراطور قسطنطين (هيلانة Helena) بإثارتها الاهتمام بالحج لهذه الأماكن عن طريق الرحلة التى قامت بها بنفسها إلى فلسطين، وتبرعاتها السخية لبناء الكنائس هناك، وقد قيل أيضاً إن هيلانة وجدت الصليب الحقيقى، أى الصليب الذى مات عليه يسوع، ويقرر المؤرخ المسيحى فى القرن الخامس **سقراط سكولاستيكوس** Socrates Scho- s lasticu على أنشطة هيلانة Helena فى الفقرة التالية من **«تاريخ الكنيسة»**.

أولاً ١٧،. أم الإمبراطور، هيلانة، والتى سمى الإمبراطور مدينة هيلينوبوليسHelenopolis بدلاً من اسمها السابق دريبانيس Drepanes).وقد أمرها الله فى الأحلام أن تذهب إلى أورشليم، بعد أن اكتشفت أن ما كان يدعى أورشليم سابقاً ما هى إلا «خربة كمظلة فى كرم كخيمة فى مقثأة» (إشعياء ١:٨ الترجمة السبعينية)، فأخذت تفتش بتدقيق عن قبر المسيح، وموقع القبر الذى قام منه ووجدته بمعونة الله، ولكن مع شىء من التعب. فما سبب التعب؟ يمكن إيجاز السبب فيما يلى: فالناس الذين كانوا يميلون إلى المسيحية كرموا القبر بعد انتهاء صلب المسيح، ولكن أولئك الذين رفضوا المسيحية كوّموا التراب وهالوه فوق هذه البقعة وبنوا معبداً لأفروديت [٣٣]. وأقاموا تمثالاً لها دون إقامة أى اعتبار للمكان، واستمر الحال هكذا مدة طويلة، وسمعت أم الإمبراطور بذلك، وهكذا عندما هدمت التمثال، انزاح التراب

---

(٣٢) شعوب قديمة كانت تسكن في إيطاليا.

(٣٣) إلهة الحب الأغريقية.

الذى كان يغطى هذه البقعة، وانكشفت البقعة، ووجدت ثلاثة صلبان فى المقبرة، واحد منهم كان هو الصليب المبارك الذى صُلب عليه المسيح، والصليبان الآخران كانا هما الصليبان اللذان صُلب عليهما اللصان، ووجدت أيضاً لوحة بيلاطس التى كُتب عليها أن المسيح المصلوب كان هو ملك اليهود، كُتب هذا اللقب بحروف هجائية مختلفة، وكانت أم الإمبراطور فى حالة من الحزن حيث إنه لم يكن واضحاً أى صليب كانوا يبحثون عنه، ولكن أسقف أورشليم المدعو مكاريوس Macarius سرعان ما أزال قلقها، وأزال شكها بإيمانه لأنه طلب من الله علامة وحصل عليها، وكانت العلامة هكذا: كانت هناك امرأة من تلك المنطقة تعانى من مرض مزمن ووصلت لحافة الموت، أمر الأسقف بإحضار الصلبان واحداً واحداً إلى تلك المرأة المائتة، لاعتقاده بأنها سوف تستعيد قوتها لو لمست الصليب المبارك، ولم يكن مخطئاً فى اعتقاده هذا، لأنه عندما أُحضر الصليبان الآخران اللذان لم يصلب الرب على أى منهما، ظلت على حالتها، ولكن عند إحضار الصليب الحقيقى بالقرب منها شُفيت المرأة المائتة فى الحال واستعادت صحتها، كانت هذه هى الطريقة التى وجدت بها خشبة الصليب.

وبَنت أم الإمبراطور فى تلك البقعة التى كان بها القبر كنيسة فاخرة، وأسمتها «أورشليم الجديدة» وأقامتها مقابل المدينة القديمة المهجورة. وقد تركت فى نفس هذه البقعة قطعة من الصليب مغلّفة بقطعة من الفضة كتذكار لأولئك الذين يريدون الاستفسار عنه، وأرسلت الجزء الآخر إلى الامبراطور والذى عندما استلمه معتقداً أن المدينة التى تحتفظ به ستكون فى مأمن تام، أخفاه فى تمثاله الخاص به الذى أقيم فوق عمود كبير من الرخام فى الساحة العامة المسماة قسطنطين فى مدينة القسطنطينية، ومع أنى كتبت هذا مما سمعته بأذنى فإن كل سكان مدينة القسطنطينية يقولون: إن ذلك صحيح، وأخذ قسطنطين المسامير التى ثبّتت بها يدى المسيح على الصليب (فى الحقيقة وجدتها أمه أيضاً فى القبر وأرسلتها له) وجعلها جزءاً من لجام وخوذة يستخدمها فى معاركه. ولقد تحمل الامبراطور نفقات كل المواد اللازمة لإقامة كنائس، وكتب أيضاً للأسقف مكاريوس ليسرع بإنشاء هذه المبانى. وعندما أتمت أم الامبراطور إقامة (أورشليم الجديدة) أقامت كنيسة أخرى ليست بأقل فخامة من الأولى فى كهف بيت لحم حيث تم ميلاد المسيح حسب الجسد [٣٤]. وليس هذا كل شيء، فقد بنت كنيسة أخرى على جبل الصعود. لقد كانت تقية فى هذا الصدد حتى إنها كانت تصلى بمصاحبة النساء. ودعت

(٣٤) أرست الكنيسة الأُولَى تقليداً بأن يسوع ولد في كهف.انظر The Apocryphal Protevanglium of James180.

العذارى المقيدات فى سجلات الكنيسة، إلى وليمة، وقامت على خدمتهن بنفسها وهى تحمل الطعام إلى الموائد. وقدمت الكثير جداً إلى الكنائس والفقراء، وعندما أكملت حياتها فى تقوى ماتت فى حوالى الثمانين من العمر. ونُقل جثمانها إلى العاصمة، روما الجديدة [٣٥] ووضع فى القبر الامبراطورى.

وما أن ضربت هيلانة Helena المثل فى السفر للأرض المقدسة حتى تبعها جمهور كبير من الإناث والرجال. وهناك تقرير لما حدث كتبته (إيجيريا) Egeria إحدى شاهدات العيان الشهيرات، وهى راهبة رحلت من غرب أوربا إلى فلسطين فى أواخر القرن الرابع وكتبت يوميات الرحلة لأخواتها فى أرض الوطن، وتظهر المحاضر المصورة عن رحلتها عميق اهتمامها لاكتشاف الأماكن الكتابية، وفى احترام ذكرى تكلا[٣٦] (والمعتقد أنها كانت حينذاك شخصية تاريخية). وفى ممارسة طقوس وعادات الكنيسة المسيحية فى فلسطين، والأسلوب اللاتينى الذى كتب به كتاب «سياحة إيجيريا» The Pilgrimage Of Egeria لا يتناسب مع المقاييس الكلاسيكية المنمقة التى استخدمها كتّاب مسيحيون من أمثال جيروم وبولينوس من نولا Paulinus of Nola.

١،٣ [٣٧] وهكذا فى مساء السبت وصلنا إلى الجبل ولبعض حجرات الأديرة، واستقبلنا الرهبان الذين كانوا يعيشون هناك بترحيب شديد، مظهرين لنا كل عطف لأنه توجد هناك كنيسة مرسوم عليها كاهن. وهكذا أقمنا الليل هناك، وباكراً فى صباح الأحد بدأنا مع الكاهن والرهبان الذين كانوا يعيشون هناك فى تسلق الجبل واحداً وراء الآخر. وتسلق تلك الجبال بالغ الصعوبة، لأنك لا تستطيع الاقتراب منها بالدوران فى طريق حلزونى، بل يجب أن تصعد واحداً وراء الآخر كما لو كنت تصعد سوراً ثم تسير إلى الأمام فى اتجاه النزول لكل جبل منها حتى تصل لسفح الجبل الأوسط، والمسمى بجبل سيناء.

٢،٣. ولذا. بإرادة المسيح إلهنا، وبمساعدة صلوات القديسين الذين جاءوا معنا، صعدنا هكذا بمجهود جبار لأنه كان ضرورياً بالنسبة لى أن أصعد على قدمىّ، لأنه كان من المستحيل إطلاقاً أن أصعد على سرج. ومع ذلك فأنت لا تشعر بإجهاد، لماذا، لأن إرادة الله كانت تسهل

---

(٣٥) القسطنطينية.

(٣٦) المذكورة من قبل.

(٣٧) Text CCl 175.39.

صعودنا، وكنت أرى تحقيق أمنيتى، وهكذا وصلنا إلى قمة جبل الله، جبل سيناء المقدس فى الساعة العاشرة صباحاً، هذا هو المكان الذى أُعطى فيه الناموس، هذا هو المكان الذى نزل عليه مجد الله عندما كان الجبل يدخن (خروج ١٩:١٨).

٣،٣. وهكذا يوجد الآن فى هذا المكان كنيسة، ليست كبيرة، لأن المكان نفسه أى قمة الجبل ليس متسعاً بما فيه الكفاية، ومع هذا فهذه الكنيسة لها جاذبية عظمى خاصة بها.

٤،٣. عندما صعدنا بإرادة الله إلى القمة، ووصلنا إلى باب هذه الكنيسة، كان الكاهن المعين على هذه الكنيسة آتياً من منتجعه الرهبانى مسرعاً لاستقبالنا، لقد كان رجلاً مسناً بلا لوم، راهباً منذ سنى حداثته، وكما يقال هنا إنه «ناسك» (ما الذى يمكن أن يقال أكثر من ذلك؟) رجل جدير بالتواجد فى هذا المكان، ثم جاء الكهنة الآخرون وكل الرهبان الذين عاشوا بالقرب من الجبل، أى أولئك الذين لم يكن هناك ما يحول بينهم وبين الوجود فى هذا المكان سواء كان كبر السن أو الضعف.

٥،٣. لم يكن هناك من يسكن على قمة الجبل الأوسط، لأنه لا يوجد هناك سوى الكنيسة وحدها، والكهف الذى كان يوجد فيه موسى رجل الله.

٦،٣. وبعد أن تمت قراءة كل الفقرة من كتاب موسى فى نفس البقعة، تم تقديم الذبيحة بالطريقة الصحيحة، وتناولنا من العشاء الربانى. ونحن فى الطريق لمغادرة الكنيسة منحنا الكهنة «بركات» هذا المكان، أى الفاكهة التى تنمو على هذا الجبل. لأن هذا الجبل المقدس جبل سيناء، صخرى تماماً فلا توجد فيه شجرة واحدة، ومع هذا ففى سفح هذه الجبال، سواء حول هذا الجبل الذى فى الوسط أو حول تلك الجبال المحيطة به، لا توجد سوى أرض قليلة. ويقوم الرهبان القديسون بعزيمة ثابتة بزراعة شجيرات وعمل بساتين أو قطعة أرض بالقرب من صوامعهم، ويبدو أنهم يأخذون الثمار كما لو كانت من تربة الجبل نفسه، وهى فواكه أنتجوها بأيديهم.

٧،٣. بعد أن أخذنا العشاء الربانى، وأعطانا القديسون «البركات» وخرجنا من باب الكنيسة، بدأت أسألهم أن يرونا كل مكان على حدة. وقد وافق القديسون فى الحال، فأطلعونا على الكهف الذى كان يعيش فيه موسى رجل الله، عندما صعد إلى جبل الله للمرة الثانية، وأخذ لوحى الشريعة مرة أخرى بعد أن كان قد كسر اللوحين الأولين، عندما أخطأ الشعب (خروج٣٤:١-٢٨). ووافقوا على أن يروننا أماكن أخرى أردنا أن نراها، وكانوا يعرفونها جيداً.

٨،٣. أريدكم أن تعرفوا أيتها السيدات والأخوات المبجلات أنه فى هذا المكان الذى وقفنا فيه عند الكنيسة عندما نظرنا لأسفل من قمة الجبل الأوسط على الجبال المحيطة به أننا أولاً لم نستطع أن نصعد سوى بمجهود عنيف إلى الجبل الأوسط الذى وقفنا عليه، وقد بدت الجبال الأخرى كتلال صغيرة، ولكنها مع ذلك كانت عالية جداً لدرجة أنى ظننت أنى لم أر جبالاً أعلى منها سوى الجبل الأوسط الذى يرتفع عنها بمراحل، ومن هناك استطعنا أن نرى مصر وفلسطين والبحر الأحمر والبحر الأبيض، الذى يوصل إلى الإسكندرية، بالإضافة للحدود اللامتناهية للعرب مع أنه لا نكاد نصدق أن الرجال القديسين قد أطلعونا على كل هذه الأشياء.

(من جبل نبو ، تنظر ايجيريا فى اتجاه البحر الميت).

١٢،٥. إنك يمكن أن ترى الجزء الأعظم من فلسطين، التى هى الأرض الموعودة، وكل شىء فى أرض الأردن على الأقل بقدر ما تستطيع العين أن ترى، وعلى اليسار رأينا كل أراضى السدوميين وأرض صوغر، ولكن صوغر، هى المدينة الوحيدة الباقية من تلك الخمس مدن.

١٢،٦. وتوجد ذكرى هناك، أما عن المدن الأخرى فهى مليئة بالذكريات، لكن لا شىء يمكن أن يُرى سوى أطلال ومدن مقلوبة تحولت إلى رماد (تكوين ١٩:٢٤). ورأينا أيضاً البقعة التى قرأتم عنها فى الكتاب المقدس حيث نجد ما يدل على زوجة لوط (تكوين ١٩:٢٦).

١٢،٧. ولكن صدقونى أيتها السيدات المبجلات، إن العمود نفسه لا يمكن أن نراه مع أن المكان الذى كان موجوداً فيه ما يزال موجوداً، ولكن العمود نفسه يقال إنه اندثر فى البحر الميت الذى غطاه. لقد رأينا المكان ولكن لم نر أعمدة، ولذلك عند هذه النقطة لا يمكن أن نخبركم بمعلومات غير صحيحة لأن أسقف ذلك المكان أى صوغر قال لنا إنه قد مضت الآن عدة سنوات، ولا نرى أثراً للعمود لأن المكان الذى كان فيه العمود قد تغطى بالمياه تماماً، وهو على بعد ستة أميال من صوغر.

١٧،١. بعد مضى بعض الوقت وبعد مرور ثلاث سنوات كاملة منذ أن حضرت لأورشليم، ورأيت كل الأماكن المقدسة التى جذبتنى إليها لأصلى فيها، أعتقد أنه قد حان الوقت الآن باسم الله أن أعود إلى بلدى، وبإرادة الله أردت أيضاً أن أذهب إلى منطقة ما بين النهرين

لكى أرى الرهبان القديسين ، والذين قيل لى عنهم إنهم عديدون، وأن لهم طريقة متميزة فى الحياة، حتى إنه يصعب كتابة تقرير عنها، وأيضاً أردت أن أصلى فى كنيسة توما الرسول المقامة كذكرى لاستشهاده، والتى وضع فيها جسده الذى لم يتطرق إليه الفساد أى فى مدينة إديسا Edessa حيث أرسل إلى هناك بعد صعود يسوع إلى السماء، وكما يشهد يسوع إلهنا فى رسالة أرسلها إلى (ابجار) Abgar الملك عن طريق الرسول حنانيا Ananias[٣٨]، وهذه الرسالة محفوظة بتقديس بالغ فى مدينة اديسا Edessa حيث يوجد هذا المزار.

٢،١٧ وأريدكم أن تتيقنوا يا أعزائى أنه لا يوجد مسيحى قطع كل هذه المسافة إلى الأماكن المقدسة التى فى أورشليم، ولا يذهب هناك للصلاة، وهذا المكان هو المكان الخامس والعشرين للتوقف فيه من أورشليم.

٣،١٧. ولأن أنطاكية أقرب إلى بلاد ما بين النهرين، فقد كانت هناك فرصة جيدة لى بأمر الله، عند عودتى من القسطنطينية، لأن الطريق كان يمر بأنطاكية، ومن هناك ذهبت إلى بلاد ما بين النهرين، وهذا ما فعلته بأمر الله.

(إيجيريا تقرأ هنا الخطابات المتبادلة بين يسوع والملك أبجار)

١٦،١٩. وبعد أن أبلغنى الأسقف المقدس بكل هذه الأشياء قال لى: «لنذهب إلى البوابة الآن التى دخل منها حنانيا حامل هذه الرسالة، الرسالة التى كنا نتحدث عنها». ولما ذهبنا إلى البوابة صلّى الأسقف الواقف وقرأ لنا هناك الخطابات نفسها، وباركنا ثانية وصلى صلاة أخرى.

١٧،١٩. وأخبرى هذا القديس أنه منذ اليوم الذى دخل فيه حنانيا الرسول من تلك البوابة حاملاً رسالة الرب حتى يومنا هذا، يقول التقليد المتبع إنه غير مسموح لأى رجل نجس، ولا أى شخص يلبس ملابس الحداد أن يدخل من تلك البوابة، ولم يسمح لأى جثة بالمرور من هذه البوابة.

١٨،١٩. ثم أرانا الأسقف القديس قبر (أبجار) وكل عائلته، إنه قبر جميل جداً، ولكن على الطراز القديم، ثم قادنا إلى القصر القديم حيث كان يعيش الملك (أبجار) ثم أوضح لنا الأماكن الأخرى الموجودة هناك.

١٩،١٩. وقد سرنى هذا كثيراً أنى أخذت من هذا الرجل القديس الرسائل التى أرسلها

---

(٣٨) انظر قصة (أبجار) في أبوكريفا العهد الجديد، وأيضاً يوسابيوس، «تاريخ الكنيسة» ١،١٣.

أبجار للرب ورسائل الرب إلى (أبجار) التى كان قد قرأها علينا الأسقف القديس، وهب أنه يوجد عندى فى المنزل نسخ من هذه الرسائل فقد سرنى أكثر أن آخذ هذه الرسائل من الرجل، لئلا تكون النسخة الموجودة عندى فى المنزل ينقصها شيء من قبيل الصدفة، لأن النسخة التى أخذتها من هنا أكمل، وإذا أراد يسوع إلهنا أن أعود للوطن عندئذ يمكن أن تقرأونها أيتها السيدات العزيزات على قلبى.

(إيجيريا تذهب إلى ضريح تكلا)

١،٢٢. عندما رجعت إلى أنطاكية قضيت أسبوعاً هناك حتى الوقت الذى أعد فيه كل شيء ضرورى لرحلتنا، وبعد أن غادرت أنطاكية وفى الطريق إلى عدة أماكن للتوقف فيها كاستراحات أتيت إلى إقليم كيليكيا Cilicia وعاصمته طرسوس حيث كنت هناك من قبل فى طريق ذهابى لأورشليم.

٢،٢٢. وحيث أن مزار القديسة تكلا على بعد ثلاثة أيام سفر من طرسوس أى فى آشور، سرنى كثيراً أن أذهب إلى هناك خاصة أنها كانت قريبة.

١،٢٣. وبعد أن تركت طرسوس أتيت إلى مدينة معينة تطل على البحر تدعى بومبيوبوليس Pompeiopolis فى كيليكيا أيضاً، ومن هناك دخلت منطقة آشور، وأقمت فى مدينة تدعى كوريكوسCorycus. وفى اليوم الثالث جئت إلى مدينة تدعى سلوقية، وعندما وصلت هناك ذهبت إلى الأسقف، وهو رجل قديس بالحق وراهب سابقاً، ورأيت أيضاً كنيسة جميلة فى نفس المدينة.

٢،٢٣. ربما أن ضريح تكلا موجود فوق المدينة على تل منبسط ربما على بعد . . ١٥ قدم من المدينة، فضلت الذهاب إلى هناك للإقامة، وفى الكنيسة المقدسة لا يوجد سوى صوامع بلا عدد للرجال والنساء.

٣،٢٣. وجدت هناك واحدة من أعز صديقاتى، إنسانة يشهد لها ولسلوكها فى الحياة كل واحد فى الشرق، الشماسة القديسة المدعوة (مارثاناMarthana) وكنت قد قابلتها فى أورشليم حيث كانت قد جاءت لتصلى. وهى تشرف هناك على «قلايات» رهبانية للعذارى، فهل سوف أستطيع أن أصف مقدار فرحى أو فرحها عندما رأتنى؟

٤،٢٣. ولكن يجب علىّ أن أعود للموضوع الذى أتحدث فيه، فهناك العديد من (القلايات) الرهبانية هناك على ذلك التل، وفى الوسط يوجد سور عظيم يحيط بالكنيسة التى يوجد بها المزار لأن المزار جميل جداً. ولذلك بنى السور لحماية الكنيسة من الأشوريين

الأشرار الذين كانوا عادة يقومون بالسرقة، لئلا يحاولوا أن يفعلوا شيئاً ضد الدير الموجود هناك.

٥،٢٣. عندما وصلت هناك باسم الله، رفعت صلاة عند الضريح، وقرأت كل «أعمال تكلا» وقدّمت شكراً بلا حدود للمسيح إلهنا الذى حسبنى أهلاً، مع أنى لم أكن أستحق أن أتمم رغباتى فى كل الأشياء.

٦،٢٣. وأقمت هناك لمدة يومين ورأيت الدير المقدس أو قلايات للرجال والنساء المقيمات هناك، وبعد الصلاة وتناول العشاء الربانى عدت إلى طرسوس لمواصلة رحلتى..

(**إيجيريا** تصف الطقوس المتعلقة بالاحتفال بيوم الخمسين فى أورشليم).

١،٤٣. اليوم الخمسين بعد عيد القيامة يوم أحد، يوم مجهود عظيم يقوم به الشعب، ويتم كل شىء طبقاً للعادة منذ وقت أول صياح للديك، فيظلون ساهرين فى الكنيسة حتى الوقت الذى يوافق لحظات قيامة الرب، حتى يقرأ الأسقف فقرة الإنجيل التى تقرأ دائماً يوم الأحد، أى المتعلقة بقيامة الرب، وبعد ذلك يفعلون فى الكنيسة ما يفعلونه عادة طوال السنة.

٢،٤٣. وعندما يطلع الصباح يذهب الناس إلى الكنيسة الكبرى- أى إلى المزار- ويفعلون ما هم معتادون على فعله، فالكهنة فقط وبعد ذلك الأسقف، ويفعلون كل ما هو صحيح أى تقديم الذبيحة بالطريقة المعتادة يوم الأحد، ولكن فى هذا اليوم لا ينصرف الناس قبل الساعة التاسعة صباحاً، وبعد انصراف الناس من المزار يتبع الجميع الأسقف إلى صهيون بالترانيم حتى يصلوا إلى صهيون الساعة التاسعة.

٣،٤٣. وعندما يصلوا هناك تُقرأ الفقرة الموجودة فى أعمال الرسل، والخاصة بحلول الروح القدس، والتى يفهم فيها الناس كل ما يُقال بلغاتهم الخاصة (أعمال٢:١-١١)، وبعد ذلك تستمر الخدمة بالنظام المعتاد لأن الكهنة هناك يقرأون هذه الفقرة التى تقرأ، لأن هذه هى البقعة التى فى صهيون (هناك كنيسة أخرى الآن) اجتمع فيها الجمهور مع الرسل بعد صلب الرب حيث جرت الحوادث التى ذكرتها قبلاً ، وبعد ذلك تتم الخدمة بالطريقة الصحيحة، وتقدم الذبيحة، ومن آن لآخر عند انصراف الناس يرفع الأرشيدياكون صوته ويقول: «اليوم بعد الظهر تماماً لنستعد فى الامبونون Imbonon على جبل الزيتون».

٤،٤٣. وهكذا يرجع كل الناس لبيوتهم، كل ليستعيد نشاطه فى بيته، وبعد الغذاء يصعدون جبل الزيتون أى اليونا Eleona كل واحد حسب مقدرته، لأن الجميع لا يستطيعون السير بسرعة واحدة، ولا يبقى مسيحى واحد داخل المدينة.

٥،٤٣. ويعد الصعود لجبل الزيتون أو إليونا يذهبون أولاً إلى الامبونون أى إلى المكان الذى صعد منه الرب إلى السماء (أعمال ١:٩-١٢)، ويجلس الأسقف هنا والكهنة وكل الشعب، وبعد القراءات الكتابية يتفرقون وهم يرتلون الترانيم بالتبادل معاً بما يناسب اليوم، وحتى الصلوات المتفرقة يجب أن تناسب اليوم والمكان. وتُقرأ تلك الفقرة من الإنجيل التى تحكى عن صعود الرب، ثم يقرأون ثانية من أعمال الرسل تلك الفقرة التى تتحدث عن صعود الرب إلى السماء بعد القيامة (أعمال١:٩-١١).

٦،٤٣. وعندما يتم هذا، يتم مباركة المتنصرين حديثاً ثم المؤمنين، وبعد أن تصل الساعة الثالثة بعد الظهر، ينزلون من هناك، ويذهبون بالترانيم إلى تلك الكنيسة المقامة أيضاً على جبل الزيتون، أى الكنيسة التى هى الكهف الذى كان الرب معتاداً أن يجلس فيه ويعلّم الرسل، وقبل أن يصلوا هناك يكون الوقت قد جاوز الساعة الرابعة بعد الظهر، وهناك يتلون صلاة الغروب، ويتم مباركة المتنصرين حديثاً ثم المؤمنين، ثم ينزلون بالترنيم والترانيم التجاوبية (بالمناوبة) والمناسبة لذلك اليوم، ثم يأتون على مهل وبهدوء إلى المزار.

٧،٤٣. وعندما يصلون إلى باب المدينة يكون الظلام قد حل ويؤتى بمصابيح الكنيسة لإنارة الطريق للشعب، ثم يسيرون فى طريق طويل من الباب إلى الكنيسة الكبيرة أى المزار (مكان الضريح)، ويصلون هناك حوالى الساعة الثامنة مساءً، لأنهم يسيرون ببطء طوال الطريق لئلا يتعب الناس من المشى، وتُفتح الأبواب الكبيرة المواجهة للسوق، ويدخل كل الناس الضريح مع الأسقف مرنمين، وبعد أن يدخلوا الكنيسة تنشد التراتيل وترفع صلاة ويبارك المتنصرين حديثاً ثم المؤمنين، ومن هناك يعودون منشدين الترانيم إلى وقت الفجر الذى يوافق وقت القيامة.

٨،٤٣. وبنفس الطريقة عندما يحلّ هذا الوقت، تنشد الترانيم والترانيم التجاوبية، وترفع صلاة ويتم مباركة المتنصرين حديثاً ثم المؤمنين، وينصرف الجميع، وعند الانصراف يقترب الجميع ليقبّلوا يد الأسقف، وهكذا يرجع كل واحد إلى بيته حوالى منتصف الليل بعد أن يبذلوا مجهوداً كبيراً فى هذا اليوم لأنهم لم يتوقفوا طوال النهار منذ الاستيقاظ عند صياح أول ديك عند الفجر، وكل شىء يحتفل به يأخذ وقتاً طويلاً حتى إنه عند الانصراف فى صهيون فى منتصف الليل يرجع الجميع إلى منازلهم.

(ايجريا تكتب عن تعليم المتنصرين حديثاً فى أورشليم).

١،٤٥. وينبغى علىَّ أن أكتب عن كيفية تعليم أولئك الذين سيتم عمادهم فى عيد القيامة، لأن المفروض أن الشخص يسجل اسمه قبل بدء الصيام الكبير، ويدوّن الكاهن كل

الأسماء قبل الأسابيع الثمانية للصيام (كما هو الحال هنا) كما قلت.

٢،٤٥. بعد أن يدوّن الكاهن كل الأسماء فى اليوم التالى لبدء الصيام، أى اليوم الذى تبدأ فيه الأسابيع الثمانية، يوضع كرسى الأسقف فى وسط الكنيسة الكبيرة -أى المزار- ويجلس الكهنة على كراسى على كلا الجانبين، ويقف كل رجال الإكليروس، ويتم إحضار كل طالبى المعمودية واحداً واحداً، فإذا كانوا رجالاً يأتون مع آبائهم، وإذا كانوا نساء مع أمهاتهن[٣٩].

٣،٤٥. وبعدئذ يسأل الأسقف جيران كل الذين يتقدمون« هل هذا الشخص يعيش حياة بلا لوم؟ » هل يحترم والديه؟ هل هو سكير، هل يكذب؟ ». ثم يسأل عن أخطر الرذائل الموجودة فى البشر.

٥،٤٥. وإذا ظهر أن الشخص كان بلا لوم فى كل الأشياء التى سأل عنها الأسقف الشهود الحاضرين، يدون اسمه فى يده، ولكن إذا وجه إليه الاتهام فى نقطة معينة يأمره الأسقف بالخروج قائلاً: «دعه يصلح من طرقه وعند إصلاح طرقه دعه يأتى إلى المقدمة»، ويفحص الرجال والنساء بنفس الطريقة، ومع ذلك فإذا كان هناك شخص غريب فإنه يصعب عليه أن يتقدم للمعمودية، ما لم يكن معه شهود يعرفونه.

١،٤٦. سيداتى وأخواتى ينبغى أن أسجل هذا لئلا تظنون أن ذلك يحدث دون تفسير، لأن هذه هى العادة،أن أولئك المتقدمين للمعمودية خلال الـ ٤ يوماً وهى فترة صيام، يتم تطهيرهم على يد رجال الدين فى الصباح بعد الانصراف من خدمة الصباح (فى الوقت الذى يوافق موعد قيامة الرب)، وبعد ذلك مباشرة يوضع كرسى الأسقف فى الكنيسة الكبيرة، وكل الذين سوف يعمدون رجالاً ونساء يجلسون حول الأسقف على شكل دائرة. والآباء والأمهات، وكل من يريد أن يسمع من الشعب، عليه أن يدخل ويجلس، ولكن يجب أن يكونوا مؤمنين.

٢،٤٦. ولا يمكن للمتنصر حديثاً أن يدخل هناك عندما يقوم الأسقف بتعليمهم الناموس والذى يؤديه هكذا:

بدءاً من سفر التكوين يمر بسرعة على كل فقرات الكتاب المقدس فى ما يختص بالأربعين يوماً موضحاً معناه الحرفى، ثم مفسراً معناه الروحى، ثم يعلمهم عن القيامة وكل شىء عن الإيمان خلال هذه الأيام، ويسمى هذا التعليم الدينى الشفهى عن طريق السؤال والجواب قبل

---

(٣٩) وربما أولئك الذين يقدمونهم كمرشحين للمعمودية.

المعمودية Catechetics).

٣،٤٦. وبعد الانتهاء من الخمسة أسابيع المخصصة للتعليم يتسلمون العقيدة الدينية، وكما يقدم معنى كل الكتاب المقدس هكذا بالمثل يشرح العقيدة، مروراً بكل جملة بدءاً بمعناها الحرفي ثم معناها الروحي، وهكذا في تلك الأماكن يمكن لكل المؤمنين أن يتتبعوا الكتب المقدسة عند قراءتها في الكنيسة، لأنهم تعلموا لمدة أربعين يوماً، من الساعة السادسة صباحاً إلى الساعة التاسعة صباحاً لأن التعليم مدته ثلاث ساعات.

٤،٤٦. والله يعلم سيداتي وأخواتي أن أصوات المؤمنين تعلو عندما يأتون لسماع الأسقف، وهو يعلّم أو يفسر النقاط أكثر مما هي عندما يجلس ويعظ في الكنيسة على كل من النقاط التي تشرح بهذه الطريقة، ثم ينصرفون من التعليم الشفهي في الساعة التاسعة صباحاً، ويخرج الأسقف فوراً من هناك بالترانيم، ويتم الانصراف الساعة ٩ صباحاً، وهكذا يتم تعليمهم لمدة ثلاث ساعات في اليوم طوال السبعة أسابيع، لأنه في الأسبوع الثامن المسمى بالأسبوع الكبير (العظيم) لا يوجد متسع من الوقت لمزيد من التعليم، حتى ينفذوا الأشياء التي سبق أن كتبت لكم عنها.

٥،٤٦. وعند انقضاء السبعة أسابيع، لا يتبقى سوى أسبوع القيامة، والمسمى هنا بالأسبوع العظيم، يأتي الأسقف إلى الكنيسة الكبيرة، والتي يطلق عليها (كنيسة القبر المقدس)، ويوضع كرسي الأسقف في خلف الجزء الناتيء (النصف دائري) من مبنى الكنيسة خلف المذبح، ويدخلون واحداً وراء الآخر، كل واحد مع أبيه، والمرأة مع أمها، ويردد كل واحد منهم العقيدة أمام الأسقف.

٦،٤٦. وبعد ترديد العقيدة للأسقف، يخاطب الأسقف الجميع قائلاً:

«طوال الأسابيع السبعة الماضية عُلمتم عن الإيمان، بل وعن قيامة الجسد، ولكن عن معنى العقيدة، فعلى قدر قدرتكم على الاستماع فقط أيها المتنصرون، أما فيما يختص بالتعاليم عن الأشياء التي تعد أسراراً عليا أي المعمودية نفسها فلا يمكنكم أن تسمعوا (لأنكم ما زلتم متنصرين حديثاً، ولكن لئلا تظنوا أن كل شيء يتم دون تفسير، فعندما تعمدون باسم الله سوف تسمعون عن هذه الأشياء خلال الأيام الثمانية لعيد القيامة- بعد الانصراف من الكنيسة- ولأنكم متنصرون حديثاً فلا يمكن أن نخبركم بالمزيد من أسرار الله».

- ويسرد جيروم أيضاً عن إحدى الرحلات لزيارة الأماكن المقدسة: رحلة (باولا) Paula لمصر وللأرض المقدسة، لقد بدأت (باولا) رحلتها من روما سنة ٣٨٥م ولم تعد مرة أخرى، لقد

أولعت بالأرض المقدسة لدرجة أنها قررت أن تقضى بقية حياتها هناك وبَنت أديرة للرجال والنساء في بيت لحم، ويضمّن جيروم الوصف التالى لرحلتها فى تأبينه (لباولا) فى الرسالة ١٠٨.

(لقد أبحرت «باولا» من ميناء روما)

٧. [٤٠] بعد أن وصلت باولا إلى جزر بونتاى Pontiae التى اكتسبت شهرتها عن طريق الذكرى اللامعة لامرأة تدعى فلافيادوميتيلا Flavia Domitilla، والتى نفاها الامبراطور دومتيان Domitian بسبب اعترافها بأنها قد أصبحت مسيحية، رأت (باولا) السجون التى قضت فيها فترة طويلة حتى استشهادها، وبعد أن أبحرت رغبت أن ترى أورشليم والأماكن المقدسة، وكانت الرياح أبطأ من اللازم بالنسبة لها فكانت تشعر أن السفينة بطيئة فى جميع الأحوال. وعند الإبحار بين سكيلا Scylla وكاربيدس Charybdis[٤١] سلّمت قيادتها للبحر الأدرياتيكى وجاءت إلى ميثون Methone، وسط المياه الهادئة، حيث نالت قسطاً من الراحة لتنعش جسدها قليلاً حيث وضعت أطرافها تتساقط منها الماء على الشاطىء مارة بماليا كايثيرا Cythera وسط البحر.

وجزر سيكالادز Cyclades والبحار تربط ما بين الأراضى المزدحمة[٤٢]. وبعد جزيرة رودس ولايسيا Lycia رأت قبرص، وهناك خرت عند ركبتى أبيفانيوس Epiphanius [٤٣] المبجل واحتجزت هناك لمدة عشرة أيام ليس لتجديد نشاطها كما توهمت بل لكى تؤدى عمل الله كما أظهرت الأحداث، لأنه أثناء مرورها بكل الأديرة فى تلك المنطقة على قدر ما استطاعت تركت مساعدات مالية لمساعدة الإخوة الذين قادتهم محبتهم لهذا الرجل القديس إلى التخلى عن كل العالم، وبعد الإبحار فى المياه الضحلة عبروا البحر إلى سلوقيا Seleucia، ومن هناك ذهبوا إلى أنطاكية حيث احتجزت (باولا) لفترة قصيرة محبة فى بولينوس Paulinus القديس المجاهر بإيمانه بالمسيحية رغم التعذيب والاضطهاد. وفى منتصف الشتاء كسبت هذه السيدة عن طريق غيرتها الشديدة وإيمانها العظيم عدداً كبيراً من النفوس، بينما كانت تعظهم وهى جالسة على حمار، تلك التى كانت معتادة فى سالف أيامها على أن يحملها الخصيان.

---

(٤٠) Text: CSEl 55. 312

(٤١) المعروفة بمضايق ميسنا (وقد يكون ذلك غير صحيح).

(٤٢) فرجيل Virigil، الانيادة Aeneid.

(٤٣) أسقف سلاميس في قبرص.

٨. سوف لا أتحدث عن رحلتها فى لبنان وفينيقيا، لأنى لست ميالاً أن أكتب عن يوميات رحلتها. سوف أسرد قائمة بأسماء الأماكن الكثيرة (التى زارتها) الموجودة فى الكتب المقدسة. بعد الرحيل من بيريتس Berytus، وهى مستعمرة رومانية، ومدينة صيدون القديمة، دخلت البرج الصغير لإيليا على شاطىء صرفة (١ملوك١٧:٩) حيث قدّمت العبادة لربها ومخلصها، ثم سارت على رمال صور، والتى جثا عليها بولس (أعمال٢١:٥) وجاءت إلى (آخوAccho) والمعروفة الآن باسم بتوليماس Ptolemaus وسط حقول مجدو التى شهدت جريمة قتل الملك يوشيا (٢ملوك٢٣:٢٩)، ودخلت أرض الفلسطينيين، وأعجبت بأطلال (دورDor) والتى كانت مدينة قوية قديماً وبرج (ستراتوStrato) والتى دالت ثروتها وغناها والتى أسماها هيرودس ملك اليهودية «قيصرية» تكريماً لأوغسطس قيصر، وفى تلك المدينة رأت (باولا) بيت كرنيليوس Cornelius (أعمال. ١:١) وكنيسة مسيحية صغيرة، والمنزل الصغير لفيلبس وحجرات العذارى الأربعة اللاتى كن يتنبأن (أعمال٢١:٨-٩) وبعد ذلك أتت إلى انتيباتريسAntepatris وهى مدينة صغيرة شبه مدمرّة أسماها هيرودس باسم أبيه، وبلدة لدّة التى تغير اسمها إلى ديوسبوليس Diospolis والمشهورة بسبب قيامة وشفاء طابيثا واينياس (أعمال٩:٣٢-٤١)، ولا تبعد عن تلك البلدة كثيراً مدينة الرامة، قرية يوسف (الرامى) الذى قام بدفن الرب (مرقس١٥:٤٣، متى٢٧:٥٧، لوقا٢٣: . ٥-٥٢)، ونوب التى كانت مدينة للكهنة (١صموئيل ٢٢:١٩) وصارت الآن مقبرة للموتى ، وأيضاً يافا الميناء الذى هرب إليه يونان (يونان ١:٣) وتلك المدينة- إذا جاز أن أسرد عنها شيئاً من قصة شعرية- شهدت اندروميدا Andromeda مربوطة فى صخرة [٤٤] ، وعند استئناف طريقها ثانية، جاءت (باولا) إلى نيكوبوليس والتى كان اسمها من قبل عمواس، حيث تعرّف على الرب تلميذا عمواس، وتم فيها كسر الخبز والذى تم فيها تكريس بيت كليوباس ليصبح كنيسة (لوقا٢٤: . ٣)، ومن هناك صعدت إلى بيتورون Bethoron العليا والسفلى، وهى مدن أسسها سليمان ثم قضت عليها الحروب تماماً فيما بعد. ورأت بعينها أيلون وجبعون حيث أمر يشوع بن نون الشمس والقمر عندما كان يحارب الخمس ملوك (يشوع. ١:١٢) وحيث أمر الجبعونيين الذين استطاعوا عن طريق الخديعة الحصول على عهد ليصبحوا «محتطبى حطب ومستقى ماء»

---

(٤٤) اندروميدا: أميرة أسطورية قُيدت إلى صخرة بواسطة والدها كذبيحة مقدّمة لوحش بحري وأنقذها برسيوس Perseaus.

(يشوع٩)، ووقفت برهة عند مدينة جبعة التى تم تدميرها عن آخرها، تتأمل شرها، وتقطيع السرية إلى قطع والـ. ٣٠٠ رجل من سبط بنيامين الذين نجوا (قضاة ١٩-٢٠) لأجل خاطر بولس الرسول (رومية١١:١، فيلبى٣:٥).

٩. ولم التأخير؟ فبعد أن تركت وراءها إلى اليسار ضريح هيلينيا ملكة اديابينورم Adiabenorum التى كانت قد ساعدت الشعب بتقديم الحبوب أثناء المجاعة، دخلت ((باولا)) أورشليم المدينة ذات الثلاثة أسماء:

يبوس، ساليم، أورشليم والتى كان اسمها عالية Aelia بعد أن أعاد هادريان Hadrian بناءها بعد أن كانت أنقاضاً ورماداً، عندما أرسل والى فلسطين الذى كان يعرف عائلتها جيداً، مندوبين بعد أن جهز لها مقراً امبراطورياً، اختارت بدلاً من ذلك حجرة متواضعة، وجالت بكل الأماكن بشغف وحماس كبيرين لدرجة أنها لم تستطع ترك مكان إلا لتهرع لآخر. وبعد أن ألقت بنفسها أمام الصليب سجدت كما لو كانت ترى الرب معلقاً هناك، وبعد أن دخلت قبر القيامة، قبّلت الحجر الذى دحرجته الملائكة بعيداً عن باب القبر (مرقس١٦:٣-٥، متى٢٨:٢) ولعقت بلسانها المكان الذى كان جسد الرب نفسه مضجعاً فيه، كإنسان عطشان إلى مياه الإيمان، وكانت كل أورشليم شاهدة على الدموع التى ذرفتها هناك، وعلى أنّات الحزن التى سكبتها، والرب نفسه الذى كانت تتوسل إليه باستمرار شاهد على ذلك.

ومن هناك ذهبت لتصعد جبل صهيون الذى ترجمته «قلعة» أو «برج مراقبة»، وهذه هى المدينة التى أسرها داود من قبل وبناها، وكتب عن أسرها «ويل لأريئيل» أى «أسد الله» لأنها كانت قوية قديماً «قرية نزل عليها داود» (إشعياء ٢٩:١). وعن إعادة بنائها مكتوب «أساساته فى الجبال المقدسة. أحب الرب أبواب صهيون أكثر من جميع مساكن يعقوب» (مز٨٧:١و٢)، ليست تلك الأبواب التى نراها اليوم والتى تفتت إلى جمرات ورماد بفعل الحريق، بل الأبواب التى لا يقوى عليها الجحيم، والتى يدخل منها جمهور المؤمنين بالمسيح. فى ذلك المكان رأت (باولا) العمود المصبوغ بالدم الذى يحمل رواق كنيسة، وقيل إن يسوع كان قد قيد إليه أثناء جلده بالسوط (مرقس١٥:١٥، متى ٢٧:٢٦، يوحنا١٩:١)، وأشاروا إلى المكان الذى نزل فيه الروح القدس على الـ. ١٢٠ نفس متمماً نبوءة يوئيل (أعمال١:١٥،٢:٤).

١٠. وبعد ذلك بعد أن وزعت مالاً على الفقراء، وعلى خدمها حيث كانت مقتدرة مادياً،

ذهبت مباشرة إلى بيت لحم، وبعد أن توقفت إلى الجانب الأيمن من الطريق عند قبر راحيل حيث ولدت راحيل ابناً لم يسمى كما أرادت أمّه التى كانت تلفظ أنفاسها «بن أونى» أى «ابن حزنى» بل كما تنبأ أبوه بالروح «بنيامين» أى «ابن يدى اليمنى» (تكوين٣٥:١٨-١٩)، ومن هناك دخلت كهف المخلص [٤٥]، وبمجرد أن رأت الخان والمذود الذى قدّسته العذراء، والذى قيل عنه «الثور يعرف قانيه والحمار معلف صاحبه» (إشعياء ١:٣) حتى يتم ما قيل بالنبى القائل «طوباكم أيها الزارعون على كل المياه المسرحون أرجل الثور والحمار» (إشعياء ٣٢:٢٠) ، وأقسمت (باولا) على مسامعى على أنها رأت بعيون الإيمان المسيح الطفل ملفوفاً فى أقمطة وهو يبكى فى المذود، والمجوس يسجدن لله، والنجم يسطع من فوق، والعذراء مريم، والرجل القلق الذى سوف يربيه، والرعاة يأتون ليلاً لرؤية الكلمة الذى تجسد (متى٢،لوقا٢) ورأيتهم أيضاً يكتبون افتتاحية إنجيل يوحنا «فى البدء كان الكلمة» «والكلمة صار جسداً» (يوحنا١:١و١٤).. وأقسمت أنها رأت الأطفال الأبرياء المذبوحين، هيرودس المتجبر، ويوسف ومريم وهما يهربان إلى مصر (متى٢)، وقالت والفرح يشع من عينيها الممتلئتين دموعاً« تحية لبيت لحم بيت الخبز» والذى وُلد فيه الخبز النازل من السماء (يوحنا٦:٣٣)..

١٤ وسوف أمضى الآن إلى مصر ، مع التوقف قليلاً فى سكوت Succoth وعند عين شمشون التى صنعها باللحى (قضاة ١٥:١٥-١٩) وبلّلت شفتى الجافتين حتى شعرت بالانتعاش ورأيت (مورشت Moresheth والتى كانت ذات يوم قبراً للنبى ميخا، والآن أصبحت كنيسة (ميخا١:١)، ثم بعد المرور بجانب أرض الحوريتيين Hortes والجيتيين Gittites وماريز Marisa وأدومية Idumea ولاخيش Lachish ومعظم الأراضى الرملية الرخوة التى تنطبع عليها بصمات أقدام المسافر وبعد اجتياز القفار الشاسعة، فلنأت إلى نهر مصر، سيحور[٤٦] والذى يعنى «المليء بالطمى» ويجتاز فى الخمس مدن فى مصر حيث تتكلم لغة كنعان وأرض جوشن وسهول صوعن التى أجرى فيها الله معجزة، ومدينة نو والتى سميت فيما بعد الإسكندرية ونطريا Nitria مدينة الرب، التى تغسل فيها أدران شعب كثير يومياً بأفضل وأقوى منظف وهو الفضيلة[٤٧].

---

(٤٥) انظر ما قبله هامش ٣٦.

(٤٦) النيل.

(٤٧) اشتهر النطرون بكربونات الصوديم المتحدة بالماء.

وحالما رأينا المدينة جرى الرجل الوقور القديس الأسقف إيسيذورس كاهن الاعتراف لمقابلتنا ومعه عدد مهول من الرهبان، حيث وصل عدد كبير منهم إلى مناصب كهنوتية مرموقة، وسُرّت (باولا) كثيراً بمجد الرب ولكنها أقرت بأنها غير جديرة بمثل هذا التكريم، وما الذى يمكن أن أسجله بخصوص مكارى Macarii وارسيتيسArsetes وسارابيون Sarapion والأسماء الأخرى التى هى أعمدة للمسيح؟ هل هناك صومعة لم تدخلها؟ وأى قديس لم تهرع لتركع عند قدميه؟ لقد اعتقدت أنها رأت المسيح نفسه فى كل رجل قديس قابلته، وأى شىء قد منحته لهم كانت تُسر لأنها منحته للرب، وكانت غيرتها وحماسها منقطع النظير، وقدرتها على التحمل يصعب أن تصدر عن امرأة، فقد نسيت جنسها وضعفها الجسدى ورغبت أن تقيم وسط آلاف الرهبان مع البنات المصاحبات لها. وبما أن الكل كان يرحب بها، فقد كانت على استعداد أن تقابل الجميع لو لم يكن هدفها الرئيسى هو زيارة الأماكن المقدسة، وأما فيما يتعلق بالحرارة اللافحة، فقد جاءت من بللوزيوم Pelusium إلى مايوما Maiouma عائدة بأقصى سرعة حتى لتظن أنها طائر يطير، وبعد وقت قصير وهى تنوى الإقامة إلى الأبد فى بيت لحم فقد عاشت لمدة ثلاث سنوات فى نزل ضيق حتى تستطيع إنشاء الصوامع الصغيرة والأديرة، وتبنى مأوى للمسافرين بجانب الطريق، لأن مريم ويوسف لم يجدا مكاناً فى الخان (المنزل) (لوقا٢:٧). ولتكن هذه قصة رحلتها التى قامت بها بصحبة عذارى كثيرات وابنتها.

بالرغم من أن الكنيسة منعت النساء المسيحيات الأوائل من القيام بالتعليم الجهرى، ومن مناصب الكهنوت إلا أنهن اكتشفن عدة طرق لتطوير مهارتهن الدراسية، واستخدام مواردهن ومواهبهن فى تطوير الأديرة والدخول إلى العالم المنير للرحلات، والذى كان ينظر إليه بتقديس باعتباره سياحة روحية.

الفصل الخامس

النساء كنماذج وكمعلمات

على الرغم من الضوابط الكثيرة التي وضعها آباء الكنيسة على النساء، وبالرغم من تقليلهم من شأن النساء من جهة الفكر والشخصية، إلا أنهم كتبوا بحوثاً ورسائل مديح عن أهم النساء في حياتهم.

لكن النغمة تختلف في الحالتين مما يدعو للدهشة، ففي هذه الرسائل والبحوث نرى النساء يقدمن كمثل عليا تدل على التكريس المسيحي، وعلى إيمانهن البارز وكرمهن وقدراتهن الفعلية حتى إنه يحق لهن أن يوضعن في مرتبة تفوق معظم الرجال المسيحيين. ومن وجهة نظر متأخرة يمكن أن نستشف أن ولع هؤلاء الكُتّاب بالأسلوب البلاغي، مع إخلاصهم وحبهم العميق للنساء اللاتي كتبوا عنهن يأتي أحياناً بنتيجة عكسية تقلل من شأن التقديم الموضوعي الصحيح لصفات رعيتهن. ومع ذلك فالمختارات التالية تلقي أضواءً باهرة على حياة النساء في الطبقات العليا من المجتمع الروماني في القرنين الرابع والخامس، ولا يمكن بأي حال من الأحوال اعتبارها ممثلة للنساء في الطبقات الاجتماعية الدنيا:

ففيما يختص بالصنف الأخير من النساء، لا نجد إلا النذر اليسير، أو لا نجد شيئاً على الإطلاق في النصوص الأدبية (الرفيعة)، ويجب أن نعتمد على الوثائق القانونية أو النقوش الجادة أو ما شابه ذلك من الأدلة. ومع ذلك فإن عصرنا بما يحمله من اهتمامات ديمقراطية متزايدة لا يجب أن يزدري بهذه القصص على أساس أنها لا تصح أن تُتخذ كنماذج صحيحة: فهي الدليل القوي الوحيد علي أن الآباء الكُتّاب من الذكور استطاعوا أن يقهروا انحيازهم الشخصي، وأن ينظروا إلى النساء على أنهن مستحقات لرفع لواء المثل الدينية الجديدة ، ومعظم هؤلاء النساء نبذن العالم عند حد معين لكي يعشن حياة التبتل المسيحي، ويترك يوحنا فم الذهب وأغسطينوس صوراً حية لأمهاتهن لإمدادنا ببصيرة روحية تلقي الضوء على المشاكل وطرق حياة الأمهات المسيحيات والأرامل.

- أول هذه المختارات هو تأبين جيروم للأرملة الرومانية (مارسيلا) Marcella والذي كتبه لصديقتها ورفيقتها الصغيرة (برنسيبيا Principia)، وشاركت (برنسيبيا) تكريس (مارسيلا) نفسها للطهارة والعفاف المسيحي، كما شاركتها بيتها أيضاً، **وكتبت الرسالة ١٢٧ في سنة**

٤١٢م، بعد سنتين من غزو القوط لروما، وهي الحادثة التي أودت بحياة (مارسيلا) في الغالب، ومما هو جدير بالملاحظة إشارة جيروم للظروف التي دفعت (مارسيلا) لاتخاذ قرارها بالتبتل: زيارة رجال الدين المصريين لروما في ٣٤٠ ق.م وسردهم للروايات الأولي عن آباء الصحراء، ولو كان الجدول الزمني لجيروم صحيحاً فإن (مارسيلا) تعتبر من أوائل السيدات اللاتي تبتلن في روما، وماتت هناك بعد أن تقدَّم بها العمر إذ أن جيروم لم يفلح في إقناعها بأن تأتي وتقيم في بيت لحم معه ومع (باولا).

٢. [(١)] بعد حزنها على موت والدها فقدت زوجها أيضاً بعد سبعة شهور من الزواج. وكان سيرياليسCerealis وهو من الأسماء اللامعة بين ولاة روما قد طلب يدها بسبب سنها وأصالة عائلتها وعراقتها، وسلوكها الرصين وجمالها الجسدي اللافت للنظر، وهو من النوع الذي يُسر الرجال، ولأنه كان رجلاً متقدماً في السن عرض عليها ثروته وأراد أن ينقل ملكيتها لها كابنة لا كزوجة، وعندما تمسكت (البيناAlbina) بهذه الفرصة السانحة حتى يكون للأرملة وصياً مشهوراً بارزاً كهذا الشخص من خارج محيط العائلة ردت عليها (مارسيلا) قائلة: «لو أردت أن أتزوج بدلاً من تكريس نفسي للعفة الدائمة لكنت بحثت عن زوج وليس عن إرث»، ورد هو قائلاً: «إنه من الممكن لرجل عجوز أن يعيش وقتاً طويلاً ولشاب أن يموت سريعاً»، ردت هي عليه بلباقة قائلة: «حقاً إن الشاب يمكن أن يموت سريعاً، ولكن الرجل العجوز لا يمكنه أن يعيش طويلاً...».

٤. وصامت (مارسيلا) باعتدال، وامتنعت عن أكل اللحم، وعرفت رائحة الخمر أكثر من طعمها، لأنها كانت تأخذها لأجل معدتها وأمراضها المتكررة (انظر ١تيموثاوس ٥:٢٣)، وكانت نادراً ما تخرج أمام الملأ (علناً)، وتجنبت منازل السيدات النبيلات حتى لا تضطر لرؤية ما كانت تحتقره، وكانت تزور كنائس الرسل والشهداء بصفة شبه دائمة، وتتجنب التجمعات البشرية الكثيفة. وكانت مطيعة جداً لأمها حتى أنها كانت أحياناً تفعل ما لا تريده هي نفسها، فعندما أرادت أمها، أن تنقل كل ملكيتها من أبنائها وأحفادها إلى أبناء أخيها مفضلة بذلك رابطة الدم،كانت (مارسيلا) تفضل إعطاء الفقراء بدلاً منهم، ولكنها لم تستطع أن تعارض أمها، وسلّمت قلائدها وكل رياش المنزل إلى أولئك الأغنياء بالفعل، مفضلة أن تخسر مالها من أن تحزن روح أمها .

---

(١) Text: CSEL.56, 146

٥. في ذلك الوقت لم تنذر السيدات النبيلات في روما أنفسهن للرهبنة أو لم يجرؤن على فعل ذلك، لأنه في ذلك الوقت كان يعتقد أنه من الأشياء الغريبة والمهينة أن يُنتحل هذا اللقب المتواضع علناً. هرب بعض كهنة الإسكندرية بحثاً عن مأوى في روما لتجنب الاضطهاد على يد الهراطقة الآريوسيين ومن بينهم الأسقف أثناسيوس وفيما بعد بطرس. كما لو كانت روما هي الملجأ الآمن لتواجدهما معاً، ومن هنا عرفت (مارسيلا) عن حياة أنطونيوس المبارك Antony، والذي كان ما يزال على قيد الحياة، وعن أديرة باخوميوس Pachomian في الـ (الصحراء)Thebaid [٢] وعن نظام العذارى والأرامل. ولم تخجل هي من إعلان مجاهرتها بنذر الرهبنة لأنها عرفت كيف تُسر المسيح، وبعد ذلك بعدّة سنوات كثيرة قلدتها (سوفرونيا) Sophronia ونساء أخريات..وسرت سليلة الشرف (باولا) بصداقة (مارسيلا)، وفي صومعتها دربت استوكيوم (eustochium) فخر العذارى، ومن ثم يسهل الحكم على منزلة المعلمة ومكانتها حين يكون لها تلميذات كهؤلاء.

وربما يسخر مني القاريء غير المؤمن لإطالة الحديث عن مدح هؤلاء السيدات، فالأولى به أن يدين نفسه بالكبرياء بدلاً من اتهامي بالسخف والغباء لوتأمل كيف أن النساء القديسات اللاتي كن يخضعن لربنا ومخلصنا ويخدمنه من أموالهن الخاصة (لوقا٨:١-٣) وكيف وقفت المريمات الثلاث عند الصليب (يوحنا ١٩:٢٥) وكيف أن مريم المجدلية التي أطلق عليها لقب البرج (مجدل Magdala) بسبب غيرتها وحرارة إيمانها، وكانت هى أول من استحق أن يرى المسيح المُقام حتى قبل الرسل (يوحنا.٢:١١-١٨) لأننا نحكم على التفوق الأخلاقي، ليس بجنس البشر بل بنوعية الروح..

٧. وعندما دعت حاجة الكنيسة أخيراً لأن أذهب إلى روما مع الأساقفة القديسين بولينوس وإبيفانيوس (الأول كان يرأس الكنيسة في أنطاكية السورية بينما كان الآخر يرأس الكنيسة في سلاميس في قبرص)، كنت أتجنب بحياء أعين السيدات النبيلات، ولكنها مضت قدماً متبعة كلمات الرسول وعكفت على ذلك «في وقت مناسب وغير مناسب» (٢تيموثاوس ٤:٢)، حتى إن مواظبتها قهرت خجلي، ولأن اسمي كان يلقى تقديراً خاصاً في دراسة الكتب المقدسة، لذلك حرصت في كل مرة أتت فيها، أن تسألني شيئاً عن الكتاب المقدس، كما أنها لم تتقبل تفسيري فوراً كشيء مسلّم به، ولكنها كانت تقترح عليّ أسئلة من وجهة النظر المضادة، ليس بقصد المجادلة بل لأنها عن طريق الأسئلة يمكنها أن تجد حلولاً لنقاط تصورت أنها يمكن أن تثار من قِبل المعارضين، إني أخاف أن أعدد الفضائل التي رأيتها في

(مارسيلا) من اجتهاد وقداسة ونقاء، لئلا يدفعكم ذلك لعدم تصديقي، ويشير ذلك شجونكم بأنكم حُرمتم من خير عميم، ولا أقول سوى هذا: إن كل ما نستطيع أن نحصل عليه بالدرس الكثير والتأمل الطويل يتحول فينا إلى طبيعة ثانية، وهذا ما جربته وما تعلمته وما استطاعت أن تحصل عليه. وهكذا فبعد رحيلي كلما أثير جدل ما، يتطلب دليلاً من الكتاب المقدس، كانت تتبع السؤال حتى تصل للرأي السديد، ولأنها كانت عاقلة وحذرة في نفس الوقت فقد عرفت ما يدعوه الفلاسفة باليونانية «كيف تتصرف بلياقة». فعندما كانت تُسأل كانت ترد كما لو كان ردها ليس من عندياتها حتى لو كانت هي صاحبة الآراء، بل تنسبها إليّ أو إلى رجل آخر، وكانت تقول إنها هي نفسها ما زالت تلميذة تتعلم، لأنها كانت تعلم قول الرسول «ولكن لست آذن للمرأة أن تعلّم» (١تيموثاوس ٢:١٢) لئلا تسيء إلي جنس الرجال أو لأولئك الكهنة الذين كانوا يتساءلون عن نقاط غامضة ومحيرة.

(القوط يغزون روما)

١٣. وفي نفس الوقت، كما يحدث في مثل هذه الحالات من الفوضى الشاملة، أن غازياً ملطخاً بالدماء دخل أيضاً بيت (مارسيلا)، دعني أردد ما سمعته بل أن أقرر ما رآه الرجال القديسون الذين كانوا حاضرين، فهم يقولون إنك أنت أيضاً كنت رفيقتها في مواجهة الخطر. لقد قيل إنهم عندما دخلوا، واجهتهم بنظرة شجاعة، وعندما طلبوا الذهب فإنها بمنظرها وعباءتها الرخيصة الثمن أبعدت عنها شبهة امتلاك ودفن ثروة ما، ومع ذلك فلم يصدقوا فقرها الاختياري. ويُقال إنها لم تشعر بألم عندما ضربوها بالسياط والهراوات ولكنها ألقت بنفسها عند أقدامهم بعينين مغرورقتين بالدموع، وطلبت أنت منهم ألا تتركيها، فأنت كشابة لا يجب أن تجبري على تحمل أفعال لا تخشى هى منها كامرأة مسنة، وهنا طوّع المسيح قلوبهم القاسية، فاحترموا الصلات العائلية برغم إمساكهم بالسيوف المغموسة بالدماء، وعندما اصطحبك البرابرة- أتت إلى كنيسة القديس الرسول بولس- حتى تحصل علي الأمن أو الموت، يُقال إنها فرحت فرحاً غامراً حتى إنها قدّمت الشكر لله لأنه حفظك في حالة العذراوية، ولأن الاستيلاء على المدينة لم يوصّلها لحالة الفقر لأنها كانت فقيرة فعلاً، ولأنه برغم قلة الخبز اليومي فقد كان المسيح شبعها حتى أنها لم تشعر بالجوع ولأنها استطاعت أن تحقق قولاً وفعلاً (عرياناً خرجت من بطن أمي وعرياناً أعود إلى هناك، وما يحسن في عيني الرب يفعل، وليكن اسم الرب مباركاً) (أيوب ١:٢١) (الفولجاتا).

١٤. وبعد عدة أيام رقدت في الرب، سليمة العقل صحيحة البدن وتركتك كوريثة لفقرها

أو بالأحرى للفقراء عن طريقك، وبعد أن أغلقت عينيها كانت بين ذراعيك تلفظ أنفاسها الأخيرة، لقد ابتسمت في شفتاك ومن خلال دموعك، واثقة من حياة صالحة ومكافأة مجزية. لقد أمليت ذلك في ليلة عمل قصيرة لأجلك، أيتها الموقرة (مارسيلا) ولك يا ابنتي (برنسيبيا) وهدفي إرضاء الله وقرائي وليس عن طريق حب البلاغة اللفظية بل بتقديم كل مشاعري المخلصة تجاهك.

(باولا) أقرب صديقة من الإناث لجيروم التي قضت نهاية حياتها في فلسطين معه، وكانت ثروتها هي السبب في إنشاء الأديرة للرجال والنساء على حد سواء في بيت لحم مما تم وصفه في الفصل الثالث، ولقد سحق الحزن قلب جيروم تماماً لوفاتها في سنة ٤٠٤ م، وكتب ما يأتي لابنتها (استوكيوم) في ذكراها **(الرسالة ٨.١)** وقد جاءت (استوكيوم) في سن المراهقة مع أمها إلى بيت لحم وهى الآن تشرف على إدارة دير السيدات [٢].

٣ . [٣] قد يتتبع آخرون نشأتها منذ البداية أي منذ أن كانت طفلة رضيعة في أقمطتها وبدايات مخارج ألفاظها إذا جاز هذا التعبير. وهم قد يذكرون أمها بليسيلا Blesilla وأبيها روجاتوس Rogatus وكانت أمها سليلة عائلتي الـ سكيبيوس Scipios والجراتشي Gracthi بينما تسلسل والدها من عائلة غنية ونبيلة ومشهورة في كل أنحاء اليونان حتى هذا اليوم (قيل إنه من سلالة أجاممنون Agamemnon الذي دمر طروادة في حصار دام عشر سنوات)، ونحن سوف لا نمتدح شيئاً سوى ما تمتلكه فعلاً، وما هو صادر فعلاً من النبع الصافي لفكرها المقدس..

٤ . وهكذا بتسلسلها من مثل هذه العائلة، تزوجت توكسوتيوس Toxotius والذي كان من سلالة عريقة أيضاً من اينياس Aenias والجولي Julii، وحيث إن ابنته كانت بحق عذراء للمسيح فقد سميت ابنته استوكيوم باسم جوليا Julie واسمه هو «جوليوس» Julius وهو اسم تسلسل من جوليوس الكبير [٤]. إني أذكر هذه الأشياء لأنها أشياء غريبة على مسامع الذين يحتقرونها، فأناس العالم يحترمون أصحاب الامتيازات العالمية.

ونحن بدورنا نمتدح أولئك الذين من أجل المخلص يحتقرون هذه الأشياء، وعلى الرغم من غرابة ذلك، إلا أننا نقدّر من يحوزونها، ولكننا نمتدح أولئك الذين لا يسعون للحصول عليها.

---

(٢) للاطلاع على المزيد من اهتمام باولا بالدراسات والرحلات في الأراضي المقدسة ومصر انظر ما كتب في هذا الصدد في الفصل الرابع .

(٣) Text: CSEL 55.305

(٤) فرجيل الإنياذة ٨٨ -Aeneid 1.288

لقد اعتبرت شخصية فذة بسبب عراقة أصلها وإبداعها وحياتها وشهد عن ذلك زوجها أولا ثم أقاربها، بل شهدت به المدينة كلها ،وقد ولدت خمسة أطفال: بليزيلا Blesillaوقد واسيتها عند موتها في روما، وبولينا Poulina التي تركت زوجها المقدس الرائع باماكويوس Pammachius كوارث لوظيفتها وممتلكاتها (أصدرت كتاباً صغيراً عن موتها له) واستوكيوم الموجودة الآن في الأراضي المقدسة، وهي عقد فريد على صدر البتولية والكنيسة، وروفينا Ruffina والذي أثار دفنها المتعجل الشكوك والارتباك في عقل أمها، وتوكسوتيوس Toxotius والذي توقفت عن إنجاب الأطفال من بعده، ويمكن من ذلك أن تفهم أنها منذ مدة طويلة وهي عازفة عن القيام بواجبات الزوجة، وقد تخلت عنها بسبب رغبة زوجها في إنجاب الذكور من الأطفال.

(عند موت زوجها كرست (باولا) نفسها لأعمال الخير، ولكنها بدأت التفكير في المزيد من إنكار الذات ، والتخلي عن كثير من الحقوق بسبب حياة البتولية التي نذرتها.

٦. لقد كانت على استعداد للمضي قدماً، غير عابئة ببيت أو أطفال أو خدم أو ممتلكات أو أي شيء يمت للعالم بصلة، و بلا حاشية إلى صحراء أنطونيوس وبولس[٥] .وأخيراً عندما مضى الشتاء وصار البحر منفتحاً أمامها عندما عاد الأساقفة[٦] إلى كنائسهم، أبحرت معهم بدافع من رغبتها وبصلاتها. لم المزيد من التأخير؟ ذهبت للميناء بصحبة أخيها وأقاربها وأنسبائها، والأهم من ذلك أطفالها، والآن قد تم نشر الأشرعة، وتم سحب "السفينة إلى العمق بتجديف طاقم البحارة. وكان توكسوتيوس الصغير على الشاطيء يرفع ايدي الضراعة، وروفينا وقد أصبحت شابة الآن توسلت لأمها بدموع صامتة أن تنتظر حتى تتم زفافها، ومع ذلك فقد رفعت (باولا) عينيها نحو السماء محاولة أن تخضع ولاءها لأطفالها لولائها لله، لقد تجاهلت وضعها كأم حتى تثبت أنها جديرة بلقب أمة الله، وكانت تحتمل في داخلها الكثير من الاضطرابات، لقد كانت في معركة مع الحزن كما لو كانت ممزقة الأوصال، وفي هذا أثارت إعجاب الجميع لأنها قهرت محبة عظمى. فمن بين أسوأ نتائج الاسر والوقوع في أيدي الأعداء ليس هناك ما هو أشد قسوة من منظر الآباء، وهم يُعزلون عن أبنائهم لقد تحملت ذلك بثقة تامة مع أن ذلك ضد ناموس الطبيعة، نعم لقد كانت تسعي في إثر ذلك بروح مبتهجة، وهي تحاول إضعاف حبها لأطفالها بحبها الأعظم لله، لقد وجدت سلوتها في استوكيوم وحدها، والتي كانت رفيقتها في وحدة الهدف وفي رحلتها أيضاً، وفي نفس الوقت كانت السفينة تمخر

(٥) كتب جيروم عن حياة الراهب بولس والذي يقال عنه إنه أول آباء الصحراء

(٦) الأساقفة الذين زاروا باولا في روما.

عباب البحر، وكل الذين كانوا معها نظروا إلي الشاطيء وراءهم ولكنها كانت تحوّل نظرها بعيداً حتي لا تري ما يمكن أن يدفعها لمزيد من الألم، وأقر بأنه ما من امرأة أحبت أطفالها مثلها، فقبل رحيلها تخلت عن كل ممتلكاتها الأرضية، وأعطته لهم حتي تجد ميراثاً في السماء .

(عندما ماتت باولا عن عمر يناهز السادسة والخمسين في سنة ٤٠٤ م كتب جيروم قصيدة لتوضع علي قبرها).

٣٣ . الوداع يا (باولا)، ساعدي بصلواتك كبر سن صديقك، إن إيمانك وأعمالك يوحدانك مع المسيح، الذي في حضرته تنالين ما تطلبينه بسهولة «لقد أقمت لك أثراً أكثر دواماً من البرونز[٧] والذي لن يمحوه مرور السنين، لقد نقشت كلمة علي ضريحك أضيفها لهذا العمل، حتي أنه حيثما تذهب رسالتي هذه يعرف القاريء أنك مدفونة في بيت لحم، وأنك قد كرّمت هناك».

وهاكم النقش الذي علي القبر:

أنجبها سكبيو Scipio تلك التي تسير علي تعاليم بولس الرسول لها فرع من عائلة جراتشي Gracchi ، ومن سلالة أجاممنون

تلك التي أسماها والداها (باولا)

ترقد هنا في هذا القبر

وابنتها استوكيوم

ذات الصلة بمجلس الشيوخ الروماني

لقد ورثت فقر المسيح وسذاجة بيت لحم

وعلي أبواب الكهف:

هل تري قبراً صغيراً منحوتاً في الصخر؟

إنه مكان راحة (باولا)

التي تمتلك الممالك السماوية

تاركة الأخ والقريب والوطن الروماني والثروة

والنسل، وترقد دفينة في كهف بيت لحم

هنا كان مهدك يا أيها المسيح

---

(٧) هوارس - الاودز .Horace, Odes3, 30, 1

وهنا يقدم الملوك هداياهم

الرمزية لله بدلاً من إعطائها للإنسان الفاني [٨].

قبل وصول (باولا) وجيروم إلى فلسطين، تخلت (ميلانيا) Melania الشيخة عن الحياة الارستقراطية في روما، وارتحلت إلى فلسطين حيث أسست أديرة للرجال والنساء في أورشليم، والفقرتان التاليتان تلقيان الضوء على حياة هذه المرأة المتعلمة العاقدة العزم[٩]. والفقرة الأولى من **تاريخ لوسياك Lausiac لبالاديوس.**

٤٦. [١٠] (ميلانيا) المثلثة التطوبيات كانت من أصل أسباني ثم أصبحت رومانية بعد ذلك، كانت ابن (ماركيونس Marceuinus أحد الحكام الرئيسيين، وزوجة رجل رفيع المقام (لا أذكر الآن منصبه بالضبط) وعندما ترملت في سن الثانية والعشرين كانت جديرة بالحب الإلهي، فلم تخبر أحداً بخطتها لأنها لو فعلت ذلك لمنعت من تنفيذ خطتها لأن فالنز Valens كان يحكم الامبراطورية حينئذاك[١١]. وقامت بتعيين وصياً على ابنها، وأخذت كل منقولاتها وشحنتها على سفينة وأبحرت بأقصى سرعة للإسكندرية مع مجموعة من النساء الشهيرات والأطفال. وبعد أن باعت منقولاتها، وحولت ممتلكاتها إلى نقود، رحلت إلى جبل النطرون وقابلت الآباء (بامبو وأرسيسيوس Arisisus وسيرابيون الكبير Scrapion (وبفنوتيوس-Paphna tius من الأسقيط Scete وإيسيدور Isidore المجاهر بإيمانه (وديوسقورس Discorus أسقف هرموبوليس، وقضت معهم ستة أشهر وهي تتحول في الصحراء وتفتش عن القديسين.

وبعد ذلك قام الحاكم الروماني أوغسطس باستبعاد (إيسيدورس) (بيسموس Pisimus (وادلفيوس» Adephiuss (وبفنوتيوس) (بموا) وكان معهم أيضاً (امونيوس باروتس Ammonius parotes) واثنى عشر أسقفاً وكاهناً إلى فلسطين حول المناطق القريبة من قيصرية.

وقد تبعتهم وقامت على خدمتهم من مالها الخاص، ولأن نظام الخدمة كان ممنوعاً كما قيل (فقد تصادف أن قابلت القديس بيسيميوس وإيسيدورس وبفنوتيوس وأمونيوس). فقد ارتدت ثياب العبيد، وكانت تأتي في المساء لتقدم لهم ما يحتاجونه، وعندما علم والي

---

(٨) متى ٢:١١

(٩) انظر ما بعده

(١٠) Text: The Lausiac History of Palladius, ed. c. Butler Camberidge, 1898, Repr. Hilde-sheim, 1967), 134.

(١١) امبراطور الشرق ص٣٦٤-٣٧٨م. وأحد المتعاطفين مع الهراطقة الآريوسيين Arian.

فلسطين بذلك أراد أن يملأ جيبه الخاص ، وفكر في تشويه سمعتها [١٢] وقبض عليها وزج بها في السجن غير عالم أنها امرأة حرة، ولكنها كشفت عن شخصيتها له بهذه الطريقة:«إني ابنة فلان الفلاني وزوجة فلان الفلاني ولكني أمة المسيح، فلا تزدر بمظهري الحقير، لأني يمكن أن أمجّد نفسي لو أردت،وليس لك الحق أن تسيء إليّ بهذه الطريقة أو أن تأخذ مني شيئاً، لقد أوضحت لك ذلك لئلا تصبح موضع اتهام». فمن الضروري عند التعامل مع أناس متبلدين أن تستخدم الغرور كشرك! وتفهّم القاضي الموقف بعد ذلك، واعتذر وقدم لها تكريماً، وأمر بأن يسمح لها بمقابلة القديسين دون إعاقة.

وبعد رجوعهم، بنت ديراً في أورشليم وأقامت هناك لمدة سبع وعشرين سنة مع مجموعة من خمسين عذراء، وبالقرب من ميلانيا كان يسكن (روفينوس Rufinus) النبيل الأصيل الوطيد العزم والذي يشابهها في العادات، لقد كان من مدينة (اكويليا Aquileia) في إيطاليا واعتبر جديراً بتولي منصب الكاهن، ولا يضارعه أحد بين الرجال في رجاحة عقله وكفائته، وخلال الـ٢٧ عاماً استقبل كل منهما كل من اتجه لأورشليم وفاءً لنذر سواء كانوا أساقفة أو رهباناً أو عذارى على نفقتهما الخاصة، ولقد كانا مصدر استنارة لكل من قابلوه، وقاما بجمع شمل الأربعمائة راهب المتورطين في الانشقاق على (بولينوس)[١٣] وبعد أن أقنعا كل هرطوقي كان يهاجم لاهوت الروح القدس قاما بإعادتهم إلى الحظيرة الكنسية، وكرّما رجال الدين في المنطقة بتقديم الهدايا والأطعمة. وهكذا ختما حياتهما دون إيقاع الأذى بأي إنسان.

٥٤.. لقد تحدثت فيما سبق عن القديسة العجائبية (ميلانيا) بصورة سطحية، ويبقى بعد ذلك ما هو أقل أهمية، سوف أختم حديثي بأن أضم إلى الصورة بعض النقاط المتبقية، لقد أنفقت ثروة طائلة في غيرتها وتقواها، كما لو كانت ملتهبة حماساً لكي يكتب هذا التقرير، عن طريق سكان فارس وليس عن طريقي أنا. لقد استفاد الجميع من أعمالها الصالحة دون استثناء سواء في الشرق أو في الغرب، في الشمال أو في الجنوب.

وقد ظلت تقوم باستضافة الناس طيلة ٢٧ عاماً على نفقتها، وساعدت الكنائس والأديرة والضيوف والسجون، وقامت عائلتها وابنها وأوصياؤها بإمدادها بالمال، لقد ثابرت في سخائها وضيافتها لدرجة أنها لم تحتفظ بشبر من الأرض، ولم تتزحزح لفرط اشتياقها لابنها، ولم يستطع أي شيء أن يفصلها عن محبة المسيح، ولكن بصلواتها تقدم ابنها الشاب لمستوى رفيع في التعليم والشخصية، وتزوج كما هو متوقع وأصبح مكرّماً، وأنجب طفلين أيضاً، وبعد

(١٢) توريه: «السواد» باليونانية يعني (ميلانيا).

(١٣) طائفة منشقة انفصلت عن الكنيسة في أنطاكية من سنة ٣٦٠ حتى سنة ٣٨٠.

مدة طويلة سمعت عن حالة حفيدتها [١٤] التي كانت قد تزوجت ثم قررت أن تترك العالم، وخوفاً من أن تؤثر عليهم التعاليم المضلّة أو الهرطقة أو عدم التقوى في المعيشة، فقد قررت برغم بلوغها الستين من العمر باستقلال قارب، ورحلت من قيصرية، ووصلت إلى روما بعدعشرين يوماً.

وهناك قابلت رجلاً مباركاً أهلاً للثقة وهو (ابرونيانوس Apronianus) يوناني الجنسية، وعلّمته وصيرته مسيحياً وأقنعته بممارسة ضبط النفس الجنسي مع زوجته المدعوة (أبيتا Abita) وكانت بنت أخت (ميلانيا)، وقامت بشد أزر حفيدتها (ميلانيا) مع زوجها (بنيان Pin-ian وعلّمت زوجة ابنها (ألبينا Albina،) وقد هيأتهم ذهنياً لبيع كل مقتنياتهم علناً، وقادتهم بعيداً عن روما وأخذتهم إلى ميناء الحياة الهادئة الرزينة، وهكذا في مواجهة كل هذه الأشياء كانت تحارب وحوشاً هم أعضاء مجلس الشيوخ وزوجاتهم الذين كانوا بودهم منعها من القيام بهذا العمل والتصدي له، ولكنها قالت لهم:(مكتوب منذ أربعمائة سنة: «أيها الأولاد هي الساعة الأخيرة» (١يوحنا ٢:١٨) لماذا تحبون أشياء هذا العالم الزائفة لئلا تدرككم أيام ضد المسيح فلا تستمتعوا بثروتكم أو ثروة أجدادكم؟).

وبعد أن حررت كل أقاربها هؤلاء قادتهم لحياة الدير، وعلّمت أيضاً الابن الأصغر لـ (بابليكولا- Publicola وقادته إلى صقلية، وباعت كل ما تبقى مما تمتلكه وذهبت إلى أورشليم ومعها عائد بيع ثروتها ووزعته خلال أربعين يوماً ثم رقدت في الرب في سن متقدم ، بوداعة كاملة، وتركت ديراً في أورشليم وعوائد كافية لإدارته.

وبينما كانوا جميعهم بعيداً عن روما، اجتاح الإعصار البربري المتنبأ عنه منذ القديم، روما[١٥] ولم تسلم حتى التماثيل البرونزية في الساحة من الدمار، بل هلك كل شيء تحت وطأة الجنون البربري، وهكذا أصبحت روما التي كانت في أبهي زينة طيلة ١٢٠٠ عاماً حطاماً. وهكذا قام كل من علّمتهم (ميلانيا)، وكل من قاوم تعليمها بحمد الله الذي أقنع غير المؤمنين خلال الأحداث الثورية، لأنه بينما أُخذ الآخرون أسرى، لم تمتد أيديهم إلى تلك المنازل التي قُدمت ذبيحة حية للرب. من خلال غيرة (ميلانيا) وتقواها.

- مشايع آخر (الميلانيا) الكبيرة وربما ابن عمها كان **بولينوس من مدينة نولاNola. وفي الرسالة رقم ٢٩ لسلبيكوس سيفيروس Sulpicius Severous** ينتهر (بولينوس) فرصة عودة (ميلانيا) من فلسطين إلى إيطاليا حوالي سنة ٤٠٠م وزيارتها لمدينة نولا لتلقي خطاباً عن

(١٤) ميلانيا Melania الصغيرة .

(١٥) استيلاء القوط على روما ٤١٠ م.

حياتها وشخصيتها .

٦ .[١٦] بالإضافة لذلك فقد منح الرب هذه النعمة المباركة بسبب رسائلك وعطاياك: لقد قدم أخونا فكتورVector نفسه أثناء هذه الأيام الخاصة التى رحبنا فيها بتلك السيدة القديسة من أورشليم بعد تغربها هناك لمدة ٢٥ سنة، فيالها من امرأة، إذا جاز لى أن أدعو مثل هذه المسيحية البطلة امرأة! إن الخوف من مجهود مضن يسبب لى مرضاً يمنعنى من إضافة كتب للمجلدات التى كتبت عنها، ولكن عظمة شخصيتها أو قل نعمة الله تتطلب منى ألا أتسرع فى ألا أضيف إشارة عابرة لمثل تلك الروح العظيمة. سوف أتحدث إليك عنها بإيجاز، فكما أن الذين يبحرون إذا رأوا مكاناً جميلاً على الشاطىء فإنهم لا يتجاوزونه ويمرون عليه بسرعة، بل أنهم لبرهة وجيزة يطبقون الأشرعة، أو يتوقفون عن التجديف، حتى يستطيعوا بذلك أن يمتّعوا أبصارهم، وهكذا أجرى تعديلاً فى اتجاه خطبتى، وفى ذلك قد ترانى أقدم لك مكافأة على كتابك الرائع فى المضمون والبلاغة، إذا كرّمت هذه المرأة، وهى عضو ينتسب إلى الجنس الأضعف، ونسبت إليها فضائل مارتن لأنها جندية للمسيح [١٧]: امرأة نبيلة أعطت نفسها نبلاً أعظم من النبل الذى توارثته عن أجدادها الحكام باحتقارها للنبل المادى حسب الجسد.

٧. إنها امرأة انتسبت إلى مقام أسمى، وبترفع ارتضت لنفسها بمستو متواضع للمعيشة حتى إنها كعضو قوى من الجنس الأضعف يمكنها أن توبخ الكسالى من الرجال، فهى كإنسانة ثرية افتقرت باختيارها وكإنسانة نبيلة تبنت الذل والهوان، وهى تخجل أناساً كثيرين من كلا الجنسين.

٨. وهكذا فلأن مارسيلينوس الوالى كان جدها، ولأن عائلتها ناضلت من أجل الشرف وكانت لديها ثروة طائلة، فقد تزوجت فى سن صغيرة، وسرعان ما أصبحت أماً. ولكنها لم تستحوذ على تلك السعادة الفانية مدة طويلة لئلا بطول المدة تفضل الأشياء الأرضية، فبالإضافة للأحزان المفجعة التى واجهتها عندما كان زوجها على قيد الحياة، كانت معاناتها بلا طائل بسبب الأطفال الذين ولدوا قبل الأوان، وزادت متاعبها: ففى ظرف سنة واحدة فقدت ولدين وزوجاً، ولم يبق لها سوى ابن واحد كذكرى لأحبائها الذين فقدتهم وليس كتعويض عنهم

(١٦) Text CSEL 29.251

(١٧) كان بولينوس يكتب لسلبيكوس سيفروس مؤلف كتاب «حياة القديس مارتن» من مدينة تور، وأخبر بولينوس سلبيكوس كم استمتعت ميلانيا بهذا الكتاب.

... وهكذا بعد أن حضرت تلك المآتم فى موكب حزين وهى أرملة محرومة من أطفالها، جاءت إلى روما مع ابنها الوحيد الذى كان أكثر تحريضاً لتذرف الدمع منه كعزاء وسلوى. وكطفل رضيع فإما أنه أحس بتلك الويلات قبل أن يجرب أياً منها، وبالتالى عرف الرثاء لموت الآخرين فى حين كان هو نفسه غير قادر على فهم حياته الخاصة، أو كان غير مدرك لشىء أو كان بشوشاً فى طفولته، وكان يضحك فى لهوه الذى يدعو للرثاء وسط أنات وحشرجات أمه المتألمة.

٩. وقد علّمتها هذه الأحداث ألا ترتبط بهذا العالم الفانى، وأن تضع رجاءها العظيم فى الله، الذى وحده لا يمكن أن نفقده رغماً عنا، ولذلك فقد اكتست هى وألبست ابنها رداء المعرفة النافعة، حتى إنها أحبت ابنها الصغير بعدم الالتفات إليه، وحفظته بتركه وراءها، فهى تملكه وهو غائب عنها بأن تعهد به إلى الرب أكثر من أن تملكه شخصياً، وأكثر من أن تخصص نفسها له..

١٠. لقد كانت فى مواجهات عديدة ضد التنين البغيض [١٨] فى أولى جولات حربها الروحية، لأن حسد عدوها الشرير لم يتح لها ارتحالاً سهلاً ومريحاً، فبممارسة ضغط شديد على أقربائها النبلاء دافعاً إياهم لاحتجازها، حاول أن يعوق خطتها ويمنعها من السفر. ولكنها تحصنت بشدة ضد قوة هجماته، وبينما كان الجميع يبكون فقد تحررت بابتهاج من أغلال الاهتمامات العائلية البشرية فى الوقت الذى فيه تم حل قيود السفينة التى تربطها بالشاطىء، لقد كانت تصارع أمواج البحر بثبات، وأبحرت بعيداً حتى لا تقهر أمواج العالم الهائلة. وعندما اختارت بفضل الهبة الروحية أن تستبدل الحياة العالمية بمدينة أورشليم حيث يمكنها أن تتغرب عن الجسد، وفضلت أن تكون منفية عن مواطنيها لتكون مواطنة بين القديسين. لقد أرادت أن تخدم بحكمة وقداسة فى ذلك المكان الذى خدمت فيه، حتى تستطيع أن تملك فى تلك المملكة التى تسود فيها الحرية.

يصف بولينوس بعض أنشطتها فى فلسطين معلقاً على نفس الأحداث التى غطاها بالاديوس ويكتب بولينوس بعد ذلك عن عودتها إلى إيطاليا حيث حياها ابنها بوبليكولا وحفيدتها (ميلانيا) الصغيرة مع آخرين.

١٢ . سوف أمر بسرعة الآن على بقية شئونها وأوقاتها، وسوف أعبر البحر الذى أبحرت فيه عائدة مقلداً رحلتها، حتى أقتصر فى حديثى وأوجزه بسرعة بسرد قصة وصولها هنا،

---

(١٨) الشيطان.

والذى شهدت فيه نعمة الله العظيمة، لقد أحضرت إلى مدينة نابولى على بعد مسافة قصيرة من (نولاNola) حيث نعيش. وفى نابولى قابلها أبناؤها وأحفادها بترحاب، ثم أسرعت إلى (نولا) حيث كانت فى ضيافتنا المتواضعة، وأتت إلينا محاطة بصحبة أبنائها الأثرياء جداً. ولقد رأيت هناك مجد الرب فى تلك الرحلة التى جمعت شمل الأم وأبنائها مع أنهم كانوا مختلفين فى الملبس اختلافاً كبيراً. لقد أجلسوها على حصان هزيل صغير واصطحبوها بكل الزهو والفخر، الذى يحاط به أعضاء مجلس الشيوخ الأثرياء، وكان الطريق يعج بالعربات من هنا وهناك، والخيول المزينة والمركبات المذهبة للسيدات، وكثير من العربات ذات العجلتين ولكن نعمة التواضع المسيحى قد فاقت هذا البريق والبهاء الأجوف. لقد رأينا تناقضاً عجيباً فى هذا العالم ، فالحرير الأرجوانى والعربات المذهبة كانت فى خدمة الأسمال السوداء البالية فباركنا الله الذى «يقيم المسكين من التراب ويرفع الفقير من المذبلة للجلوس مع الشرفاء» (مز ١١٣:٨) و«أشبع الجياع خيرات وصرف الأغنياء فارغين» (لوقا١:٥٣).

١٣. كوخ مرتفع عن الأرض ويمتد لمسافة ليست بعيدة عن قاعة الطعام، وله ممشى مسقوف يقع بينه وبين حجرات الضيوف. وكان يبدو كما لو كان هذا الكوخ قد وسّع الله فى أرجائه بنعمته، لأنه اتسع على الرغم من صغر مساحته ليس فقط للعديد من السيدات القديسات مع (ميلانيا) ولكن أيضاً لجماهير الأثرياء. إن سطح المبانى المجاورة التى تتبع القديس فيلكس [١٩] كانت تردد صدى حركات الأولاد والعذارى فى الكوخ. والآن اعلم أن الله وضع مثل هذه القوة فى فرد من الجنس الأضعف، فتلك المرأة كانت تجد قوة فى الصيام، وراحة فى الصلاة، وخبزاً فى الكلمة، وكساء فى الملابس البالية، وفراشها غير المريح (كان عبارة عن عباءة ولحاف من قطع من القماش مختلف الألوان وموضوعاً على الأرض) كان يلين مع الدرس لأن سرورها كان فى القراءة مما كان يخفف من أوجاع هذا الفراش غير المرن، وكانت راحة نفسها فى أن تظل ساهرة ويقظة فى الرب..

- إن سلوك نساء مثل (باولا) و(ميلانيا) الكبيرة كان يعتبر مخزياً عند أفراد آخرين من نفس الطبقة الاجتماعية، وحتى من قبل بعض المسيحيين، كما يوضح **جيروم ذلك فى الرسالة ٤٥**.[٢٠]

٤. أيها الحسد منذ البداية قد وضعت فى البشر الإساءة للآخرين، إن دهاء الشيطان يسعى

---

(١٩) كان بولينوس Poulinus حامياً لضريح القديس فيلكس Felix فى نولاNola

(٢٠) Text: CSLE 54.323

دائماً لتلويث الأشياء المقدسة! ففى مدينة روما كلها لم تُثر النساء الأخريات حديثاً بقدر الحديث الذى جرى عن (باولا) و(ميلانيا) اللتان احتقرتا ثروتهما وهجرتا أحباءهما (أطفالهما) ورفعا راية الصليب كنبراس للإيمان، ولو كانتا قد أسرعتا لبايا Baiae[٢١] واختارتا الروائح العطرية، ولو استغلتا ثروتهما وترملهما فى حياة الرفاهية والترف والحرية لكانتا قد سميتا بالسيدتين الفاضلتين القديستين، أما وقد رغبتا فى أن يتجملا بالمسوح والرماد وأن يهبطا إلى العذاب والألم بالصيام ولدغ الحشرات، كما لو كانتا ممنوعتين من أن يهلكا مع سواء الناس، بينما الجماهير تصفق! ولو كان الذى يشهر بنوعية المعيشة التى يحيونها من الأميين أو اليهود، لكان عزاؤهما أنهما لا تعملان لإرضاء من كان المسيح غير راض عنهم. أما الآن وفى الحقيقة ..وياللعار!، فإن أولئك الذين دعى عليهم اسم المسيح هم الذين يهملون العناية بذويهم وأهل بيتهم، متغاضين عن الخشبة التى فى عيونهم وباحثين عن القشة فى عين جارهم (متى٧:٣،لوقا٦:٤١). إنهم يمزقون إرباً هذه المجاهرة بالبتولية، ويتصورون أن عندهم طريقة لتفادى إنزال العقاب بهم إذا لم يكن هناك قديسون، وإذا كانوا يستطيعون التشهير بكل الناس، وإذا كان بإمكانهم أن يبينوا أن الجماهير سوف تهلك وأن الخطاة لا عدد لهم ولا حصر.

كان لـ (ميلانيا) الكبيرة حفيدة مسماة على اسمها، أصبحت فى شهرة جدتها تقريباً ومتبتلة مثلها، فمن بين النساء الأثرياء فى روما، وفى أوائل القرن الخامس هربت (ميلانيا) الصغيرة وزوجها بنيان (الذى أقسمت معه عهد العفة بعد موت أطفالهما) من روما حين اقترب منها الغزاة القوط، وبعد الارتحال المؤقت لشمال أفريقيا استقر المقام فى أورشليم، وبنت بعد ذلك أديرة للرجال والنساء على جبل الزيتون كما فعلت جدتها من قبل، ويذكر بالاديوس فى «*التاريخ اللوزياكى*» بعض *التفاصيل* عن حياتها.

٦١. [٢٢] حيث إنى وعدت أن أقص عليك أشياء تتعلق بابنة (ميلانيا) الكبيرة، فإنى أبرّ بوعدى، لأنه من الخطأ أن نهمل الشباب فى ريعانه وألا نلقى بالاً لتلك الفضيلة فى حين أنها تفوقت كثيراً على النساء من كبار السن الغيورات، لقد أجبرها أبواها على الزواج من إحدى الشخصيات الرومانية القيادية.وكانت تستشعر ضيقاً من جراء القصص التى كانت تحكى عن جدتها، فقد اتخذت موقفاً سلبياً من الزواج. وعندما ولد لها طفلان وماتا بعد ذلك اندفعت

---

(٢١) منتجع جميل علي خليج نابولي.

(٢٢) Text the Lausiac History of Palladius ed..c. Butler (camberuge, 1898, rep. Hildesheim 1967 155.

فى هذا الاتجاه لدرجة كراهية الزواج، وقالت لزوجها:«إذا اخترت طريق البتولية معى ووفقاً لتعليم العفة الزوجية سوف أعترف بك حاكماً وسيداً لحياتى، ولكن إذا كان ذلك صعباً عليك لأنك ما زلت شاباً يمكنك أن تأخذ كل ما أمتلكه، ولكن دع جسدى حراً طليقاً حتى أتمم اشتياقى لله وأرث غيرة جدتى كما ورثت اسمها،لأنه لو كان الله يريد لنا أن ننجب أطفالاً آخرين لما سمح بأخذ طفلىّ فى وقت غير متوقع» .

وهكذا ظلا لفترة قصيرة يقاومان حمل هذا النير، لكن الله أخيراً أسبغ رحمته على الشاب، ووضع عليه أيضاً الالتزام والتحمس لفكرة نبذ العالم، ولذا تم فيها المكتوب:«كيف تعلمين أيتها المرأة هل تخلّصين الرجل؟» (١كورنثوس٧:١٦)، لقد تزوجت فى سن الثالثة عشرة، وعاشت مع زوجها لمدة سبع سنوات، وفى سن العشرين عقدت العزم على حياة التبتل. وأول شىء عملته أنها قدمت فساتينها الحريرية إلى الكنيسة، كما فعلت أيضاً القديسة أوليمبياسOlympias. وبعد أن عهدت بذهبها وفضتها لكاهن معين، وهو راهب يدعى بولس، أرسلت شرقاً بطريق البحر عشرة آلاف قطعة من النقود إلى مصر والأديرة هناك، وعشرة آلاف لأنطاكية والمنطقة المحيطة بها، وخمس عشرة ألف قطعة من النقود لفلسطين، وعشرة آلاف للكنائس فى الجزر والمناطق فيما وراءها، وبنفس الطريقة تحملت نفقات الكنائس الغربية بنفسها.

لقد انتزعت كل هذه الأشياء وأربعة أمثالها من «فم الأسد» (عاموس ٣:١٢) أقصد (الارك Alaric) [٢٣] بسبب إيمانها، لقد حررت ثمانية آلاف من عبيدها الذين أرادوا التحرر، أما عن الباقين الذين لم يريدوا العتق، واختاروا أن يخدموا أخيها فقد جعلته يأخذهم جميعاً بثلاث قطع من النقود فقط. وباعت ممتلكاتها علناً فى أسبانيا و أكويتانيا Aqaitania وتراكونيا Traconiaوبلاد الغال (فرنسا) ولم تترك لنفسها شيئاً سوى ما فى صقلية وكامبانيا وأفريقيا، فقد احتفظت بها للإنفاق منها على الأديرة، هكذا كانت حكمتها فيما يتعلق بعبء الثروة.

أما ممارستها لحياة التبتل فكان كالآتى: لقد كانت تأكل يوماً ولا تأكل اليوم الذى يليه، وفى البداية كانت تأكل مرة واحدة فقط كل خمسة أيام أو أكثر، وكانت تعمل خلال النهار مع عبيدها الذين تبتلوا معها، لقد أخذت معها (ألبينا) Albine أمها والتى كانت تعيش بالمثل

---

(٢٣) رئيس القوط الذي غزا روما في ٤١٠م.

حياة البتولية والتى بدورها وزعت سراً ثروتها فى الخارج، وهكذا كانوا يسكنون فى الريف وأحياناً فى صقلية وفى أحيان أخرى فى كامبانيا Campania مع خمسة عشر خصياً وستين عذراء، منهم الأحرار والعبيد، وزوجها بالمثل (بنيان Pinian) يعيش مع ثلاثين راهباً يقرأ أو يباشر حديقة، ويشترك فى المناسبات المقدسة. لقد احتفوا بنا عندما سافر عدد منا إلى روما بالنيابة عن يوحنا الأسقف المبارك، لقد أنعشونا باستضافتنا كغرباء وبإعطائنا كثيراً من مستلزمات السفر بفرح عظيم وهم يحصدون ثمار الحياة الأبدية بالأعمال الإلهية التى تنم عن أنبل حياة يمكن أن يحياها إنسان.

لقد مثلت (ميلانيا) الكبيرة إلهاماً لأوليمبياس وهى أرملة ثرية شابة من القسطنطينية، والتى أصبحت أقرب صديقة ليوحنا فم الذهب، ولقد استخدمت جزءاً من ثروتها لتبنى ديراً للنساء فى القسطنطينية، وكانت تشرف عليه، ولقد رسمت أيضاً كشماسة. ويقدم **بلاديوس** فى **«التاريخ اللوزياكى»** قصة موجزة عن أوليمبياس.

٥٦.[٢٤] إن القديسة العجائبية (أوليمبياس) حذت حذو (ميلانيا) الكبيرة فى اتخاذ قرار التبتل وسارت على دربها بمهابة واحترام. لقد كانت ابنة (سلوقس Seleucus أحد الحكام السابقين، وحفيدة (البابيوس Albebius) الحاكم السابق، وكانت عروساً لعدة أيام قليلة (النيبيريديوس Nebridius) الحاكم السابق للمدينة، ومع ذلك فلم تكن زوجة لأحد، لأنهم يقولون إنها ماتت عذراء، إلا أنها كانت شريكة (ميلانيا) فى كلمة الحق. فقد وزعت كل ممتلكاتها بإعطائها للفقراء، وناضلت وكافحت كفاحاً مريراً لنصرة الحق، وعلّمت نساء كثيرات، ودخلت فى مناقشات جادة مع الكهنة، وكرّمت الأساقفة واعتبرت جديرة بمناصرة الحق وإعلانه، لأن كل المقيمين فى القسطنطينية يشهدون لها بأنها ضمن المدافعين عن الحق حتى الموت Confessors[٢٥].

وعندما أكملت حياتها رحلت فى طريقها للرب وهى تصارع كثيراً من أجل الله .

ونجد صورة أكثر تفصيلاً عن حياة **(أوليمبياس)** موجودة فى وثيقة مماثلة من القرن الخامس، ومن الواضح أن كاتبها كان يعرفها جيداً. ومن حياة «أوليمبياس» نعرف أكثر عن تلك التى كان فم الذهب يأتمنها على أسراره، والتى كشف لها عن مكنونات قلبه فى ١٧

---

(٢٤) Text: the Lausiac History of Palladius, ed, c Butler c Cambridge, 1898, repr. Hildesheim, 1967, 149.

(٢٥) Confessors تعني أولئك الذين على استعداد للتضحية بحياتهم كشهداء في وقت الاضطهادات.

رسالة كتبها من منفاه.

والفقرة التالية هي عن حياة «أوليمبياس Olympias الشماسة»:

٢. [٢٦] لقد كانت ابنة لسلوقس حسب الجسد، وهو أحد الحكام الأباطرة، ولكن بحسب الروح كانت ابنة لله بالحقيقة، ويُقال إنها كانت سليلة البابيوس الذى كان حاكماً، وكانت عروساً لبضع أيام قليلة لنيبريديوس والى مدينة القسطنطينية، ولكنها فى الحقيقة لم تشارك فراش أى واحد لأنه يقال إنها ماتت عذراء عفيفة، وكانت تجاهر بكلمة الله مظهرة كل وداعة وتواضع وخادمة لكنيسة الله المقدسة الجامعة الرسولية، لقد كانت يتيمة، وتم زواجها من رجل، ولكن بنعمة الله حفظت سالمة من دنس الجسد والروح، لأن الله الذى يراقب كل شيء والذى يرى مسبقاً لما يؤول إليه البشر، لم ير أنه من المناسب لزوجها أن يعيش معها لمدة عام. لقد طلب منه وفاء دين الطبيعة وحفظت عذراء بلا لوم حتى النهاية.

٣. كان يمكنها أن تتبع القانون الرسولى الذى يقول «فأريد أن الحدثات يتزوجن ويدبرن البيوت» (١تيموثاوس٥:١٤)، ولكنها لم توافق على ذلك بالرغم من أنها كانت تمتلك الأصل العريق والثروة والقسط الوافر من التعليم والطباع الحسنة، وكانت فى أوج شبابها، ولكنها كالغزال قفزت فوق شرك الزواج الثانى دون أن يمسّها سوء «فالناموس لم يوضع للبار بل للأثمة والمتمردين والمستبيحين» (١تيموثاوس١:٩).

ونتيجة لحقد شيطانى أكيد أُشيع أن ترملها المبكر أصبح مصدراً للإزعاج، واتهمت ظلماً أمام الإمبراطور ثيودسيوس بأنها وزعت أملاكها بطريقة غير صحيحة، وبما أنها كانت من أقربائه، فقد حاول جاهداً أن يزوّجها لشخص يدعى (البيديوس Elpidius) وهو أسبانى وواحد من أقربائه. وقد بذل معها جهوداً مستميتة، وعندما فشل فى تحقيق غرضه تضايق، ومع ذلك فقد فسرت التقية اوليمبياس موقفها للامبراطور ثيودسيوس قائلة: «لو كان مَلكى الرب يسوع المسيح أراد لى الارتباط برجل لما أخذ منى زوجى الأول فوراً، وحيث إنه كان يعرف أنى لا أصلح لحياة الزوجية وأنى لا أستطيع إرضاء رجل فقد حرر زوجى (نيبريديوس) من قيود الزوجية، وأنقذنى من هذا الحمل الثقيل والعبودية لزوج، بعد أن أقنعنى تماماً بالسعادة فى تحمل نير البتولية وضبط النفس».

٤. لقد أوضحت كل هذه الأشياء للإمبراطور ثيوديسيوس بهذه الطريقة قبل التآمر على القديس يوحنا بطريرك القسطنطينية، وعندما سمع الامبراطور الشهادة ضد التقية

(٢٦) Text:SC 13 bis. 408.

(أوليمبياس) أمر الرجل الذى كان وقتئذ حاكماً للمدينة وهو (أكليمينتينوس Clementinus أن يضع ممتلكاتها تحت الحراسة حتى تبلغ سن الثلاثين، أى فى ريعان نضجها الجسدى، وبعد أن تسلم الوالى الوصاية من الإمبراطور أخذ عليها بشدة تحت إلحاح (البيديوس)، (لم يكن لها الحق فى أن تقابل الأساقفة أو تقترب من الكنيسة) حتى إنها وهى تئن تحت هذا الضغط تقبل بالزواج دون نقاش. ولكنها استجابت لذلك شاكرة الله وقائلة: «لقد أظهرت نحو شخصى المتواضع أيها الحاكم معاملة حسنة تليق بملك وتصلح لأسقف عندما أمرت بوضع حملى الثقيل تحت الحراسة، لأن إدارته كانت سوف تسبب لى هماً، ولكنك يستحسن أن تأمر بتوزيعه على الفقراء، وعلى الكنائس لأنى كنت أصلى كثيراً لتجنب المجد الزائف الناجم عن امتلاك الماديات، لئلا أهمل الثراء الحقيقى».

٥. بعد عودة الامبراطور من المعركة مع مكسيموس[٢٧] أصدر أمراً بأن تمارس السيطرة على ممتلكاتها منذ أن سمع عن جدية حياتها البتولية، ولكنها قامت بتوزيع ثروتها الطائلة وغير المحدودة، وساعدت الجميع ببساطة وبلا تمييز، فلأجل الكثيرين تفوقت على ذلك السامرى الصالح المذكور قصته فى الأناجيل المقدسة (لوقا . ١٠:٢٩-٣٧). ففى ذات مرة قابل فى طريقه من أورشليم لأريحا رجلاً بين الحياة والموت، حين تعرّض له اللصوص، فأركبه على دابته وحمله إلى فندق بعد أن سكب من زيت كرمه ومزجه بالخمر الجيد وشفى جروحه.

وبعد توزيع ثروتها التهب قلبها بالحب الإلهى ووجدت ملجأ فى مرفأ الخلاص، الكنيسة العظيمة الجامعة الرسولية لتلك المدينة الملكية، واتبعت حرفياً وبذكاء التعاليم الإلهية الملهمة لرئيس الأساقفة المقدس لهذه الكنيسة المقدسة يوحنا، وأعطت له الكنيسة المقدسة مقلّدة فى ذلك العمل تلاميذ المسيح ومحبيه الذين فى بداية إعلان الخلاص أحضروا كل ما يملكونه، ووضعوه تحت أرجل الرسل وعشرة آلاف جنيه من الذهب، وعشرين ألفاً من الفضة، وكل ما تملكه من عقار موجود فى أقاليم تراس وغلاطية وكبدوكية وبريما وبيثينية بالإضافة إلى المنازل التى تملكها فى العاصمة والمنزل المقام بالقرب من أقدس كاتدرائية، والمسمى (بمنزل أوليمبياس)، ومنزل المدافع عن الحقوق العامة بالمرور بحمامات، وكل المبانى المجاورة له، وطاحونة ومنزلاً آخر كانت تمتلكه وعاشت فيه بالقرب من الحمامات العامة للقسطنطينية ومنزلاً آخر كان يدعى «منزل إيفاندر Evander» بالإضافة إلى ممتلكاتها فى الضواحى.

٦. ثم رسمت شماسة بإرادة الله لتلك الكاتدرائية المقدسة، وبنت ديراً فى الجهة الجنوبية لها، وكل المنازل الواقعة بالقرب من الكنيسة المقدسة، وكل المتاجر فى الناحية الجنوبية كانت

---

(٢٧) اخضع ثيودوسيوس ثورة ماكسيموس في سنة ٣٨٨ ولكنه لم يرجع إلي القسطنطينية حتي سنة ٣٩١.

ملكاً لها ، وأنشأت ممراً من الدير إلى المكان المؤدى لصحن الكنيسة المقدسة، وفى الربع الأول وضعت خادماتها ووصيفاتها اللاتى يبلغ عددهن خمسين وصيفة، وكلهن عشن حياة الطهارة والعذراوية، ثم (اليزانثيا Elisanthia) قريبتها التى شاهدت هذا العمل الصالح المسر لله، والذى أعطاها الله لها لتقوم به، كانت هى نفسها عذراء، فلكى تتجاوب مع هذه الغيرة الروحية المعطاة من الله، ودعت أشياء هذا العالم الزائف والخاوى الوفاض مع اختيها (مارتيريا Martyria (وبالاديا Palladia) وقد كانتا عذراوين أيضاً، ثم دخل الثلاثة مع الأخريات بعد أن سلّما مقدماً كل ممتلكاتهن لنفس الدير المقدس، وبالمثل أيضاً أوليمبيا بنت أخت أوليمبياس المذكورة آنفاً مع نساء أخريات كثيرات مع عائلات تنتمى إلى مجلس الشيوخ، واخترن مملكة السماء، واحتقرن الأشياء الدنيا التى تشدنا لأسفل حسب نعمة وصنيع الله العظيم الذى يريد الكل يخلصون، والذى يثبت المحبة الإلهية فيهن، لقد دخلن أيضاً مع أخريات حتى إن كل اللاتى تجمّعن معاً حسب نعمة الله فى تلك الحظيرة المقدسة للمسيح بلغ مائتان وخمسين كلهن قد تزين بتاج العذراوية ومارسن أسمى حياة تلائم قديسى وقديسات العلى.

٧. عندما حدثت هذه الأحداث بهذه الطريقة بمعونة الله ، أحضرت خادمة الله النبيلة أوليمبياس ، مرة أخرى إلى الكنيسة المقدسة المذكورة آنفا، عن طريق أقدس الآباء يوحنا فم الذهب كل ما تبقى لديها من الأملاك والعقارات الموجودة فى كل الأقاليم، وكل الفوائد التى تحصل عليها من الإدارة العامة للخبز، وعينها أيضاً شماسة للكنيسة المقدسة مع الثلاث الأخريات قريباتها (اليزانثيا ومارتيريا وبالاديا) حتى يجتمع شمل الأربعة معاً دون فراق فى أقدس دير أسسته هى.

٨. إن الإنسان ليصاب بالدهشة عند رؤية أشياء معينة فى هذا التجمع المقدس فى هذه المؤسسة الملائكية لأولئك النسوة القديسات، وتظهر عفتهن ومثابرتهن على عدم النوم بصورة تكاد تكون بلا انقطاع، ومداومتهن على تقديم الحمد والشكر لله، محبتهن التى هى «رباط الكمال» (كولوسى٣:١٤) وهدوءهن، لأنه لم يكن يسمح لأى واحد من الخارج سواء كان رجلاً أو امرأة أن يدخل عليهن، والاستثناء الوحيد من ذلك هو أقدس الآباء يوحنا فم الذهب الذى كان يزورهن بصفة دائمة ويقويهن بتعاليمه الحكيمة، وهكذا كن يتقوين كل يوم بتعليمه الملهم، والذى أضرم فى قلوبهن الحب الإلهى، حتى اتجه حبهن المقدس والرائع نحوه. وكانت أوليمبياس التقية المباركة -والتى كانت تحاكى فى هذه الأمور النسوة المصاحبات للمسيح اللاتى كن يخدمنه من أموالهن (لوقا٨:١-٣)- تعد للقديس يوحنا فم الذهب كل متطلباته اليومية، وترسلها للأسقف لأنه لم يكن هناك فاصل كبير بين المقر الأسقفى والدير سوى سور،

وكانت تفعل ذلك ليس فقط قبل قيام المؤامرات ضده، ولكن أيضاً بعد إقصائه عن منصبه، بل وحتى نهاية حياته كانت تزوده بكل النفقات هو والذين كانوا معه فى المنفى.

١٣. ليكن هذا الكلام معلوماً، فقد شعرت أنه من الضرورى، بل وفى غاية الأهمية لفائدة الكثيرين أن أعدد الفضائل المباركة لخادمة الله النبيلة (أوليمبياس) التى تعد ضمن القديسات. لأنه لا يوجد مكان أو دولة أو صحراء أو جزيرة أو مشهد بعيد لم ينل نصيباً من إحسانات هذه المرأة الشهيرة، بل إنها أمدت الكنائس بالذبائح الطقسية، وأعانت الأديرة والشحاذين والمساجين والمنفيين، بل إنها وزعت صدقاتها على كل العالم المعمور، بل إنها فى تقديمها للصدقات وتواضعها فاقت كل تصور لدرجة أنه لا يمكن أن نجد أعظم مما فعلته، لقدكانت حياتها خالية من الغرور، ومظهرها خالٍ من الإدعاء، وشخصيتها دون تكلف، ووجهها خالٍ من التجميل، وكانت ساهرة دون نوم، كان جسدها روحياً وعقلها لا تشوبه خيلاء، وذكاؤها لا يفسده غرور، تحمل قلباً هادئاً، وروحاً شفافة، ومحبة بلا حدود، وسخاء لانهائى ، ذات ملابس رثة، وضبط للنفس لا يضارع، واستقامة الفكر، ورجاء وطيد فى الله، وصدقات يصعب وصفها، لقدكانت زينة لكل المتواضعين، وبالإضافة لذلك كرمها أقدس الآباء يوحنا فم الذهب. لقد امتنعت عن أكل اللحم، وكانت تقضى معظم وقتها دون استحمام، وعندما تكون بحاجة لأخذ حمام فى مرضها (لأنها كانت تشكو دائماً من آلام فى معدتها) كانت تذهب إلى الحمام وهى مرتدية قميصاً خجلاً من نفسها كما يقولون.

١٤. وكانت تهتم بحاجات آباء كثيرين كما قلت، ومن بين هؤلاء وأكثرهم تطويباً يوحنا فم الذهب رئيس الأساقفة لتثبت أنها جديرة بمحبته، لأنه عندما تم التآمر عليه ونفى كما سبق أن أوضحنا، فإن هذه المرأة التقية كانت تقوم على رعايته دون كلل هو وكل الذين كانوا معه، وليس هذا بالشىء الهين على العاملين لأجل المسيح، والذين يتعبون ليل نهار لأجل المسيح، كما حيا بولس برسيس وتريفينيا وتريفوسا (رومية ١٦: ١٢). والتقية أوليمبياس المشابهة لصورة ابن الله، ربما استحقت نفس التحية.

وإنى أعلم أن (أوليمبياس) المكتملة الفضائل، والملهمة روحياً كانت أيضاً ترعى شئون (نكتاريوس Nectarius المبارك رئيس أساقفة القسطنطينية، والذى كان يتأثر دائماً بآرائها حتى فى شئون الكنيسة، وكانت أيضاً ترعى شئون (أمفيلوكيوس Amphilochius أسقف أيقونيا (واوبتيموس وبيتر وأغريغوريوس) أخو القديس باسيليوس، (وأبيفانس) رئيس أساقفة القسطنطينية فى قبرص، وكثيرين غيرهم من القديسين والآباء الملهمين، الذين عاشوا فى العاصمة. ولماذا يجب أن نقول إنها أيضاً وهبتهم أملاكاً فى الريف وأعطتهم مالاً؟

وعندما مات (أوبتيموس) المذكور آنفاً فى القسطنطينية فى هذا الوقت، قامت بإغلاق عينى هذا الرجل العظيم بيديها، ثم أنها خففت من آلام الذين يرثى لهم بلا حدود وبكل الوسائل، وأعالت (انتيوخس Antiochus (وأكاكيوس Acaciusi أسقف (بيرو Beroea) وسيفيريان Severian القديس أسقف (جابالا Gabala)، وبالاختصار كل الكهنة المقيمين هناك علاوة على عدد لا يحصى من الرهبان والراهبات.

١٥. وفى مقابل عطفها عليهم تحملت كثيراً من التجارب بسبب تصرفات شخص شرير بطبعه وغير مهذب أيضاً، وهى صامدة فى وجه كل المعاكسات مدافعة عن الحق الإلهى، وقد عاشت بلا لوم وبدموع غزيرة نهاراً وليلاً«خاضعة لكل ترتيب بشرى من أجل الرب» (١بط٢:١٣) مملوءة وقاراً منحنية أمام القديسين مكرمة الأساقفة، ومبجلة الشيوخ ومحترمة الكهنة ومرحبة بالرهبان ومهتمة بشئون العذارى، معتنية بحاجات الأرامل ومربية للأيتام، حامية للكبار ومعتنية بالضعفا، راحمة الخطاة، هادية للضالين، مشفقة على الجميع، شفوقة دون شح على الفقراء، منهمكة فى تعليم النساء غير المؤمنات وملقنة إياهن مبادىء المسيحية، مهتمة بكل أشياء الحياة الضرورية، مشهورة بالصلاح طوال حياتها، التى لن تنسى أبداً، وبعد أن أعتقت عبيد أهل بيتها من العبودية إلى الحرية أعلنت أنهن مستحقات لنفس الكرامة التى تستحقها هى تماماً، أو بالأحرى إذا كان لابد لنا من ذكر الصدق، أنهن قد ظهرن بمظهر أنبل من تلك السيدة فى ملبسهن، لأنها كانت ترتدى أرخص الثياب، وكانت الثياب البالية رداءً لشجاعتها البطولية، وقد نمت فى نفسها وداعة تفوقت بها على بساطة الأطفال أنفسهم، ولم يوجه إليها أى لوم حتى من جيرانها ، فقد كانت صورة للمسيح، ولكن حياتها القاسية قضيت فى توبة وفيضان متدفق من الدموع، فقد كان الأقرب أن ترى نبعاً يجف فى الخنادق من أن ترى عينيها وقد جفت مآقيها، تلك العينان الخفيضتان والمتطلعتان دائماً إلى المسيح. دع عنك البكاء لبعض الوقت، فماذا أقول بعد؟ إلى أى مدى أسمح لعقلى أن يعدّد المصاعب التى اجتازتها هذه النفس الملتهبة فى الخدمة والعامرة بالفضائل الروحية، قد لا نستطيع أن نعطيها حق قدرها من الوصف لهذه الأعمال، وألا تصدق أنى أتحدث بحذر ودون اندفاع عن أوليمبياس الثابتة فى الإيمان والتى كانت بالإضافة لذلك إناءً ثميناً مخصصاً بالتمام لملء الروح القدس؟

ولقد كان هناك أيضاً شاهد عيان شهد عن حياة تلك المرأة المباركة، وعهدها الملائكى، لأنه كان صديقها الروحى الحقيقى وقريباً لعائلتها ، وقام بنفسه بتوزيع الكثير من ممتلكاتها بناء على رغبتها.

إن تمجيد الفتيات اللاتى اخترن طريق البتولية كان يمثل هواية خاصة لجيروم، فقد كان أحياناً يكتب لبنات لا يعرفهن مهنئاً إياهن على قرارهن بترك العالم واعتزامهن التبتل، وفى إحدى تلك الرسائل (الرسالة ١٣٠) كتب جيروم لفتاة مراهقة تسمى (ديمترياس Demetrias هربت مع عائلتها إلى شمال أفريقيا وقت غزو القوط لروما فى سنة ٤١٠م. وبعدها بأربع سنوات يصور جيروم كيف استجمعت شجاعتها وتمثلت (بأجنس Agnes)[٢٨] لترفض الوقوع فى حبائل زواج كان قاب قوسين أو أدنى منها. وديمترياس هذه والتى كانت حفيدة حفيدة فالتونيا بيتيتا بروبا Faltonia Betitia Proba التى ألفت الأثر الأدبى المجموع من أشعار فرجيل والمنوه عنه فى الفصل الرابع، مثال آخر للروابط العائلية الوثيقة بين النساء المسيحيات الشهيرات فى ذلك العصر.

٥. [٢٩] عندما اقترب يوم زفافها وأعد مخدع الزوجية للزواج الوشيك، قال الناس عنها إن الليل كان لها سلوى، وقد حصّنت نفسها بمثل تلك العبارات:«ما الذى سوف يجرى لك يا ديمترياس؟ لماذا ترتعد فرائصك، وأنت تدافعين عن عفتك ؟ إن هذا الموقف يتطلب الصراحة والشجاعة! وإذا كنت تخافين هكذا فى وقت السلم، فما الذى تفعلينه لو كنت تواجهين الاستشهاد ؟ وإذا كنت لا تستطيعين احتمال صرخة غضب من عائلتك، فكيف كنت سوف تتحملين محاكمات المضطهدين؟ وإذا كانت أمثلة الرجال لا تحفزك فتشجعى ،واكتسبى ثقة من الشهيدة المباركة (أجنس) [٣٠] التى قهرت الشباب والطغيان، والتى باستشهادها كسبت وقوف الغازى المنتصر إلى جانب العفة، إنك لا تعلمين أيتها الفتاة البائسة أنك ببساطة لا تعرفين لمن تدينين بالفضل لعذراويتك! فمنذ مدة قصيرة مضت ارتعبت من البرابرة، وطلبت الحماية فى أحضان وعباءة أمك وجدتك، وقد توقعت أن تكونى أسيرة وأمرك ليس بيدك، لقد ارتعبت من النظرات الهمجية لأعدائك، ولقد شهدت اغتصاب العذارى التقيات وأنت فى ألم دفين. ومدينتك التى كانت ذات يوم عاصمة العالم كله أصبحت فقيرة للشعب الرومانى، وأنت منفية على الشاطىء الليبى: فهل ستقبلين رجلاً منفياً كزوج؟ فأى امرأة رفيعة المقام سوف تحتفى بك؟ وأى حاشية سوف تقودك إلى بيت العريس؟ سوف ينشدون لك الأغانى

---

(٢٨) انظر ما بعده.

(٢٩) Text: CSEL 56.179.

(٣٠) انظر الفصل الثاني

الخليعة[٣١] بلغة بيونية فظة[٣٢]. كفى مماطلة! «المحبة الكاملة تطرح الخوف إلى خارج» (١يوحنا٤:١٨) وخذى لنفسك ترس الإيمان ودرع البر وخوذة الخلاص (انظر أفسس ٦:١٦،١٤،١٧)، تقدمى للمعركة. إن الاحتفاظ بعذراويتك نوع من الاستشهاد فى حد ذاته، لماذا تخافين جدتك؟ ولماذا تخشين أمك؟ وربما هما نفساهما ترغبان فى شيء لم يصدقا أنك ترغبين فيه».

وعندما سلّحت نفسها، ألقت بكل الزينة الجسدية وكل ثيابها العالمية كعائق يعوقها عن مجاهرتها بالبتولية، وأعادت قلائدها الثمينة ولآلئها الغالية وجواهرها المتوهجة لتوضع فى علبها. ولبست سترة رخيصة الثمن، وعباءة أرخص منها وألقت بنفسها عند ركبتى جدتها بدموع كثيرة ومرثيات، مظهرة نفسها من تكون. ووقفت تلك المرأة المبجلة غير قادرة على الكلام لترى مثل هذه الملابس الغريبة على حفيدتها ووقفت أمها مذهولة من الفرح. لم تصدق السيدتان أن ما أرادتاه أن يكون حقيقياً قد حدث بالفعل، وتحشرجت الأصوات فى أفواههما، وتملكتهما مشاعر متباينة: بين الاحمرار والشحوب والشعور بالخوف والفرح.

٦. عند هذه النقطة يجب أن أتوقف عن الكلام، لا يجب عليَّ أن أحاول كتابة ما يقل التعبير عنه من شأنه. إن نبع عبقرية شيشرون سوف ينضب معينه، وآراء(ديموستينس De-mosthenes المنطلقة بسرعة وقوة سوف تثبت أنها بطيئة الحركة وكئيبة إذا ما قورنت بالتعبير عن عظمة هذا الفرح الغامر. فأى فكرة ترد إلى الذهن لا يمكن للحديث أن يعبر عنها بخصوص ما سمعنا عن حدوثه ذلك الوقت. لقد اندفعا يقبلان حفيدتهما وابنتهما بشغف وهما يبكيان بدموع الفرح الغزيرة، وأقاما الفتاة الساجدة بإمساكها من يدها واحتضان جسدها الذى يرتعش، وفى مجاهرتها بالبتولية تعرّفا على قرارهما وابتهجا بأن عذراء قد جعلت من عائلتها النبيلة أكثر نبلاً بعذراويتها. لقد اكتشفت كيف تجعل عائلتها بارزة ومشهورة، وكيف تقيم حطام مدينة روما. أيها الرب يسوع كم كان الفرح الذى غمر كل أفراد البيت! وفى الحال ظهرت عذارى كثيرات كما لو كن قد نبتن من غصن مثمر، واتبعن مثل سيدتهن وراعيتهن، وانتشرت المجاهرة بالبتولية فى كل البيوت، ولو كن أقل شأناً من ديمترياس فى الأمور الدنيوية فإن العفة هى مكافأتهن سواء بسواء.

ما أقوله ليس كافياً، فكل الكنائس فى أفريقيا ابتهجت بالنصر، إذا صح هذا التعبير، والخبر إذ تكرر سرده لم يصل للمدن فقط أو القرى، بل حتى إلى البدو فى خيامهم، لقد انتشر

---

(٣١) اللغة البيونية هي لغة أهل شمال أفريقيا.

(٣٢) أغاني عرس سوقية.

هذا الخبر حتى وصل إلى كل الجزر بين أفريقيا وإيطاليا، وعم الفرح كل الأرجا، واستبدلت إيطاليا ملابس الحداد واستعادت أسوارها المحطمة مجدها السابق، واعتقد أهلها أنه بالتجديد الكامل لطفلتهم بالتنشئة، فإن الله فى طريقه لافتقادهم لعطفه عليهم.

قد تظن أن قوة «القوط» قد زالت، وأن حشود الفارين من الجندية والعبيد قد ضربهم الله ببروقه ورعوده! لم يبتهج هكذا أهل روما عندما كسب (مارسيلوس Marcellus) أولاً معركته فى نولا بعد قتل آلاف الجنود الرومان فى(تربيا Turbia وثراسيمنوس Thrasyminud وكانا Cannae[٣٣] وحتى قبل ذلك كان هناك فرح أقل عندما علم النبلاء الذين تم افتداؤهم بالذهب، والذين هم أصل الجنس الرومانى، عندما علموا فى سجنهم أن جيوش الغال قد تمت الإطاحة بها [٣٤]. لقد انتشر نبأ (ديمترياس) مخترقاً الشواطىء الشرقية، وسمع خبر انتصار المجد المسيحى فى المدن الداخلية أيضاً، فأى عذراء مسيحية لم تفتخر أنها كانت فى معيتها؟ وأى أم لم تطوّب جوليانا قائلة لها «مباركة ثمرة بطنك»؟ أما فى أوساط غير المؤمنين قد يكون هناك شك فيما يختص بالمكافآت المستقبلية: ولكن أيتها العذراء لقد نلت أكثر مما قدمت، فلو أصبحت عروساً لرجل، فإن إقليماً واحداً فقط كان من الممكن أن يعرفك، ولكن كعذراء للمسيح، فقد سمع بك العالم كله.

إن الآباء المساكين غير الكاملين فى الإيمان المسيحى، ينذرون بناتهم للبتولية فى حالة ما إذا كن مشوهات أو ضعيفات فى بعض النواحى الجسمية، لأنهن لا يجدن زوجاً مناسباً لهن- كما يقول المثل- إن حبات المسبحة الزجاجية تساوى حبات اللؤلؤ[٣٥] ويوجد بلا شك أولئك الذين، لكى يظهروا أنهم أكثر تقوى فى عينى أنفسهم، يعطون للعذارى من بناتهم النذر اليسير من ممتلكاتهم، والذى لا يكاد يكفى حاجاتهن الأساسية، بينما يعطون لأبنائهم الآخرين من كلا الجنسين كل ما يمتلكون. وقد حدث منذ مدة وجيزة فى هذه المدينة أن كاهناً ترك ابنتيه اللتين قطعتا عهداً بالبتولية دون إعالة مالية بينما أمد أبناءه الآخرين بكل الوسائل المتاحة لعيش مترف حافل بالمسرات، والكثير من النساء اللاتى نذرن أنفسهن للبتولية، قد فعلن نفس الشئ، وهذا مما يؤسف له. هل هن أمثلة نادرة! ومع ذلك فكلما زاد عددهن كلما حلت البركة أكثر على أولئك النساء اللاتى لا يسرن فى ركاب الأغلبية.

---

(٣٣) النصر الروماني على هانيبال ٢١٦ م.

(٣٤) ٣٩٠. ق.م.

(٣٥) اقرأ ترتليانوس Tertullian «إلى الشهداء».

٧. وقيل أيضاً ما غبطه كل المسيحيين إن الشريكتين القديستين فى حمل نير المسيح[٣٦]. قد أعطياها كل شيء كان مخصصاً لزواجها لئلا يسيئان لعريسها السماوى، بل بالأحرى بعد أن تنال بائنة (دوطة) سخية تأتى لعريسها بكل ثروتها السابقة حتى لا يضيع منها شيء على الأشياء العالمية، بل يمكنها أن تنفق منها لإعالة خدام الله..

كل المختارات السابقة كتبها رجال كتبوا عن نساء لسن أفراداً من عائلاتهم. والمختارات الثلاثة التالية كتبها أخ وابنان لهؤلاء النساء. والفقرة الأولى من **غريغوريوس النيصى من كتاب حياة القديسة ماكرينا**، ويكتب غريغوريوس قائلاً: إنه كتب البحث لزميل من رجال الكنيسة أراد أن يعرف المزيد عن أخته الزائعة الصيت، والجدير بالملاحظة فى هذه القصة إصرار غريغوريوس على أن ماكرينا هى التى قادت أخيهما اللاهوتى الكبدوكى الشهير باسيليوس من قيصرية، على أن يترك مجد العالم ليعيش حياة التبتل المسيحى، وأن ماكرينا اشتركت فى نقاش (فلسفى)رفيع المستوى حتى وهى على فراش موتها، والمديح الذى كتبه غريغوريوس يرجع تاريخه لسنة ٣٨٠ م.

١.. [٣٧] إن شكل هذا العمل الأدبى المبنى على الطبيعة العامة لعنوانه يبدو أنه خطاب، ولكنه بإضافة أشياء إليه لا تدخل فى نطاق الخطابات، قد تحوّل إلى نثر مطول بشبه الكتاب، ولكنى أدافع عن نفسى بحجة أن الموضوع الذى طلبت منى الكتابة فيه أكبر من أن يضمه خطاب. على أية حال، إنك لم تنس اجتماعنا الذى تم عندما كنت على وشك أن أزور أورشليم ثانية وفاءً لنذر، حتى أرى آثار تجسد الرب لمدة وجيزة فى تلك الأماكن: وقابلتك صدفة بالقرب من مدينة أنطاكية، وقد تباحثنا مراراً وتكراراً فى كل أنواع المواضيع (لقد أثرت أمامى عدة موضوعات للنقاش لذا لم يكن اجتماعنا صامتاً) وكما هى العادة، وكما يحدث فى هذه المناقشات، تدفق سيل الحديث ليتناول ذكرى حياة شخص معين.

فقد كان موضوع حديثنا يتناول حياة امرأة، إذا كان من الممكن حقاً أن ندعوها «امرأة» لأنى لا أعرف إذا كان من الملائم أن أدعوها باسم مأخوذ من الطبيعة، فى حين أنها قد تفوقت على الطبيعة. ولم يتناول حديثنا مصداقية هذه القصة من كوننا قد سمعنا تقارير عنها من الآخرين، لأن عنصر الاختبار كان هادياً ومعلماً لنا، وتناولت كلماتنا القصة بتفصيلات دقيقة غير معتمدين إطلاقاً على شهادة شخص آخر من واقع ما سمعه.

---

(٣٦) أم ديمترياس Demetrias وجدتها.

(٣٧) Text: SC 178.136.

والعذراء التى تم الحديث عنها لم تكن أجنبية عن عائلتنا ، ولذا لم يتعين عليّ أن أعرف الأشياء العجائبية عنها من الآخرين. لقد ولدنا من نفس الأبوين، وقد كانت هى كما تقول الباكورة، أول ثمار رحم والدتنا. لقد اعتقدت أن تاريخ أعمالها الصالحة سوف يجلب فائدة خاصة لأن مثل هذه الحياة لا يجب أن تنسى، ولا يجب أن تندثر تحت تراب النسيان فى الزمن الآتى، ولا أن يطوى الصمت قمة الفضائل البشرية التى ارتقت إليها بالفلسفة. فاعتقدت أنه من الملائم أن أتجاوب مع رغبتك وأن أسرد قصتها بكلمات موجزة بقدر استطاعتى، وببساطة ودون تكلف.

٢. تدعى هذه العذراء (ماكرينا) وقد كانت هناك (ماكرينا) أخرى من قبلها فى عائلتنا ، أم والدى، والتى كانت فى وقت الاضطهاد تجاهر بإيمانها دفاعاً عن المسيح، ولهذا السبب سُميت الفتاة الصغيرة بهذا الاسم. ومع أن هذا هو الاسم الذى يطلقه عليها كل معارفها ، قد أطلق عليها اسم آخر فى السر، عن طريق نوع من الرؤى قبل أن تخرج إلى النور. لأن أمها كانت على درجة عالية من الشفافية حتى إنها كانت تهتدى بالإرادة الإلهية فى كل الأمور، وذلك باتباعها منهجاً فى الحياة لا تشوبه شائبة، حتى إنها لو تركت لاختيارها الحر لكانت قد اختارت عدم الزواج. ولكن حيث إنها كانت يتيمة الأبوين، وكانت فى ريعان الشباب فقد جذب جمالها الرجال طلباً ليدها ، وكان هناك احتمال أن تتعرض للمخاطر إذا لم ترتبط برجل طواعية، فقد تتعرض لمغامرة قد تسىء إليها ، لأن أولئك الذين جنّ جنونهم بجمالها كانوا يعدون الخطة لاختطافها ، ولهذا السبب اختارت رجلاً معروفاً ومشهوداً له باستقامة حياته، وهكذا اكتسبت وصياً على حياتها ، وعند أول حمل لها أصبحت أماً لماكرينا . وعندما حان الوقت لتتحرر من آلام الولادة، نامت وحلمت أنها تحمل بين يديها ما كان رحمها مايزال يحتضنه، وقد ظهر لها شخصاً أكثر بهاء ورونقاً من البشر، وهو ينادى على الطفلة التى كانت تحملها باسم «تكلا» لأنه كانت هناك عذراء بهذا الاسم من بين مشاهير العذارى[٣٨].

وبعد أن نادى عليها بهذا الاسم ثلاث مرات اختفى من أمام عينيها ، وخفف آلامها لدرجة أنها صحت من نومها ورأت أن الحلم قد أصبح حقيقة، ولذا كان تكلا اسمها السرى ، ولكن يبدو لى أن الشخص الذى ظهر لها خاطبها بهذا الاسم ليس لهداية أمها لاختيار الاسم، بل لينبىء عن حياة الطفلة، وليظهر التشابه فى اختيار نوعية حياتها بتماثل اسمها مع اسم تكلا الأخرى.

---

(٣٨) انظر الفصل الثاني

٣. وهكذا نمت الطفلة، ومع أنه كان لها مربيتها الخاصة، إلا أنها نشأت بين يدى والدتها، وبعد أن شبت عن طوق الطفولة تعلمت بسرعة ما يفهمه الأطفال وما لقنه لها والداها حسب استحسانهما، وحسبما يتفق مع بنت صغيرة. وكانت أمها شغوفة بتعليم البنت ليس وفق المنهج التعليمى للمدارس اللادينية، وحيث يتلقى الأطفال فى السنوات الأولى من الدراسة معظم ما يدرسونه عن طريق الشعراء، لأنها كانت تعتقد أنه من المخجل وغير الملائم أن تعلم طفلاً رقيقاً فى نعومة أظافره أشياء عن العواطف الجياشة سواء عن طريق نصوص المسرحيات التراجيدية، و التى تتناول موضوعات عن النساء وتلهم الشعراء بما يكتبون، أو المواقف غير الملائمة فى ملهاة، أو أسباب شرور تروى بطريقة تدنس فكر الطفل بقصص غير محتشمة عن النساء. ولكن كل ما ورد فى الكتاب المقدس الموحى به من الله من قصص يمكن اختصارها وتعديلها لتناسب السنوات الأولى للطفل، فذلك يصلح مادة تعليمية، وبخاصة حكمة سليمان وأى شيء يقود لحياة أخلاقية رفيعة المستوى. فلم تكن تجهل أى نقطة تتعلق بإنشاد سفر المزامير، فكانت تقرأ كل جزء فى سفر المزامير فى وقته الملائم له، عند الاستيقاظ من النوم أو عند الانهماك فى العمل، أو عند الراحة أو عندما كانت تأكل، أو عندما كانت تنهض من مائدة الطعام، أو عندما تذهب للفراش، أو عندما تقوم للصلاة، دائماً كان سفر المزامير رفيقاً لها كرفيق رحلة السفر دون أن تهمله لحظة من الزمان.

٤.. وبعد أن تكون قد أدت هذه الممارسات وما شابهها، وبعد أن تكون قد تدربت على أشغال الإبرة (التريكو) ووصلت لسن الثانية عشرة التى تتفتح فيها زهرة شبابها، فما يستحق الدهشة هنا هو أنه مع أن جمال هذه البنت الصغيرة كان مخفياً عن الأنظار، إلا أنه كان يجذب الانتباه، فلم يكن هناك أى شيء فى البلد يشابه روعة جمالها، أو يمكن مقارنته بشخصيتها الرشيقة حتى إن أيدى الرسامين لم تستطع أن ترسم شيئاً يضاهى هذا الجمال. فالمهارة التى تحتال لكل الأمور،وتجرؤ على تنفيذ أكبر المشروعات حتى إنه عن طريق المحاكاة يمكن أن تطبع فى الذهن ثانية أشكال العناصر نفسها، لم تكن هذه المرة قوية بالدرجة الكافية لتنسخ بدقة وبراعة شكلها. وبسبب هذا الجمال، أحاط بوالديها حشد كبير من الخطّاب الذين يرغبون فى الزواج منها. وأبوها (كان رجلاً عاقلاً ودقيقاً فى الحكم على الناس الأخيار)، اختار من بين الباقين شاباً معيناً مشهوراً فى العائلة، ومعروفاً باعتداله، وقد انتهى للتو من دراسته، وقرر أبوها أن يخطب ابنته له عندما تبلغ السن، وفى نفس الوقت كان الشاب واعداً بالآمال، كهدية زواج مرضية، وقدم لوالد الفتاة سمعته الطيبة كخطيب مفوّه مظهراً قوته الخطابية فى المحاكمات دفاعاً عن ضحايا الظلم، ولكن الحسد أطاح بتلك الآمال الواعدة

بانتزاعه من الحياة فى ريعان شبابه بصورة مأساوية.

٥. ولم تكن العذراء تجهل ما كان يضمره أبوها، ولكن عندما أطيح بقرار والدها نتيجة لموت الشاب، دعت قرار والدها زواجاً كما لو كان قد تم بالفعل واعتقدت أنه من الصواب أن تظل بلا زواج بقية حياتها، وكان قرارها أرسخ مما يعتقد لمن هن فى مثل سنها، تكلم معها والداها مراراً وتكراراً بخصوص زواجها، لأن رجالاً كثيرين أرادوا الزواج منها نظراً لجمالها الذى تشتهر به، وكانت تقول دائماً إنه من غير الملائم أو من الأمور غير الشرعية ألا تقنع مرة وإلى الأبد بزواج قرره والدها لها، وأن تجبر على البحث عن شخص آخر، لأن الزواج بالطبيعة واحد فقط تماماً كالميلاد والوفاة، وأكدت بثقة أن الرجل الذى ارتبط بها بحكم قرار والدها ليس ميتاً، ولكنه حىٌ فى الله بسبب رجاء القيامة، وقالت بأنه غائب بعيداً ولكنه ليس ميتاً واعتقدت أنه من غير الطبيعى ألا تخلص لزوج بعيد فى رحلة.

بمثل هذه الأقوال كانت تواجه أولئك الذين حاولوا إقناعها، وقررت أنه يوجد إجراء وقائى لحماية قرارها: ألا تنفصل أبداً عن أمها حتى ولو للحظة من الزمن، وكانت أمها دائماً تقول لها إنها كانت حبلى ببقية أطفالها وحملتهم لحين الوقت المعتاد لولادتهم، ولكن بالنسبة لهذه البنت فهى تحملها بصورة مستمرة محتضنة إياها فى رحمها -إذا جاز هذا القول- ولم تكن المعيشة مع ابنتها عبئاً عليها أو بلا فائدة للأم لأن العناية التى تلقتها من ابنتها قد حلت محل خدمة العديد من الخادمات لها، وكان هناك تبادل منافع بينهما بحيث تكمل كل واحدة منهما الأخرى، فالأم كانت تعتنى بروح الشابة، والابنة كانت تعتنى بجسد أمها محققة لها كل أعوازها. فكثيراً ما كانت تصنع الخبز بيديها لأمها، ولم يكن هذا عملها الأساسى، فبعد أن كانت تنتهى من أداء الخدمات الطقسية، كانت ترى أنه من المناسب لطريقتها فى الحياة أن تستغل ما تبقى من وقتها، وفى حماسها لهذا العمل، كانت تزود أمها بالطعام بمجهوداتها الخاصة، وليس هذا فقط بل كانت شريكة لأمها فى الاستجابة لكل الاهتمامات الملحّة لأمها، لأنه كان لأمها أربعة أبناء وخمس بنات، وكانت تدفع الضرائب لثلاثة حكام عن ملكيتها الموزعة على الكثير من الولايات، ولهذا السبب كانت أمها موزعة الاهتمامات لأن الأب كان قد انتقل من هذه الحياة، وكانت (ماكرينا) شريكة فى تحمل أعباء أمها فى كل هذه الأشياء تقاسمها اهتماماتها، وتخفف من آلامها وهكذا بتنشئة أمها كانت حياتها هى بلا لوم تحت عينى أمها التى كانت دائماً ترشدها وترعاها، وكانت هى أيضاً تعطى لأمها توجيهاً نحو نفس الغرض، وأعنى به الفلسفة، وذلك بأسلوبها فى الحياة، لكى تجذبها بالتدريج نحو أسلوب الحياة البسيط و غير المادى.

٦. بعد أن دبرت الأم حاجات أخوات ((ماكرينا)) بطريقة لائقة طبقاً لما كان يبدو أنه

مناسب لكل واحدة، فإن باسيليوس العظيم[٣٩] أخو المرأة المذكورة سابقاً عاد من المدرسة التى كان يتدرب فيها على فن الخطابة لمدة طويلة. وأدركت أنه كان مزهواً بخيلاء بسبب قدراته البلاغية، وقد احتقر كل المحيطين به، ممجداً ذاته مضفياً عليها أهمية تفوق كل الناس البارزين فى المنطقة، ومع ذلك فقد جذبت انتباهه بسرعة إلى الفلسفة حتى إنه نبذ الشهرة العالمية. وعبر عن احتقاره لأن يكون موضع زهو بسبب براعته فى فن الخطابة، واتجه نحو الحياة الشاقة للعمل اليدوى ليعد نفسه عن طريق الفقر الكامل، والحياة التى بلا قيود متجهاً نحو الفضيلة. ولكن حياته وممارساته الأخيرة، والتى اشتهر بها تحت الشمس والتى غطت على كل أمجاد أولئك المشهورين بسبب فضائلهم تتطلب كتاباً كبيراً ووقتاً أطول . فدع حديثى يقتصر على الموضوع الأصلى.

٧. حيث إنه قد انتزع منهما كل سبب للحياة العالمية، فقد حرضت أمها أن تترك طريقتها المعتادة فى الحياة، وأن تكف عن قضاء وقت فراغها فيما لا يفيد ، وأن تهجر خدمات الأشخاص الذين تحت إمرتها، والتى اعتادت منذ فترة طويلة أن تؤديها لهم، وأن يصبح فكرها كفكر الجماهير وأن تندمج فى نفس طريقة حياة العذارى اللاتى معها، واللاتى تحولن من عبيد وإماء إلى أخوات مساويات لها..

وبعد موت أم (ماكرينا) استمرت فى حياة التبتل بصحبة العذارى معها، وعندما كان (غريغوريوس) فى مهمة كنسية زار أخته القريبة منه فى أنيسا Annisa، وكانت رئيسة الدير فى هذا الوقت ولكنها كانت قريبة من الموت.

١٥. قادنى رجل معين إلى البيت الذى كانت فيه (ماكرينا) العظيمة، وفتحت الباب، ودخلت ذلك المكان المقدس. لقد كانت متأثرة إلى حد كبير بالمرض، ومع ذلك لم تكن تستريح على سرير أو مرتبة بل على الأرض، على لوح خشبى مغطى بالمسوح ولوح آخر مهمته أن يقوم مقام وسادة لترفع رأسها، ولتسند جسدها فى وضع مائل، وهكذا يمكنها أن ترفع رقبتها.

١٧. وعندما رأتنى أقترب من الباب رفعت نفسها على كوعها، دون أن تستطيع الاقتراب منى لأن الحمّى كانت قد استنفدت قوتها، ولكنها ثبتت يديها على الأرض، ومدت جسدها بعيداً عن حاشية القش بقدر ما يمكنها وكرّمتنى بانحناءة، فجريت نحوها ورفعت رأسها بيدىّ بعد أن كانت منحنية نحو الأرض، وجعلتها فى وضع مستقيم ثانية وأعدتها إلى وضعها

---

(٣٩) أسقف قيصرية فيما بعد.

المعتاد، ومدت يدها لله وقالت «لقد أتممت صنيعك معى يا الله، ولم تحرمنى من أمنيتى لأنك دفعت خادمك ليزور أمتك» ولكيلا تجلب الحزن لنفسى حاولت أن تخفف من وطأة أنّاتها، وتخفى ارتباك تنفسها، وبكل وسيلة حاولت تصنّع الابتسام. وقدمت موضوعات تشغل ذهنها، وعن طريق أسئلتها أعطتنى الفرصة لأتكلم، لقد تطرق الحديث لذكرى باسيليوس العظيم[٤٠] وخارت قواى، فأطرقت برأسى وأغرورقت عيناى بالدموع، ولكنها لم تجعل عواطفنا تؤثر عليها، وجعلت من ذكرى القديس نقطة انطلاق نحو الفلسفة العليا، واستمرت فى سرد مناقشات كهذه بالتفصيل متحدثة عن الظواهر الطبيعية، ومعدّدة الخطط الإلهية من وراء الأحداث المفجعة، كاشفة النقاب عن الحياة المستقبلية، كما لو كانت ممتلئة من الروح القدس. وكنتيجة لذلك فقد ارتفعت روحى خارج نطاق الطبيعة البشرية إلا قليلاً بفضل كلماتها. وبإرشاد حديثها، استطعت أن أدخل المقادس السماوية.

ويذكر (غريغوريوس) بالتفصيل موت (ماكرينا) وجنازتها ودفنها، وينهى قصته ببعض القصص المعجزية.

٣٩. لا أعتقد أنه من المقنع أن أضيف لحديثى كل الأشياء الأخرى من قبيل ما سمعنا عنها من أولئك الذين عاشوا معها وعرفوا كل التفاصيل عنها. لأن معظم الناس يحكمون فى صدق ما يخبرون به بمقياس خبراتهم الشخصية، أما ما يفوق قدرة المستمع فإنه يهاجمه بالطعن فى صحته باعتباره شيئاً مخالفاً للحقيقة، لذلك فإنى سوف لا أذكر تلك الحادثة التى يصعب تصديقها والمتعلقة بالزراعة: ففى وقت المجاعة لم ينقص القمح الذى تم توزيع كميات منه وفقاً للحاجة، بل ظل بنفس المقدار قبل توزيعه لسد حاجة أولئك الذين طلبوه. وهناك أحداث أخرى ربما يصعب تصديقها أكثر من ذلك، كحوادث شفاء الأمراض وإخراج الشياطين، ونبوات حقيقية عن أحداث سوف تتم، وكلها آمن بها أولئك الذين عرفوا هذه الأشياء بالتفصيل، حتى وإن كانت بعيدة عن التصديق فإنها تبدو خارج نطاق ما يمكن أن يقبله الجسديون، فهم لا يعرفون أنه «بالنسبة إلى الإيمان» (رومية١٢:٦). تعطى مواهب روحية قليلة لذوى الإيمان القليل، وعظيمة للمقتدرين فى الإيمان، وهكذا لئلا أعثر غير المؤمنين الذين لا يؤمنون بمواهب الله، أمتنع لهذا السبب عن ذكر المعجزات الكبرى التالية، وأعتقد أن ما قيل يكفى لأنهى قصتى عن (ماكرينا).

فى الفقرة التالية يكتب فم الذهب بإيجاز عن حياة والدته (انثوزا Anthusa) وبخاصة عن

(٤٠) مات باسيليوس أسقف قيصرية في سنة ٣٧٩ ق.م

الصعاب التى واجهتها، عندما ترملت فى سن العشرين ومعها طفلان، وعندما بلغ فم الذهب سن الشباب أثر عليه أفضل صديق له وهو (باسيليوس) ليترك منزل أمه ويشاركه الإقامة معه، وكان فم الذهب على استعداد لتنفيذ اقتراح صديقه عندما توسلت إليه أمه ألا يتركها كما يذكر **فم الذهب ذلك فى الفقرة التالية من كتابه «عن الكهنوت»**، وقد أجهضت الخطة على أية حال بترقية (باسيليوس) الفجائى لمنصب الكهنوت.

-١،٥. [٤١] ولكن توسلات أمى المستمرة منعتنى من إسداء هذا الصنيع (لباسيليوس) أو قل منعتنى من تلقى هذا المعروف من بين يديه، لأنه عندما علمت أمى بهذه الخطة أخذتنى من يدىّ، وقادتنى إلى المكان المخصص لإقامتها فى المنزل وجلست إلى جوارى على السرير الذى حملتنى عليه، وانسكبت الدموع الغزيرة من عينيها، وقالت كلمات أكثر إثارة للحزن من الدموع، وهى تندب حظها بهذه الطريقة: «يا ابنى، لم يسمح لى بالاستمتاع بالحياة مع والدك مدة طويلة، لأنه مات أثناء آلام المخاض لولادتك، وبذلك فإنك أصبحت يتيماً قبل الأوان، وأنا أصبحت أرملة قبل الأوان لأعرف أحداث الترمل المرعبة والتى لا يقدرها حق قدرها سوى من اختبرها. لأن المرأة التى تتعرض لذلك تواجه وحدها العاصفة والأمواج الصاخبة عندما تترك منزل أبيها، وهى لا تعرف شيئاً فى إدارة شئونها المادية، ولكنها تجد نفسها- فجأة- فى مواجهة حزن طاغ، وعليها بالضرورة تحمل الهموم التى لا تستطيع مواجهتها كجنس أضعف، وفى هذه السن الصغيرة، وعليها كما أعتقد، أن تعير الالتفات إلى كسل الخدم وأن ترقب بعناية أفعالهم الشريرة، وأن تتحمل إساءات الذين يجمعون الضرائب العامة، وقسوة هذه الضرائب نفسها. فإن يرحل رجل تاركاً وراءه طفلاً، تحظى الأم بالرعاية، ومع ذلك تفلت من إنفاق الكثير من المال وتفلت من المخاوف. أما الابن فعلى النقيض من ذلك، سوف يملأها بمخاوف عديدة كل يوم مع الكثير من القلق، فقد عملت إقراراً بالنفقات التى كان علىّ أن أتحملها للسلع اللازمة إذا أردت أن أربى ابنى كما يليق برجل حر، ومع ذلك فلم تقنعنى أى صعوبة من هذه الصعاب أن أرتبط برجل آخر فى زواج ثان أو أن أحضر عريساً آخر إلى بيت أبى، وظللت أواجه التوتر والاضطراب، ولم أهرب من جحيم الترمل، وكان عونى فى ذلك النعمة النازلة من فوق، ومع ذلك فقد شعرت براحة كبرى وسط هذه الأهوال عند التطلع الدائم فى وجهك، وأن أحتفظ لنفسى بصورة حية من الراحل، صورة تشبهه تماماً. وهى عزيزة لدىّ.

«وهكذا إذ كنت لما تزال طفلاً، ولم تتعلم الكلام بعد، عندما كنت فى سن يكون فيه الأطفال مصدر فرح غامر لوالديهم، قد منحتنى تعزية ليست بقليلة، لقد تحملت ترملى بنبل،

(٤١) Text: PG 48. 624

ولا يمكن لك أن تلومني بأني قللت ميراثك، وهو شيء أعلم أن كثيرين لكونهم أيتام لسوء الحظ قد اختبروه، بل أني احتفظت بإرثك كاملاً غير منقوص ولم يمس، وتحملت كل النفقات الضرورية لحصولك على سمعة طيبة دون أن آخذ شيئاً، قد دفعت لك من مالى الخاص، مالى الذى أخذته من بيتى، لا تتصور إنى أقول هذه الأشياء لتوبيخك! وكرد على كل هذه الأشياء أطلب جميلاً واحداً منك، ألا تجعلنى أتحمل عذاب الترمل مرة أخرى، ولا تشعل نيران الحزن من جديد بعد أن هدأت: انتظر موتى. ربما أرحل بعد وقت قصير».

- آخر المختارات حديث **أوغسطينوس** تعبيراً عن الاحترام والتقدير لأمه (مونيكا) الموجود فى كتابه **(الاعترافات)**، وطبيعة هذا الكتاب، هى إعلان أوغسطينوس لنضجه النفسى والروحى الغنى، تجعل منه مصدراً خصباً لإدراك الرابطة العاطفية التى تربط الأم بابنها، فنحن نعرف أن أم مونيكا كانت مسيحية ومع ذلك فقد تزوجت مونيكا من وثنى هو(باتريكيوس Patricius والذى آمن فقط. عندما اقترب من حافة الموت. ويصف أوغسطينوس هنا المصائب والويلات التى اجتازت فيها مونيكا كزوجة، والذى لا يبدو أن معاملة والده لأمه كانت غير عادية. لقد قضت مونيكا سنوات طويلة من حياتها تعانى وتحزن لانحراف ابنها عن جادة الصواب دينياً وجنسياً[٤٢] حتى وصل أخيراً بسلام إلى حظيرة الكنيسة الجامعة، والحادث الغامض الذى اجتاز فيه أوغسطينوس وأمه فى (أوستيا Ostia قبل وفاتها بوقت قصير من أهم أجزاء «الاعترافات». وإخلاص (أوغسطينوس) (لمونيكا) واضح بصورة خاصة فى السطور الختامية من هذه الفقرة، والذى فيها يرجو من قرائه أن يصلّوا لأمه فى السماء، والكتاب عبارة عن اعتراف أو صلاة لله الذى يخاطبه بالقول «أنت».

أولا: ١١[٤٣] «فى الواقع لقد سمعت حين كنت صغيراً عن الحياة الأبدية التى وعدنا بها عن طريق اتضاع وتنازل الرب، الله الذى أخضع ذاته لأجلنا، وقد ختمت من قبل بعلامة الصليب، وقد صلحت بملحه من رحم أمى التى وضعت رجاءها العظيم فيك. وقد رأيت يا رب كيف عندما كنت ولداً أنى أصبت بالحمّى فجأة بسبب آلام المعدة، وكنت على وشك الموت، وأنت كنت يا رب حافظاً لى، ورأيت يا الله مقدار إيمانى وإثارة روحى، وأنا أطلب معمودية مسيحك يا إلهى وربى من أمى التقية، ومن أمنا جميعاً كنيستك. وكانت أمى الجسدية منزعجة لأنها كانت تفكر بحب فى خلاصى الأبدى، بقلب نقى فى إيمانك، ولو لم أرجع لكانت دبرت بسرعة أمر تلقينى مبادىء المسيحية، وأنزلتنى فى ماء المعمودية معترفاً بك يا

(٤٢) احتفظ أوغسطينوس بخليلة لمدة ١٥ سنة وكان مانوياً لمدة ٩ أو ١٠ سنوات.

(٤٣) Text: CSEL 33.15

رب يسوع المسيح لمغفرة الخطايا. وهكذا فإن تطهيرى تأخر، كما لو كان ضرورياً أنه إذا كان مقدراً لى أن أعيش سوف أظل غير طاهر، لأنه من الواضح أنه بعد المعمودية يكون ذنب عدم التطهير من الخطايا أكثر خطورة وأعظم.

وهكذا آمنت كما فعلت أمي وكل أهل البيت باستثناء والدى الذى كان يعوق ما تمارسه أمي من سلطة بحكم تقواها، حتى لا أؤمن بالمسيح كما كان هو أيضاً غير مؤمن به، وقد أنهكت أمي نفسها حتى تكون أنت أبى وإلهى بدلاً من أبى، وقد ساعدتها فى ذلك حتى تتغلب على زوجها، والذى كانت خاضعة له كالرأس، وبذلك تكون أيضاً مخضعة نفسها لك ولا سيما أنك أمرت بذلك..».

(أوغسطينوس فى ميلانو الآن)

سادساً،١. «أنت رجائى منذ صباى (مزمور ٧١:٥) أين أنت بالنسبة لى، أين أستطيع أن أجدك؟ لأنك بلا شك قد صنعتنى وميزتنى على الدواب ذات الأربع، وطيور السماء لأنك جعلتنى أحكم منها. ومع ذلك سرت فى الظلام وفى أماكن زلقة ، وفتشت عنك خارج نفسى ولم أجدك فى قلبى، فذهبت إلى أعماق البحر، وفقدت ثقتى ويأست من الوصول إلى الحقيقة.

وقد سبق أن أتت إلىَّ أمى، قوية فى تقواها تتبعنى فى البر والبحر، وتستودعنى إياك لحمايتى من الأخطار، لأنه أثناء مخاطر البحر شدت من أزر البحارة أنفسهم (والذين يتجه إليهم المسافرون قليلو الخبرة فى البحر عادة طلباً للمشورة والتشجيع عندما يشتد بهم القلق) واعدة إياهم برحلة سفر آمنة، وبسلامة الوصول لأنك أنت وعدتها بذلك فى رؤيا.

ولقد وجدتنى فى خطر أكبر منذ يأسى من البحث عن الحقيقة، ومع ذلك فعندما أعلنت أنى لم أعد «مانوياً»* بالرغم من أنى لم أصبح بعد مسيحياً، لم تقفز فرحاً كما لو كانت قد سمعت شيئاً غير متوقع، لأنه حتى ذلك الوقت كانت متأكدة من بؤسى، والذى رثتنى عليه كما لو كنت ميتاً، ولكنى كنت على وشك أن أعود للحياة، ولقد حملتنى فى أفكارها كما لو كنت محمولاً على نعش، وحتى تقول لابن الأرملة «أيها الشاب لك أقول قم»، فيقوم ويبدأ فى الحديث فتسلمه لأمه (لوقا٧:١٢-١٥) وهكذا فقلبها لم يبتهج بفرح غامر عندما سمعت عما قد تم الجزء الأكبر منه ذلك الذى توسلت إليك بخصوصه، لكى تفعله، وأنه بالرغم من أنى لم أصل بعد للحقيقة، إلا أنه قد تم انتزاعى من هاوية الضلال، نعم بالحقيقة فقد كانت متأكدة أنك أنت الذى وعدت بالكل، سوف تحقق الجزء الباقى. وقد ردت علىَّ بهدوء وبقلب

(*) هرطقة وانحراف كانا موجودين في ذلك الحين.

ممتلىء بالثقة. إنها كانت تثق فى المسيح، إنها قبل أن تترك هذه الحياة فإنها سوف تراني مؤمناً. هذا هو على الأقل ما قالته، ومع ذلك فأنت يا نبع الرحمة كانت تسكب أمامك صلوات متكررة بدموع لتسرع بمعونتك، وتنير ظلمتى وأسرعت باجتهاد إلى الكنيسة وعلّقت كلمات (أمبروز)[٤٤]. مصلية من أجل سيل الماء الذى ينبع إلى حياة أبدية، ثم إنها كانت تحب ذلك الرجل كما لو كان ملاك الله، لأنها أدركت أنه بواسطته قد اهتديت حتى هذه اللحظة إلى الحالة التى أنا عليها الآن، حالة عدم اليقين، وأن التأرجح الذى أنا عليه سوف يؤدى بى بالتأكيد إلى الانتقال من المرض إلى الصحة، وفى نفس الوقت أتجاوز مرحلة الخطر من النوبة التى هاجمتنى ويسميها الأطباء (الأزمة)».

سادساً،١٣. حدث نشاط كبير فيما يختص بأمر زواجى، فقد خطبت ودّ فتاة وأخذت وعداً واهتمت أمى بالموضوع، فقد اعتقدت أنه عندما أتزوج فإن المعمودية المانحة للصحة يمكن أن تطهرنى، المعمودية التى كانت تبتهج يومياً بأنى كنت أعد لها، وقد أدركت أن نذورها ومواعيدك كانت تتم فى إيمانى، وفى ذلك الوقت عن طريق توسلاتى ورغبتها طلبنا منك يومياً وبصرخات قوية من القلب أن تريها فى رؤية شيئاً عن زواجى المستقبلى، ولكنك لم تفعل. لقد رأت أشياء وهمية زائفة كما تتوهم أى روح بشرية برؤية أشياء تكون متعلقة بها، وأخبرتنى عنها ليست بالثقة التى كانت تشعر بها عادة عندما تريها شيئاً، بل أنها قد قللت من شأن هذه الأشياء التى رأتها لأنها قالت إنها تستطيع أن تعرف الفرق بالرغم من أنها لا تستطيع التعبير عن ذلك بالكلمات بين رؤياك والأحلام النابعة من عقلها الباطن، ولا أعرف كيف يكون ذلك، ومع ذلك فقد تم البحث فى هذا الأمر، وطلبت يد فتاة، وكان سنها يقل سنتين عن السن المسموح به للزواج، ولكن لأنها كانت مُرضية فقد قررت أن أنتظرها.

(أوغسطينوس بعد اختبار إيمانه هجر كل خطط الزواج)

تاسعاً،٨. «الله مسكن المتوحدين فى بيت» (مزمور٦٨:٦) قد جاء (إيفوديوس Evodius أيضاً ليبقى فى صحبتنا، لقد كان شاباً من مدينتنا، والذى كان يعمل كوكيل للشئون العامة، وقد سلم حياته لك قبلى، وعمِّد، وبعد أن ترك الخدمة العالمية أعد نفسه لخدمتك، لقد كنا معاً، وكنا على وشك أن نثبت فى التعليم المقدس، وحيث إننا كنا نبحث عن مكان تكون فيه خدماتنا أكثر فائدة لك، كنا سنرجع معاً إلى أفريقيا، وعندما كنا فى (تبرتيـــن أوستيـــا Tibertine Ostia) ماتت أمى، وهنا أقتصر على ذكر النذر اليسير، حيث أنى فى عجلة. اقبل

(٤٤) أسقف ميلانو ٣٧٤- ٣٩٧ م.

اعترافاتى، وتعبيرات الشكر لله على النعم التى لا تعد ولا تحصى والتى أتمتع بها فى صمت، ولكنى لن أكف عن ذكر كل ما يتعلق بأمتك، التى ولدتنى بالجسد حتى أولد فى هذا النور المؤقت، ولكنها ولدتنى فى قلبها حتى أولد فى نور دائم، سوف لا أتحدث عن عطاياها بل عن عطاياك لها، لأنها لم تخلق نفسها أو تعلم نفسها، فأنت قد خلقتها فلا أبوها ولا أمها عرفا أية شخصية سوف ينجبان، لقد علمتها عصا مسيحك وربيتها فى خوفك، وإرشاد ابنك الوحيد فى بيت مؤمن كان عضواً صالحاً فى كنيستك، ومع ذلك فهى لم تنسب تدريبها وتعليمها كثيراً لاجتهاد أمها لكنها نسبته لامرأة كانت خادمة تحمل أباها على يديها عندما كان طفلاً، كما يحمل الأطفال عادة على ظهور الفتيات كبار السن، وبفضل هذه العلاقة وبسبب سنها وشخصيتها الرائعة، قد نالت التكريم الذى تستحقه من قبل أصحاب هذا البيت المسيحى، حيث كان قد أوكل إليها رعاية بنات صاحب البيت، وقد قامت بأداء هذا العمل بكل مواظبة واجتهاد، لقد كانت قوية وحازمة فى انضباطهن بحزم مقدس، عندما كانت الضرورة تدعو لذلك لتعليمهن بحكمة وتعقل. فبالإضافة لتلك الساعات التى يتناولن فيها طعامهن باعتدال على مائدة الطعام فى المنزل، لم تكن تسمح لهن بشرب الماء حتى ولو كن يشعرن بظمأ شديد، وبذلك كانت تحتاط مقدماً ضد عادة سيئة، وكانت تقول بكلمات رصينة: «إنكن تشربن الماء فقط، لأنه ليس فى مقدوركن أن تشربن الخمر، ولكن عندما تتزوجن وتصبحن المتحكمات فى المخازن والبدروم سوف تحتقرن الماء، وتستمر عادة الشرب»، بهذه الطريقة التعليمية وقوة التحكم كبحت جماح الشراهة فى سنواتهن الأولى، وحولت ظمأ هؤلاء البنات إلى فضيلة الاعتدال حتى إن الشىء الذى لا يكون ملائماً لا يصبح شيئاً مرغوباً ومسراً. ومع ذلك فقد زحفت إليها كما قالت أمتك لابنها، عادة ذميمة وهى شرب الخمر، لأنه عندما يطلب منها والداها أن تحضر لهما الخمر من قارورة الخمر، كانت تمسك بالكأس تحت الفتحة، وقبل أن تصب الخمر غير المخففة بالماء إلى الدورق كانت تبتلع قليلاً منه بأطراف شفتيها، لأنها لم تكن ترضى بتناول ما هو أكثر من ذلك، ولم تكن تفعل ذلك رغبة فى أن تسكر بل بسبب النشاط الزائد لمن هم فى سنها، والذى يتمثل فى حركات لهو كانت تقمع دائماً من قبل سلطة الكبار، وقد أضيفت لتلك الكميات القليلة كميات قليلة أيضاً حيث أن «من يحتقر القليل سوف يسقط بالتدريج (سفر الحكمة ١٩:١)، فقد سقطت فى عادة الإدمان لدرجة أنها الآن تشرب كأسها كله حتى الثمالة وهو ملآن تقريباً. فأين إذن عمل المرأة الحكيمة وحزمها القوى؟ ألا يمكن أن يفلح شىء ما فى القضاء على رغبة دفينة ما لم نأخذ علاجك يا رب؟ فبينما كان الأب والأم والمربيات غائبات، كنت أنت حاضراً، أنت الذى خلقت وأنت الذى

تدعو وأنت الذى تعمل الصالح لصحة نفوسنا عن طريق أولئك الذين يشرفون علينا. فما الذى فعلته يا إلهى؟ كيف شفيتها؟ وكيف أرجعت لها صحتها؟ ألم تجلب من نفس امرأة أخرى توبيخاً عنيفاً قاسياً كمبضع الجراح، من بين عطاياك الخفية، وبضربة واحدة قطعت دابر الفساد؟ لأن الخادمة التى كانت معتادة على الذهاب إلى الدورق دار بينها وبين سيدتها الصغيرة حوار، عندما كانا بمفردهما، وردّت عليها تلك الفعلة الشريرة بأن دعتها بإهانة بالغة بأنها سكيرة صغيرة. وإذ وخزت بهذا الكلام أدركت خطأها، وأدانته فوراً، ثم تخلت عنه. فكما يضلنا الأصدقاء بتملقهم، فالأعداء دائماً يصححون أخطاءنا باتهاماتهم، وأنت لا ترد عليهم ما تفعله بواسطتهم، بل ما كانوا ينوونه فعلاً، ولأن الخادمة كانت غاضبة أرادت أن توبخ سيدتها الصغيرة لا أن تحسن إليها. ولذلك فقد تفوهت بالكلمات فى السر لأن وقت مكان المشاجرة قد تصادف أن أوجدهما بمفردهما، أو ربما لأنها هى نفسها قد تقع فى مأزق لأنها اتهمتها بعد مرور وقت طويل، ولكنك أنت يا رب المتحكم فى الأمور الأرضية والسماوية، والذى تحوّل السيول الجارفة لتحقيق أغراضك، والذى تتحكم فى سير عجلة التاريخ، والذى تشفى إحدى النفوس عن طريق مرض نفس أخرى لئلا يظن أى أحد عندما يلحظ هذا أن ينسب ذلك لقدرته الخاصة، إذا صلح حال شخص آخر كان يرغب فى تقويمه، وأن ذلك التقويم قد تم بسبب كلماته هو.

تاسعاً،٩. بعد أن نشأت هكذا فى حياء وتعقل، فقد تعلمت منك أن تكون أكثر خضوعاً لوالديها من خضوعها لك، وعندما بلغت سن الزواج تم تزويجها لرجل، وقامت بخدمته، وخصصت نفسها لتكسبه إليك، متحدثة عنك بسلوكها، والذى جمّلتها به، فأصبحت مبجلة ومحبوبة لزوجها، وبالإضافة لذلك فقدتحملت إساءاته لفراشها دون أن ينشىء ذلك أى ضغينة مع زوجها بسبب هذا الأمر، وانتظرت رحمتك لتحل عليه حتى إنه بالإيمان بك يصبح طاهراً، وكما كان شخصاً ممتازاً عندما يتودد إليها فقد كان عنيفاً مهتاجاً عندما كان يتملكه الغضب، وقد تعلمت ألا تقاوم زوجاً غاضباً ليس فقط بالعمل ولكن حتى بالكلام، وعندما كانت تحين اللحظة المناسبة بعد أن يهدأ، كانت تشرح له سبب سلوكها، إذا كان ما يزال مكتئباً. وبالاختصار فبينما قام كثيرون بتزويج النساء من أزواج أقل حدة فى الطباع، إلا أنهن مع ذلك كن يحملن آثار الضربات الموجعة على وجوههن بطريقة غير لائقة، وكانت النساء تخنّ أزواجهن بأحاديثهن الودية، فكانت هى تلومهن وتعنف أقوالهن، كما لو كانت تتبسط معهن، وكانت تنصحهن بطريقة محتشمة وتقول لهن: «إنه منذ الوقت الذى سمعن فيه نصائح الزواج تُتلى عليهن فإنهن يجب أن يعتبرن هذه النصائح الوسائل التى تجعلهن فى خدمة أزواجهن،

وأن يتذكرن شروط عقد الزواج أيضاً، ولا يصح أن تكون لهن اليد العليا على سادتهن.»
وعندما كانت تعلّم هؤلاء النسوة كم تحملت هى مع زوج شرس كهذا كن يتعجبن كيف أنهن لم يسمعن ولم يثبت بأى دليل أن (باتريكيوس) ضرب زوجته ولا حتى أنهما اختلفا أو انهمكا فى صراع منزلى حتى لمدة يوم واحد، وكن يسألنها سراً عن سبب ذلك فكانت دائماً تعلمهن عاداتها التى سردتها من قبل، وعندما اتبعن نصائحها قدمن لها الشكر، ولكن اللاتى لم يأخذن بها لم يستطعن ممارسة الخضوع. وبهذه الطريقة تغلبت أيضاً على حماتها، التى كانت من قبل مهتاجة ضدها نتيجة الهمهمات الصادرة من الخادمات الشريرات، لقد قهرتها بخضوعها ومثابرتها فى التحمل والوداعة، وقالت الحماة من نفسها لابنها عن ألسنة المتطفلات من العبيد، والتى تسببت فى إثارة المشاكل بينها وبين زوجة ابنها، وأرادت عقاب العبيد. وبعد ذلك وتجاوباً مع أمه ورغبة منه فى انضباط المنزل ومراعاة لهدوئه، كان يصحح هذه الأخطاء بلسعات سياطه ضد كل من اكتشف أنه يفعل ذلك، كما أرادت أن يحدث ذلك مع من اكتشفتهم، وهدّدت بأن كل من يقول لها شيئاً شريراً عن زوجة ابنها لكى يرضيها، عليه أن يتوقع هذا النوع من العقاب، وبعد ذلك لم يجرؤ أحد أن يفعل ذلك، وعاشا معاً فى توافق تام وتجانس ملحوظ. وأخيراً فقد كسبت زوجها لك أيضاً، عندما كان على شفا الموت وهو الآن كمؤمن لا تندب فيه ما كانت تتحمله عندما لم يكن مؤمناً. ولقد كانت أيضاً خادمة لخادماتك[٤٥] وكل من عرفها قد أثنى عليها وكرّمها، وأحبك كثيراً بسببها، لأنه كان يستشف حضورك فى قلبها وعن طريق ثمار حديثها المقدس. ولأنها كانت زوجة لرجل واحد، فقد أوفت والديها المكافأة واعتنت بأهل بيتها، فهى مشهود لها فى أعمال صالحة (قارن ١تيموثاوس٥:٤-١٠).

لقد ربت الأولاد وبقدر الأولاد الذين ولدتهم بقدر ما رأت الكثيرين يبتعدون عنك، وأخيراً يا رب، لأنه بنعمتك تسمح لعبيدك أن يتكلموا قبل أن ترقد فيك، ولجميعنا الذين كنا نعيش معاً كشركاء والذين أخذنا نعمة معموديتك، قد أعلنت هى اهتمامها بهم كما لو كانت قد ولدتنا جميعاً وخدمتنا كما لو كانت أنجبتنا جميعاً.

تاسعاً، ١٠. وبعد أن اقترب موعد رحيلها من هذه الحياة، يوم كنت أنت تعلمه، ولكننا لم نكن نعلم عنه شيئاً. فقد حدث كما رتبت أنت، حسب اعتقادى، وحسب مقاصدك الخفية، حدث أنها هى وأنا وقفنا بمفردنا، نستند إلى شبّاك معين، ومن هناك استطعنا أن نرى حديقة

---

(٤٥) عبارة تطلق علي كل من أخذ منصباً كنسياً.

المنزل الذى كنا فيه (تربرتين اوستيا)، وهناك بعيداً عن الجماهير كنا نريح نفسينا من عناء الرحلة البحرية الطويلة، وكنا نتحدث معاً بمفردنا باستمتاع، ونسينا الأحداث الماضية ونتكلم عن المقبلة، وكنا نبحث فيما بيننا وفى وجود الحق، من أنت، حتى يكون مستقبل الحياة الأبدية للقديسين، تلك الحياة التى «لم ترها عين ولم تسمع بها أذن وما لم يخطر على قلب بشر» (إشعياء ٦٤:٤، ١كورنثوس ٢:٩). قد فتحنا قلبينا للينابيع السماوية لينبوعك، ينبوع الحياة، الذى منك، والذى بعد أن رُش منه علينا حسب قوة إدراكنا، يمكننا بطريقة ما أن نستمتع بشىء عظيم كهذا.

وعندما وصل حديثنا إلى الاستنتاج بأن لذة الحواس الجسدية مهما كانت كبيرة فى أى ضوء مادى لا يقارن بسعادة تلك الحياة، بل أن هذه الحياة المادية لا تستحق أن نتحدث عنها، وقد ارتفعت نفسانا فى شوق جارف نحو الله، وبالتدريج كنا ننتقل خلال كل الأشياء المادية والسماء نفسها حيث الشمس والقمر والنجوم تسطع على الأرض، وكنا ما زلنا نرتقى إلى أعلى بمشاعرنا الداخلية وحديثنا، وقد أعجبنا بأعمالك، وفكرنا بعقولنا، بل و بما ورائها حتى نصل لتلك المنطقة ذات الثمر الدائم، وحيث تطعم إسرائيل إلى الأبد بطعام الحق، وحيث الحياة هى الحكمة والذى فيه صنعت كل هذه الأشياء التى كانت والتى سوف تأتى، بينما الحكمة نفسها ليست مخلوقة، ولكنها هى هى بلا تغيير، بل أنها كانت وسوف تكون فى المستقبل، فهذا القول لا ينطبق عليها لأنها موجودة دائماً فهى أبدية. وبينما كنا نتحدث كنا نشتاق للحكمة ولمسناها برقة مع دقات قلبينا، وما الذى يشبه كلمتك يا رب يا إلهنا الذى يظل على الدوام بلا تغيير ودون كبر ويجدد كل الأشياء (الحكمة٧:٢٧).

وهكذا كنا نقول «لو أن عواصف الجسد قد أسكتت، لو أن أطياف الأرض والماء والهواء أسكتت، ولو أن قطبى الأرض قد أبطل عملهما، ولو أن النفس نفسها قد أسكتت داخل نفسها، وتسامت بعدم التفكير فى نفسها، ولو أن الأحلام بطلت والخيالات وكل لسان وكل علامة تمضى، لو سكنت كل هذه الأشياء (لأنه لو أعطى للإنسان أن يسمع هذه الأشياء لسمعها تقول يحمدون اسمك العظيم والمهوب قدوس هو وعز للملك أن يحب الحق أنت ثبّتّ الاستقامة أنت أجريت حقاً وعدلاً (مزمور٩٩:٣-٥).

فقد صمتت الآن لأنها استمعت إليه الذى صنعها، وهو وحده يتكلم ليس بواسطتها بل هو نفسه حتى نسمع كلمته، ليس بلسان جسدى ولا بصوت ملاك ولا بصوت رعد ولا بلغز استعارة، ولكنه هو نفسه الذى نحبه فى هذه الأشياء حتى نسمعه بمعزل عن هذه الأشياء (تماماً

كما فعلنا كلانا الآن وخرجنا من دائرة نفسينا، وبالتأمل السريع لمسنا الحكمة الأزلية التى فوق الكل). ولو استطعنا أن نفعل ذلك، وتملكتنا هذه الحكمة وابتلعنا فيها ولو أخفت حاملها فى أفراح داخلية حتى تصبح الحياة دائماً وأبداً من هذا النوع كما كانت فى لحظة الاستبصار هذه، والتى جعلتنا نتنهد، أفلا ينطبق علينا القول عندئذ «ادخل إلى فرح سيدك»؟» (متى ٢٥:٢١) ومتى يكون ذلك؟ عندما نقوم كلنا ثانية، ولكن هل نتغير كلنا؟ (قارن ١كورنثوس ١٥:٥١). كنت أقول هذه الأشياء، فإن لم تكن بهذه الطريقة وبهذه الكلمات، فأنت يا رب تعرف أنه فى ذلك اليوم عندما كنا نتحدث عن هذه الأشياء فإن هذا العالم بكل مباهجه كان بلا قيمة أمامنا، ونحن نردد هذه الكلمات، ثم قالت لى أمى: «يا ابنى فيما يخصنى إنى لا أسر بشىء فى هذه الحياة، فأنا لا أعرف ما الذى سوف أظل أعمله هنا، ولماذا أعمله ولماذا أنا هنا لأن رجائى فى هذا العالم قد انتهى، هناك شىء واحد من أجله كنت أرغب أن أظل فى هذه الحياة لبعض الوقت، وهو لكى أراك مسيحياً مؤمناً قبل أن أموت، ولقد حقق لى الله هذه الرغبة تماماً حتى أراك، عبداً له، وأيضاً تحتقر السعادة الأرضية. فما الذى أفعله الآن هنا؟

تاسعاً،١١. ما قلته رداً على هذه النقاط لا أذكره جيداً، ومع ذلك فما أن مضت خمسة أيام بعد ذلك أو ما لا يزيد كثيراً حتى أصابتها الحمى، وبينما كانت مريضة وفى يوم معين شعرت بكسوف روحها، ولبرهة وجيزة تسللت بعيداً عن الأشياء المنظورة، فاندفعنا نحوها ولكنها استعادت حواسها بسرعة، وإذ كانت تنظر إلىّ وإلى أخى الواقف هناك قالت لنا كما لو كانت تتساءل «أين أنا؟» ثم حملقت فينا بعد أن صدمنا الحزن وقالت:«هنا تدفنون أمكما» لقد كنت صامتاً ومحاولاً السيطرة على دموعى، ومع ذلك قال أخى شيئاً يفيد أنه يريدها أن تموت فى بلدها لا فى بلد أجنبى لأن ذلك أفضل، وعندما سمعت هذا ردت عليه بنظرة متلهفة فى عينيها وهى مدركة لهذه الأشياء، وحملقت فىّ وقالت:«انظر إلى ما قاله»، ثم قالت لكلينا «ضعا جسدى فى أى مكان، فالاهتمام به لا يجب أن يزعجكما بأى حال من الأحوال، وأطلب منكما هذا فقط أنه حيثما تكونان فاذكرانى عند مذبح الرب»، وعندما صاغت هذه الأفكار بأى كلمات استطاعت أن تقولها، صمتت بعد أن أنهكها المرض اللعين..

وحتى بعد ذلك سمعت أنه من قبل عندما كنا فى (أوستيا) كانت تتحدث مع أصدقائى يوماً ما عندما كنت بعيداً، وبثقة الأمومة الأكيدة كانت تتحدث عن احتقار هذه الحياة، وعن أن الموت حسن. ولقد اندهشوا أن يروا هذه الفضائل فى امرأة- وبما أنك قد أعطيتها لها- ثم سألتها إن كانت لا تخشى أن تترك جسدها بعيداً عن مدينتها، فأجابت «ليس شىء بعيد عن الله، وأنا لا أخشى شيئاً لأنى حتى لو كنت فى نهاية العالم فهو يعرف مكانى ليقيمنى من

الموت»، وهكذا فى اليوم التاسع لمرضها فى السنة السادسة والخمسين من حياتها والثالثة والثلاثين من حياتى فهذه النفس المتدينة المملوءة بالفضائل تحررت من الجسد.

(أوغسطينوس يقرر أن مآقيه كانت جافة عند موت أمه بالرغم من حزنه العميق، فقط عندما تذكر الترنيمة الجميلة لأمبروز والتى تقول «يا الله خالق الكل» فإن حزنه وجد متنفساً له).

٩ ,١٢. ثم بالتدريج استرجعت مشاعرى الأولى من نحو أمتك، وحديثها المخلص معك، ووداعتها وإذعانها لنا فى القداسة، وفجأة افتقدت هذا الإذعان، لقد كان مسراً أن أبكى فى حضرتك لأجلها وعليها، لأجل نفسى وعليها، وتركت لدموعى العنان، تلك الدموع التى حبستها حتى تسيل على قدر ما تريد، ساكباً إياها تحت قلبى الذى استراح فيها، وحيث إن أذنيك كانتا هناك، وهى ليست أذنىّ إنسان الذى قد يفسر بكائى بروح متعال. والآن يا رب سوف أعترف لك كتابة، فليقرأها كل من يريد وليفسرها كما يريد، وإذا وجد خطيئة فى بكائى على أمى لجزء من الساعة- الأم التى ماتت أمام أعيننا والتى كانت قد بكت علىّ لعدة سنوات حتى أعيش فى عينيك- لاتدعه يضحك بل بالأحرى إذا كان إنساناً ذا محبة سامية، لتدعه يبكى على خطاياى ضدك، يا أبا كل إخوة مسيحك.

(يطلب أوغسطينوس من الله أن يغفر أية خطايا يمكن أن تكون قد ارتكبتها أمه. وينهى الكتاب التاسع كما يلى:)

تاسعاً،١٣. لذلك لتكن فى سلام مع زوجها الذى لم تتزوج قبله أوبعده أحداً، والذى خدمته بصبر، والذى جاءت بثمرة زواجها منه إليك، وحتى تربحه أيضاً لك، وألهم يا ربى يا إلهى، خدامك، إخوتى، أبناءك، سادتى، والذين أخدمهم بالقلب والصوت والكتابة حتى إنه عندما يقرأ الكثيرون ذلك يتذكرون عند مذبحك (مونيكا) أمتك مع (باتريكيوس) والذى كان زوجاً لها، والذى جئت بى إلى الحياة عن طريقه، لا أعرف بأية كيفية، ليذكروا بعاطفة جيّاشة والدىّ فى هذا العالم الوقتى، وإخوتى عبيدك، أيها الآب فى أمّنا المؤمنة وإخوتى زملائى فى الوطن، وأورشليم السماوية، والذى يشتاق شعبك إليها منذ وقت رحيلهم حتى عودتهم إليها حتى إن ما طلبته منى على فراش موتها يتحقق بوفرة عن طريق اعترافاتى، وبصلوات الكثيرين أكثر مما يتحقق بصلاتى الخاصة.

Suggestions for further Reading
اقتراحات لمزيد من القراءات

Bailey, Derrick Sherwin. **Sexual Relation in christian Thought.** New york: Harper & Brothers 1959.

Campenhausen, Hans von. **The Virigin Birth in the Theology of The Ancient Church.** Studies in Historical Theology 2. Napierville, III..: Alec R. Allenson, Inc., 1964.

Clark, Elizabeth A. **Jerome, Chrysostom, and Friends: Essays and Translations.** Studies in Women and Religion 2. New York and Toronto: The Edwin Mellen Press, 1979.

Clark, Elizabeth A. **The Life of Melania the Younger: Translation and Commentary**. Toronto: The Edwin Mellen Press, 1983.

Clark, Elizabeth A. and Hatch, Diane F. **The Golden Bough, The Oaken Cross: The Virgilian Cento Of Faltonia Betitia Propa**. Chico, Cal.: Scholars Press, 1981.

Danielou, Jean. **The Ministry of Women in the Early Church.** Trans. G. Simon. London: Faith Press, 1961.

Davies, Stevan L. **The Revolt of the Widows: the Social World of the Apocryphal Acts. Carbondale**, III.:Southern Illinois University Press. 1980.

Pagels, Elaine. **The Gnostic Gospels.** New York: Random House, 1979 (especially chap.3).

Pomeroy, Sarah B. **Goddesses, Whores, Wives, and Slaves: Women in Classical Antiquity**. New York: Schocken Books, 1975.

Ruether, Rosemary Radford, "Misogynism and Virginal Feminism in the Fathers of the Church," in R.R Ruether, ed., **Religion and Sexism: Images of Women in the Jewish and Christian Traditions.** New York: Simon and Schuster, 1974.


Ruether, Rosemary Radford. " Mothers of the Church: Ascetic Women in the Late Patristic Age" in R. Ruether and E. Mclaughlin, eds., **Women of Spirit: Female Leadership in the Jewish and Christian Traditions**. New York: Simon and Schuster, 1979.

Tavard, George H. **Woman in Christian Tradition.** Notre Dame and London: University of Notre Dame Press, 1973.

Wilkinson, John. **Egeria's Travels.** London: SPCK, 1973.

Yarbrough, Anne."Christianization in the Fourth Century: The Example of Roman Women" **Church History** 45 (1976), 149-165.





Dar El-Thaqafa
Elizabeth A. Clark
WOMEN IN THE EARLY CHURCH
Message of the Fathers of the Church
13